

سلسلة
أعلام
الإسلام

عبد الحلیم الجندي

الإمام محمد بن عبد الله



سلسلة
أعلام
الإسلام
(١)

الإمام محمد بن عبد الله

المستشار
عبد الحليم الجندى

الطبعة الثانية



دار المعارف

المؤلف

المستشار عبد الحليم الجندي

- الرئيس السابق لإدارة قضايا الحكومة في جمهورية مصر العربية .
- رئيس لجنة تجميع مبادئ الشريعة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- عضو مجمع البحوث بالأزهر :
- عضو لجنة الشريعة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٠ م ٠ ع ٠

مقدمة السلسلة

لعل السير أصعب فرع من فروع التأليف ، فهي تتطلب من كاتبها دقة المؤرخ وتحريه الحقيقة ، وطموح الروائي الذي يسعى إلى أن يلدع أثرا من آثار الفن الرفيع ، ثم إن مهمة كاتب السير تختلف عن مهمة المؤرخ ، فهو يتناول حياة شخص بعينه ، أى أنه يعالج الطبيعة البشرية بأغوارها العميقة ونوازعها المعقدة ، ومسارها التي تحار البرية فيها ، وقدرتها على السمو إلى أرحب الآفاق وأعلاها ، والتدنى إلى أحط ما تهوى إليه الوحوش من قسوة وفظاعة . فالسيرة إذن فن سام ، والتفرقة بينها وبين التاريخ تفرقة حديثة ، وربما كان بلوتاخ نفسه ، وهو أعظم كتاب السير في العصور القديمة ، لم يدرك إمكان قيام السيرة من حيث هي فن مستقل من فنون الأدب .

والسيرة الجيدة تتطلب من الكاتب أول ما تتطلب أن يحب الشخصية التي يكتب عنها ، وليس من المفروض فيه أن يدافع عن هذه الشخصية بالحق أو بالباطل ، وإنما المطلوب منه أن يحللها ويتقمصها ويصورها للقراء في صورة جياشة ، ويجليها لهم كأنهم يرونها رأى العين ، ومحسون بأحاسيسها ، ويشعرون بنوازعها ونزعاتها ويعيشون حياتها . ومن هنا أصبح للسير شأن في التاريخ وفي إمتاع القارئ ، بل هي قد غدت مذهباً في دراسة التاريخ ، لأن في دراسة علم من الأعلام دراسة لعصره وبيئته والشعب الذي نشأ فيه ، ورؤيته للأحداث ، وخبرته بالناس وأثره فيهم وتأثره بهم ، ومعالجته للمشكلات والخطوب ، بل إن فيها إلى جانب المتعة عبرة وأسوة ينشأ عليها الشباب ، وتزيدهم انتماء إلى بيئتهم ووطنهم .

والإسلام غنى برجالاته وعظمائه وأعلامه . ولا شك أن ميدان الكتابة عنهم ميدان رحب لم يبذل فيه من الجهود الموفقة إلا القليل ، مع أن علماء الغرب المنصفين أنفسهم قد أشادوا أيما إشادة بهؤلاء الأعلام الذين تفخر بهم أى أمة . ويسعد دار المعارف أن تسهم بنصيب فى هذا الميدان فتصدر سلسلة أعلام الإسلام .

ومن أمارات التوفيق أن تبدأ هذه السلسلة بزعم حركة الإصلاح الحديث فى مصر الأستاذ الإمام محمد عبده « وحسبنا أن نقول إنه ما من حركة من حركات الإصلاح فى أى ميدان من ميادينها إلا وتعود إليه . وما أحتاجنا الآن إلى دراسة سيرته العطرة ونحن على أبواب تغيير شامل يهدف إلى إعادة بناء الإنسان المصرى بعد أن ظهرت تباشير السلام وتبينت لنا مقتضياته وما يتطلبه من جهود كل من يظله هذا الوطن الكريم ألا وهو « مصر الخالدة » .

المستشار الثقافى للدار
إبراهيم زكى خورشيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بهذا الكتاب تختتم تراجم سبعة بدأت بأئمة الفقه الأربعة لأهل السنة ، فالإمام جعفر الصادق إمام الشيعة فالإمام محمد بن عبد الوهاب ، ليظهر للمعاصرين بالطريقة الشخصية من حياة الأئمة ، والطريقة الموضوعية من أفكارهم ، على اختلاف طرائقهم ومواقفهم ، « أن العقيدة الإسلامية نظرية وتطبيقاتها » ، وأن شريعتها هي الكمال الفكري في وضعه البشرى .

وفي الأعوام المائة التي تعرض لها الصفحات التالية دليل على إمكان التقدم وإن حمل راياته بضعة رجال يحثم على صدر بلادهم جيش الاحتلال .

كان محمد عبده يسراً كله . حيى حياته في زمن المطبعة ، وتعلقت الأبصار به ، فلا تكاد تخفى من حياته العامة واقعة لم يسجلها قلمه أو أقلام معاصريه أو معاصريهم . وفي شخصيته من النظام والتدفق ، اللذين يتناجان بوضوح ومنطق ، مايلزم الكاتب اصطحابه في مراحل حياته منذ قاداته الحرية الغريزية فيه إلى حلقة جمال الدين . ومنها إلى الصحافة فالثورة فالحرب فالمنفى وأجاءه المنفى إلى مشيخة القضاء . وهناك تجلى في كل أفق وآلت إليه مشيخة الإسلام .

وعلى هذا النسق تتابع أبواب هذا الكتاب .

* * *

ياشباب الأيام التي نرتجها للإسلام . هؤلاء آباؤكم صنعوا لكم ما بين أيديكم . وسيألكم بنوكم . فاعملوا ، لتقولوا لهم : لقد حملنا المشاعل في انتظار ضوء النهار .

البَابُ الأول

بزوغ نجم

١٨٤٩ - ١٨٧٩

١٢٦٥ - ١٢٩٦

(النظر واجب بالإجماع .

فياك إياك أن تجعل العجز فطرة)

محمد عبده

إذا كان الطفل أبا الرجل ومن سجايا الصبا ما يدخل القبر مع الشيخ الهرم ، فإنه لا اجتهاد مع النص الوارد عن الإمام في مذكراته :

(أصبت نجاحاً كثيراً فيما عنيت به . أخفقت في كثير مما وجهت عزيمتي إليه ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرز في طبعي وشيء منها مما احتف حولي وطائفة منها من أصالتي وخطلي . ومن الذي يستطيع أن يفصل ذلك غيري حتى يكون إن شاء الله عبرة لمن يأتي بعدي ؟) .

فلنستمع إلى حديثه عن نشأته وطبعه وبدايات خطوه . فهذه هي النواة أم النخلة :
(تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت إلى دار حافظ للقرآن قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة . ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه في مدة ستين أدركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاءوا من مكتب آخر ليقرأ القرآن عند هذا الحافظ ظناً منها أن نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملني والدي إلى طنطا حيث كان أخى لأمى الشيخ مجاهد رحمه الله ، لأجود القرآن في المسجد الأحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد . وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ الهجرية .

وفي سنة ١٢٨١ هجرية جلست في دروس العلم وبدأت بتلقى شرح الكفراوى على الآجرومية في المسجد الأحمدي بطنطا ، وقضيت سنة ونصف سنة لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم ، وأن المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا نفهمها ولا عناية لهم بضحيم معانيها لمن لم يعرفها .

وهربت من الدروس واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر على أخى فأخذنى إلى الجامع الأحمدي وأراد إكراهى على طلب العلم فأبيت . . . فأخذت ما كان لى من ثياب ومتاع ورجعت إلى محلة نصر على نية ألا أعود إلى طلب العلم . وتزوجت فى سنة ١٢٨٢)
ثم يعلق بقوله :

(فهذا أول أثر وجدته فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا وهى بعينها طريقته فى الأزهر . وهو الأثر الذى يجده ٩٥٪ ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من يلتزمون هذه السبيل فى التعليم ، سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعدادة للفهم . غير أن الأغلب من الطلبة لا يفهمون أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً . فيستمرون على الطلب إلى أن يبلغوا سن الرجال وهم فى أحلام الأطفال . ثم يتلى الناس بهم وتصاب بهم العامة) .

وهذا الذى يحدثنا به أول الحديث يُحدثه فى النفس نص ذلك الدرس الأول فى شرح الكفراوى على الآجرومية (بسم الله الرحمن الرحيم : الباء حرف جر . واسم مجرور بالباء وعلامة جره كسرة فى آخره . والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره أوّل . وأوّل فعل مضارع مرفوع لتجرده من الناصب والجازم . والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا . هذا إن جعلت الباء أصلية . وإن جعلتها زائدة فلا تحتاج إلى متعلق به .

ويقول فى الإعراب حينئذ : واسم مبتدأ مرفوع بالابتداء وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد . والخبر محذوف تقديره اسم الله مبدوء به)

وأول ما نستفيد من الواقعة والتعليق عليها أن الطفل المولود فى سنة ١٢٦٥هـ - ١٨٤٩م تعلم القراءة فى دار أبيه حيث كان نزوعاً للعلم وجاءه أورفاه ، منذ قرأ القرآن على حافظ ولم يشارك الآخرين إلا بعد أن سبقها بقراءة شاملة .

وسيقى فيه من آثار ذلك القلعة على العمل والمبادرة به وحده ، والاستعداد الكامل لما يتصدى له . وستلألاً فى ألفاظه وأسلوبه آثار التجويد ، فتحلو العربية على لسانه حلاوتها فى آذان سامعيه وأذهان قرائه ، ويبلغ بأسلوبه أعلى مستويات البلاغة .

ولا يلاحظ تأخره فى الجلوس للدرس فقد جاءه حافظاً ومجوداً للقرآن : وهاتان درجتان تشرئب إليهما أعناق الطلبة . وحفظ القرآن مدخل لكل العلوم وخاصة الفقه وعلوم اللغة .

وإنما يلاحظ هربه واختفاؤه ، وإصراره على الانقطاع وتصفية المتاع وإحصان نفسه بالزواج ، والامتناع عن العودة إلى طلب علم لاينفع . فهذه أمارات أمور كلية فى غريزته :

● أولها استقلال الإرادة وإعلانها وفرضها على أخيه وأبيه وذويه ، « فالحرية الفكرية أو الشخصية » فطرة فيه . يستمسك بها لنفسه ويسلم بها لغيره ويعلمها للجميع . ويعلمها ركناً ركيناً للإسلام ، ويطالب بها لبلادها .

● أما الثاني فيلاد هذه العزمة الصادقة في المعهد الديني ، ومن جراء العلوم التي تدرس فيه . فسراه - من وحدة شخصيته واطراد فكره - يجعل « إصلاح التعليم الديني واللغوي والقضاء الشرعي » رسالة حياته .

● وأما الثالث فهو منع « الصدمة » من أن تعطل العقل أو العمل لتنافر « الغايات » النبيلة و « الوسائل » البالية . فإذا كان الدرس غير مفهوم تعين إحداث التفاهم بإصلاح حال المدرس ، لا الصباح في وجه المجتمع . ومن أجل ذلك سينشرح صدر الفتي الثائر في الجامع الأحمدى لكل ماهو عصري ، تأذن به الشريعة ، ويمسى « التطور » وسيلة يتوسل بها أو غاية يتغياها . ولانستطرد في الاستنباط من موقف سلبي للصبي . ولتتابع الترجمة الذاتية للعمل الإيجابي الذي تهب به السماء موهبة لرجل هو هبة لأمة :

الشيخ درويش :

بعد أن تزوجت بأربعين يوماً جاءني والدي ضحوة نهار وألزمي بالذهاب إلى طنطا لطلب العلم .. وأصبحني والدي بأحد أقاربي وكان قوى البنية شديد البأس .. فقلت لصاحبي : أما مداومة السير فلا طاقة لي بها .. وأجريت الفرس هارباً من مشادته وقلت إني ذاهب إلى كنيسة أورين - بلدة غالب سكانها من خؤولة أبي - وقد فرح بي شبان القرية لأنني كنت معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح ..

وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوماً تحولت فيها حالتي .. ذلك أن أحد أخوال أبي ، واسمه الشيخ درويش ، سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا .. ووصل في أسفاره إلى طرابلس الغرب ، وجلس إلى السيد محمد المدني^(١) .. ، والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الآستانة وتوفي بها^(٢) ، وتعلم عنده شيئاً من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية^(٣)

(١) ضريحه الآن في مصرانة بليليا .

(٢) محمد ظافر الطرابلسي من مشايخ الدرقاوية وهي طريقة شب فيها السنوسي ، وهو من نسل الإمام الحسن وفقه مالكي ، وكان الشيخ ظافر مقرباً من السلطان عبد الحميد سلطان تركيا .

(٣) أتباع أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ - وهو من نسل الإمامين الحسن والحسين . نشأ في بلاد المغرب وساح في البلاد الإسلامية واستقر بمصر حيث مات ودفن على شاطئ البحر الأحمر وكان فقيهاً درس الفقه المالكي .

وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويحيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من أسفاره إلى قريته واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحة الأرض وكسب الرزق بالزراعة .

جاءني هذا الشيخ صبيحة الليلة التي بتها في الكنيسة ويده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني إلى بعض مريديه . . . وسألني أن أقرأ له فيها شيئاً لضعف بصره فرفضت طلبه بشدة . . . ولما وضع الكتاب بين يدي رميته إلى بعيد . . . لكن الشيخ تبسم ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر . فاندفع يفسر لي ماقرأت بعبارة واضحة ، تغالب إعراض فتغلبه وتسبق إلى نفسي . . . وبعد قليل جاءني الشبان يدعونني إلى «ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة» في نهر قريب من القرية ، فرميت الكتاب وانصرفت إليهم .

بعد العصر جاءني الشيخ بكتابه وألح عليّ في قراءة شيء منه فقرأت ثم تركته إلى اللعب . وفعل في اليوم التالي كما فعل في الأول . أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أملّ فيها ، فقال لي إنه في حاجة إلى الذهاب إلى المزرعة ليعمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه ، ومضيت أقرؤه وكلمت مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة . . . وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته . وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل إلى الفهم .

كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية . وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق ، وتطهيرها من دنس الرذائل ، وترهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا .

لم يأت على اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إليّ ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخضة وزهو ، وعاد أحب شيء إليّ ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم . . .

وفي اليوم السابع سألت الشيخ : ماهي طريقتكم ؟ فقال : طريقتنا هي الإسلام . فقلت : أو ليس كل الناس بمسلمين ؟ قال : لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ، ولما سمعتمهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب . . .

سألته : ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات ؟

قال : لا ورد لنا سوى القرآن . تقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر . . .

قلت : إني لم أفهم القرآن ولم أتعلم شيئاً !

قال : أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة وبركتها يفيض الله عليك التفصيل . وإذا خلوت

فاذكر الله . . .

فلم تمض على بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير في عالم آخر . . ولم أجد إماماً يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد . .

هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ درويش خضر . . وهو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا . .

وفي اليوم الخامس عشر مر بي أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرني أن والدتي ذهبت إلى طنطا لتراني . . فأصبحت مبكراً إلى طنطا . .

وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ . . وجلست في الدرس (شرح الزرقاني على العزّيّة والشيخ خالد على الآجرومية) فوجدت نفسي أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله .

وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت إلى الأزهر . . .

وفي أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب إلى « محلة نصر »^(١) لأقيم بها شهرين من منتصف شعبان إلى منتصف شوال . . وكنت عند وصولي إلى البلد أجد خال والدي الشيخ درويش قد سبقني إليه . . فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم إلى يوم سفرى . وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ؟ ما درست الحساب ؟ ما درست شيئاً من مبادئ الهندسة ؟ وهكذا . . وكنت أقول له : بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الأزهر فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أى مكان . . فكنت إذا رجعت إلى القاهرة أتمس هذه العلوم . . إلى أن جاء المرحوم « السيد » جمال الدين الأفغانى إلى مصر أواخر سنة ١٢٨٦ هـ .

وقد صاحبه ابتداء من شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت ألتقى عنده بعض العلوم الرياضية والحكمة والكلامية وأدعو الناس إلى التلقى عنه كذلك . وأخذ مشايخ الأزهر من طلبته يقولون علينا الأقاويل^(٢) . . فكنت إذا رجعت إلى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لى : (إن

(١) أوضح الإمام في مذكراته أنها سميت باسم رجل كانت إقطاعاً له ، وأن جدود الإمام لأبيه كانوا يسمون بيت التركمانى ، وأن جدوده لأمه يقال إنهم يتصلون في النسب بعمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) جملة الأقاويل أنه يدرس في بيته علوماً لا تدرس في الأزهر . أولاً يذهب إلى الأزهر . إلا يوم الجمعة . أو أن الكبراء والأمراء والطلاب يمشون دروسه ، أو أنه يحضهم على الكتابة في الصحف وأنهم يكتبون فيها . ويضيف الشيخ محمد عبده (بقى علينا أن نذكر له وصفاً لو سكتنا عنه سألنا عن إغفاله . وهو أنه كان يتوسع في إتيان بعض المباحث كالجلوس في المترهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المهزوين لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار . وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية فكان بعيداً عن اللهو وكان يوافيه كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم - وهذا الوصف مما عده عليه بعض حاسديه . لكن الله يحب أن توثق رخصه كما يحب أن توثق عزائمهم وأي غضاضة على المرء المؤمن في أن يفرج بعضه بما أباح الله له) . =

الله هو العليم الحكيم . ولا علم يفوق علمه وحكمته . وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل . وماتقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة . فلا شيء من العلم بمقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديه) .

* * *

وترى بادی الرأي أن الرياضة الباكرة ستحفظ عليه العافية طول حياته . وأن السباحة ستعلمه الصبر الجميل والسبح الطويل بين التيارات المتدافعة . كما تعلمه الفروسية أن يتوازن وينضبط إذ ينطلق ، وأن يركض أو يسبق والناس يمشون ، أو يتخلفون . أما الرماية فعلمته البدار بالعمل بيده وفكره والتركيز على هدفه ، والاستعداد العصبي والدهني . وكل أولئك من السنة (١) .

وترى أن الشيخ درويش أعاده إلى الجادة بالثابرة والمصابرة ، وبالبسر الذي يروض النفوس النافرة ، وبالطريقة المنجبة في التربية والمنجحة في الطب وهي استعمال عناصر الصحة الذاتية في مقاومة عوامل المرض . إذ جعله يقرأ له . ثم تركه يقرأ لنفسه ، فتفتحت نفسه بنفسه . وكل ذلك منهج قرآني هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

وأن الشيخ درويش أنقذه بالقرآن وفصل له طريقة فهمه . فالقرآن يخاطب العقل والفطرة للناس كافة ، إن علماء وإن جهلاء ، وهب لكل قارئ معاني غضة (يكفيك أن تقرأ الجملة وبركتها يفيض الله عليك التفصيل) والفيض لا يكون إلا لمن أخلص الدعاء وذكر الله ، ذلك قوله (وإذا خلوت فاذكر الله) . . وللشيخ درويش مستوى علمي وإن كان يخفيه - كدأب المتصوفة الأصلاء - فهو يحفظ الموطأ . وناهيك به وبصاحبه . فهو نواة فقه الإمام مالك بن أنس .

وأن الشيخ درويش خلص التلميذ من قيود التقليد البغيض إلى عالم التوحيد والزهادة والعبادة وإلى العمل بذلك كله . فتكشف وتهجد وتوجه من جهاد النفس إلى اجتهاد الرأي ، فراح يدق الأبواب التي سكرها من قبل بيده . ثم يسعى بعد أشهر إلى الملاء الأعلى في الأزهر في فبراير سنة ١٨٦٦ (شوال ١٢٨٢) ، ثم ينطلق من علوم القرآن والحديث والشريعة واللغة إلى علوم أخرى لم تبق منها في الأزهر إلا ذكريات . وبعد أن كان اعتزال الناس ديدناً له أصلح باله الشيخ درويش . قال في المذكرات :

= وكانت بعض هذه المجالس في قهوة متاتيا التي تقع خلف الأوبرا المصرية التي أقامها إسماعيل على شاطئ بركة الأزبكية التي ردمت وصارت حديقة كبرى تنفس فيها القاهرة .

(١) وهو القائل عليه السلام (علموا أبناءكم السباحة والرماية . . .) والقائل «كل شيء ليس من ذكر الله عز وجل فهو لعب إلا أن يكون أربعة : ملاعبة الرجل امرأته ، وتأديب الرجل فرسه ومشى الرجل بين الفرضين وتعلم الرجل السباحة» وكان له عليه الصلاة والسلام فرس اسمه «سبحه» راهن عليه فجاء سابقاً فهش لذلك .

(لكن بعد مضي سبع سنين على ذلك والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره ، بالصوم تارة ولبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى ، قال لي عندما رجعت إلى محلة نصر سنة ١٢٨٨ إلى متى هذه العزلة . .

فذكرت له اشمئزازي من الناس وزهادتي في معاشرتهم وثقلهم على نفسي إذا مالقيتهم ، وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه إذا عرض عليهم . فقال لي : هذا من أقوى الدواعي إلى ما حشنتك عليه . فلو كانوا جميعاً هداة مهديين لما كانوا في حاجة إليك . ثم أخذ يستصحبني في مجالس العامة ويفتح الكلام في الشئون المختلفة ويوجه إليّ الخطاب لأنكلم . فيتكلم الحاضرون فأجيبهم وأنطلق في القول على وجل في أول الأمر . وما زال بي حتى وُجد عندي شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم .

وفي شوال من تلك السنة ودعني وبكى بكاء شديداً . ومات في السنة التالية ١٢٨٩ - ١٨٧٣م) .

هكذا صيرته آخرة لمسات شيخه ألوفاً مألوفاً ، بعد إذ أودعه سر التصوف الصادق : القرآن والسنة وقهر النفس والتزام القيام بالعمل الصالح . ووصاه بالعلوم الحديثة . .

في الأزهر

يقول فتحي باشا زغلول في تقرير لجنة إصلاح الأزهر المطبوع سنة ١٩١٠ : (جاء على الأزهر زمن ، العهد به قريب ، كان الكثيرون من أهله يعتبرون استبدال الحنفيات بالمبعضات منافياً للدين ، وتعهد الكتب بالحفظ والصون في مكان خاص بخالفاً للدين ، وتعليم العلوم الحديثة مفسداً للدين) . وفي العهد الذي دخل فيه تلميذنا الأزهر كانت العلوم الشرعية مقصورة على الفقه والأصول والتوحيد والحديث والتفسير ، أما علوم العربية فهي النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق . . لكن الحساب يدرس في غير أوقات العمل الرسمية .

• وعندما نقارن هذا الثبت الضئيل من العلوم بما كانت تحويه إجازة الأزهر في القرن الثاني عشر تظهر على فداحة الانحدار بالمستوى العلمي ، ومخاطر استمراره ، فقد كان فيها فوق علوم الفقه واللغة التي سلفت ، (علوم الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحركات وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والمهيئة ، وعلم الأريثماتيقي وعلم المزاويل ، وعلم الأعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهي الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم

التشريع وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم) .
 لكن مدافع الحملة الفرنسية أسمعت رجال الأزهر صوت أوربا ، كما كان علماؤها يدعونهم لزيارة معالماها ، ومن أبرز الذين زاروها الجبرتي المؤرخ^(١) والشيخ حسن العطار .
 ولد الشيخ العطار سنة ١١٩٠ هـ سنة ١٧٧٦ م ومات سنة ١٨٣٥ م - ودرس الطبيعة والفلك والهندسة والمنطق والطب وبعض الميكانيكا وكان دائم الاطلاع على الترجمات - ولما أنشأ محمد علي صحيفة الوقائع المصرية ولاه تحريرها ثم مشيخة الأزهر .
 وقد وجدت بخطه هوامش على كتاب تقويم البلدان لأبي القدا وطبقات الأطباء . وله تأليف في الطب وغيره . لكن أثره الدائم هو اختياره رفاة رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) من بين علماء الأزهر ليكون إماماً للمبعوثين إلى أوربا وتكليفه أن (يتب على مايقع في هذه السفارة وعلى مايراه ويصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة وأن يقبده ليكون نافعا في كشف القناع عن حيا تلك البقاع) . كما روى رفاة بك . بعد أن مات الشيخ العطار سنة ١٨٣٥ .
 ولم يأل رفاة جهداً في تنفيذ الوصية فأصبح مثالا لما يمكن أن يتطور إليه رجل الأزهر : أتقن الفرنسية وتعلم علوم أوربا ودعا إلى تعليم المرأة وكتب عن الثورة الفرنسية وعن تقييد النظام الملكي وترجم الدستور الفرنسي . وعلى يده بدأت حركة الترجمة الحديثة من علوم أوربا ونشأت مدرسة الألسن ابتغاء إعداد رجال جدد يديرون الحكومة العصرية ولتكون رأساً لنظام تعليمي جديد .
 وهو يقول بعد أن يذكر علوم اللغة والفقه وعلماء الأزهر : (إن هذا وحده لايفي للوطن بقضاء الوطر والكمال يقبل الكمال ، كما هو متعارف عليه عند أهل النظر . ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة ، منوط بعد ولي الأمر بهذه العصابة ، التي كان ينبغي أن تضيف إلى مايجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية من كل مايمحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية)

* * *

اختار تلميذنا الجديد حلقة الشيخ عليش حيث الفقه المالكي - مذهب الشيخ درويش - كما جلس إلى الشيخ الجيزاوي والشيخ البحراوي والشيخ الرفاعي ، وفي الأدب اختار الشيخ محمد

(١) وصف الجبرتي ما رأى هناك . قال بين ما قال (ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوعة فيها بعض المياه المستخرجة وصب منها شيئاً في كأس ، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا المامان . وصعد منها دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر . قلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل ذلك بمياه أخرى . فجمد حجراً أزرق . وبأخرى فصار حجراً أحمر ياقوتياً . وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على اللسان وضربه بمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القريانة اترعجت له . فضحكوا منا)

البيونى وكان شاعراً ، حسن البزة ، سيعين إماماً للمعية الخديوية .
 وأما علوم المنطق والفلسفة فاختر لها حلقة الشيخ حسن الطويل (١٨٩٩) وهو صوفى عريق .
 - ينصحه رؤساؤه أن يلبس خير اللباس إذ يزور على باشا مبارك (الوزير) دار العلوم - فيقول :
 إذن ابعد بجبة إلى دار العلوم أما إن أردت حسن الطويل فهو في ملبسه هذا .
 - ويدعى في رمضان لدى السادة ويقتصر لإفطاره على طبق الفول .
 - ويطرد من دار العلوم فيعينه على المعاش صاحب مقهى . فلما عاد قاسم الرجل مرتبه كما فعل معه
 وهو مطرود .

وسرى التلميذ بعد بضع سنين يترك المذهب المالكي الذي لا يطبق في المحاكم إلى المذهب الحنفي
 المطبق . فيجمع بدراسة المذهبين أكثر الفقه الإسلامى . وهذا هو التأسيس المثالى لفقيه مطلوب إليه
 التطور . فالمذهب الحنفي «مذهب أهل الرأى» والمذهب المالكي أكثر المذاهب الإسلامية عملاً
 (بالمصلحة) .

«السيد» جمال الدين الأفغانى :

✓ ثم تفتحت أبواب السماء بقدوم جمال الدين ، فقصده إليه مع شيخه حسن الطويل بخان
 أبى طاقية قريباً من الأزهر فلزمه ابتداء من أول سنة ١٢٨٧ (١٨٧١) .
 روى الهلباوى بك أنه حضر على جمال الدين فى السنوات الثلاثة الأخيرة لمقامه فى مصر
 (١٢٩٢ - ١٢٩٥ : ١٨٧٦ - ١٨٧٩) (شرح كتاب الهداية فى الفلسفة . وكان يقرؤه بعد الساعة
 رابعة فى منزله . وبعد صلاة المغرب يلقي علينا دروساً فى المنطق فى كتاب المطالع . وفى أيام الخميس
 والجمعة نحضر دروساً فى العلوم الرياضية من فلك وحساب ومبادئ الهندسة والقواعد الأربعة من
 وضع أرسطو . وهكذا عشرة أشهر من كل سنة ابتداء من سنة ١٢٩٢ إلى ١٢٩٥ ، وأفهمنى
 جمال الدين أن كتب الفقه عبارة عن قوانين ومن العبث الاشتغال بها إذا لم يمكن تطبيقها عملياً . .)
 أما محمد عبده فأخذ على جمال الدين^(١) (كتاب الزوراء للدوانى فى التصوف وشرح القطب على

(١) يصف التلميذ أستاذه الجديد بقوله : (له سلطة على دقائق المعانى وتحديداتها وإبرازها فى صورها اللاتقة بها . وله لسان فى
 الجدل وحذق فى صياغة الحجة لا يلحقه فيه أحد .

لما أخلاه فسلامة القلب سائلة فى صفاته . وله حلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع إلى أن يدينونه أحد يمس شرفه أو دينه فيطلب
 الحلم إلى غضب . . وهو كرم يبدل ما يديه ، قوى الاعتماد على الله . لا يبالى ما تآتى به صروف الدهر . يمثل لناظره حرياً محضاً . فكانما
 قد حفظت له صورة آباءه الأولين من سكة الحجاز (فالسيد لقبه لأنه من نسل أمير المؤمنين على وفاطمة الزهراء) ربة فى طوله ، وسط
 فى بنيتة ، لحي فى لونه ، عصي دعوى فى مزاجه ، عظيم الرأس فى احتدال هريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين عظيم الأحداق ، =

الشمسية . والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق والتوضيح مع التلويح في الأصول والجغميني في الهيئة القديمة وتذكرة الطوسي في علم الهيئة) .

وظاهر أن كثرة مدارس محمد عبده عليه كان في الأصول والتصوف والمنطق والطبيعة في حين كانت كثرة دراسة الهلباوى عليه في الرياضه والمنطق ، وأن من العلوم مدارس الجيلان الأول والثاني ، ومنها ما كان تجديداً .

حاشية على شرح الدواني - ١٢٩٢ - ١٨٧٥ :

بدأ التلميذ في كنف « السيد » (مجاوراً منقطعاً للتصوف يلبس قيصاً يبدو من أعلى جيبه صدره الأشعر وقد أرسل جمعة كجمة الدراويش) . كما يذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق . ثم شجع فأخرج سنة ١٢٩٠ (١٨٧٣) ما سماه (رسالة الواردات) وهي عبارة عن جزئيات أوماً إليه السيد بكتابتها سنة ١٢٨٨ كما قال . تبدأ بعد البسملة والحمد بالثناء على جمال الدين (كالغيث أرسل لإحياء نعمة التفكير في العلوم الحقيقية) وتنتهى بقوله : (هلا تفتنت فيما أدرجت لك من هذه الأقوال إلى أنه وقع الصلح بين الطائفتين العظيمتين في أن الأفعال هل هي لله خاصة أو بقدرة العبد فإنه لا تخالف بينهما في الحقيقة . فالله فاعل من حيث العبد فاعل والعبد فاعل من حيث الرب فاعل . الوجود في جميع مراتبه مختار - والحمد لله رب العالمين وحده . . قال مؤلفها : تم تبييضها يوم الأربعاء سادس عشر من شعبان المكرم سنة تسعين ومائتين بعد الألف) .

أما الخط الذي تم التبييض به ، فهو كما يظهر من الصور الزنكوغرافية لكتابين منه إلى تلميذه « سعد زغلول » ، خط لطيف واضح منتظم في حين ساءت خطوط الأزهرين : فالشيخ الدردير (١٢٠١) لا يكاد خطه يقرأ ، أما الهلباوى فخطه شبه المقروء أشبه بشوارع لم تعرف خطوط التنظيم . ويدل خط محمد عبده على إسراع يده لتستجيب إلى أفكاره المتدفقة . وسيلازم كلا منها ما كسب من

= ضخم الوجنات ، رحب الصدر جليل المنظر ، هش بش عند اللقاء ، وقد وفاه الله من كمال خلقه ما ينطبق على كمال خلقه . وهو من مواليد الأفغان تعلم الفارسية فصارت لغة أصلية له ودرس العربية فتقف نفسه بها ، ودرس في الهند علوماً كثيرة واكتسب من السياسة والارتحال معارف جمة . ومع فصاحته العربية في دروسه كان ينطق كلمة أوربية (الأوربية) كما ينطقها الفرنسيون L'Europe أما بورسعيد فينطقها نطق الإنجليز أو الهنود (برط سعيد) .

وكان منهجه - كما يقول - محمد عبده . . (إنناض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها وتنيبها للقيام على شئونها حتى تلحق بالدول القوية فيعود للإسلام شأنه وللدین الحقن مجده ، ويدخل في هذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية وتقليص ظلها عن رموس الطوائف الإسلامية) ، وظاهر أن مصر كانت الدولة التي اختارها لتقود العالم الإسلامي . ففيها وجد الرجال . ومنها نهض محمد عبده وبقية الجماعة لتحرير بلادهم .

عهد شباب . فالهلباوى محجاج وثاب بين الأدلة ، يخطب ولا يكتب إلا قليلاً ، أما محمد عبده ففقيه في المقام الأول وكاتب مترسل من أعلى طبقة .

وبعد عامين آخرين (في سنة ١٢٩٢ : ١٨٧٥) فاجأ التلميذ أوساط الأزهر بحاشية وضعها على شرح الجلال الدواني على العضدية (لعصـد الدين الإيجي ٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م) وكان التلميذ في الخامسة والعشرين يتهيأ للدخول امتحان العالمية بعد عامين .

وبمقارنة الدراستين يتبين التقدم الذهني والمذهبي والبلاغي فيما بين الرسالتين . ففي الأولى تصوف غامض وسجع بنخاطر فيها فلسفة ، أما الثانية فكتاب كامل في أمور من دقائق علم الكلام (التوحيد) . وهي بمكانتها في الدقة العلمية واستقلال صاحبها بآرائه في أهم أبواب علم الكلام تعتبر منطلقاً له من قاعدة صلبة هي حرية الاجتهاد والاختلاف .

ولقد شرع منذئذ يطالع الملاء بآرائه في صحيفة أوندى ، علمى أو ثقافى أو سياسى . وسنقرأ من الرسالة فقرات لنشهد شذرات من شهادة ميلاد فقيه فحل مستقل ، صاحب رأى ، لا يفرق بينه وبين العضد والدواني إلا تعبيره الأفضل :

هو في حاشيته يأخذ الدين من مصادره في القرآن والسنة ويلتزم النص القطعى الورود والدلالة أو المعنى القطعى الذى تتضافر عليه نصوص . لا يفسق المسلم أو يكفره ، وهو مستقل لا يتعصب أو يقلد ومجتهد يسير مع الدليل .

وقد يستوقف النظر . كمثـل ما يفسر قوله تعالى : (ما كان محمدٌ أباً أحـدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتم النبیین) فيقول فيه (قد يعرف النبي بإنسان فطر على الحق علماً وعملاً بحيث لا يعلم إلا حقاً ولا يعمل إلا حقاً على مقتضى الحكمة . وذلك يكون بالفطرة أى لا يحتاج فيه للفكر والنظر ولكن التعليم الإلهى . فإن فطر أيضاً على دعوة بنى نوحه إلى ما جبل عليه فهو رسول أيضاً وإلا فهو نبي وليس برسول . فتفكر فيه فإنه دقيق) .

وقد ينعى على الشارح رِكةً تعافها نفسه . فيقول : (هذا الكلام في غاية البرودة مخالف للذوق والعقل والشرع ورمى بغير برهان) أو يقول : (هذا البيان الذى ذكره الشارح مشتمل على مبادئ غير بينة وبيانات غير قيمة) .

وقد يغريه الدواني فيتجارى في ذم أهل الزمان ! يقول الدواني : « وإلى الله المشتكى من زمان انطمس فيه معالم الفضل وعمر فيه مرابط الجهل وتصدر فيه لرياسة أهل العلم والتميز بينهم من عرى عن العلم متوسلاً في ذلك بالحوم حول الظلمة والانخراط في سلك أعوانهم وخدامهم والسياسة الباطلة سعياً لتحصيل مرامهم . خذلهم الله » .

فيضيف قول الكلبي ليعقب على القولين فيقول : (قال الكلبي في حاشيته على هذا الكتاب : « قيل ولعمري إنه أفضل من زماننا فتحن أحق بهذا المشتكى وأقول الحمد لله تعالى والشكر له على ما أغنانا عن الشكاية ، إذ جميع هذه الشكايات لعللة ترتب المطالب الدنيوية على العلوم والمعارف . وذلك زمان كانت تعد فيه العلوم والمعارف من الكمالات . وقد انتهينا إلى زمان تعد فيه العلوم والمعارف من المعاييب . فلا شكاية . »

وأنا أقول قد غبن الشارح والحواشي أهل زمانهم وكشفوا شמוש آفاقهم فإن أزمنتهم وأمكنهم كانت العلوم فيها منتشرة والعلماء بعلومهم مفتخرة ، وكان للسان أن يتكلم وللعالم أن يتعلم ، وقد انتهينا إلى زمان يفتخرون فيه بالجهالة ويشيدون بالفضالة ويحكمون بكفر من طالع كتب الكلام . . ولكن الشكوى إلى الله . وليس في زماننا إذن تسمع ولا قلب يجزع . فإن كنت على شيء من العلم فاتخذ لك قبراً وإلا أوجعوك ضرباً وألقموك حجراً . . ولا نطيل الكلام فإن القول لثام .

* * *

استفتح التلميذ - العالم - حاشيته ببيان مسهب فيه جماع فكره وطريقته - طول حياته - فروى حديث النبي ﷺ . .

(ستفرق أمتي ثلاثة وسبعين فرقة . كلها في النار إلا واحدة . قيل ومن هم ؟ قال : الذين هم على ما أنا عليه وأصحابي) .

ثم قال بين ما قال : (واعلم أن هذا الحديث قد أفادنا أن يكون في الأمة فرق متفرقة وأن الناجي منهم واحدة . . وكون الناجي منهم واحدة أيضاً حق لا كلام فيه . فإن الحق واحد هو ما كان النبي عليه هو وأصحابه . فإن ماخالف ما كان عليه النبي فهو رد .

أما تعيين أي فرقة هي الفرقة الناجية أي التي تكون على ما هو عليه وأصحابه فلم يتبين إلى الآن . فإن كل طائفة ممن يدعن لنبينا بالرسالة تذهب فتجعل نفسها على ما النبي عليه وأصحابه . . فكل يدعى هذا الأمر ويقيم على ذلك أدلة . . مثلاً الفيلسوف يقول . . والصوفي . . والمعتزلي . . والسني . . والشيعي . . وأن المجسمة يستشهدون . . والأشاعرة^(١) . . فكل يبرهن على أنه الفرقة الناجية المذكورة في الحديث . .) ويضيف :

(١) يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه (تمهيد تاريخ الفلسفة الإسلامية) : (أما النهضة الحديثة لعلم الكلام فقوم على نوع من التنافس بين مذهب الأشعرية ومذهب ابن تيمية . ويسمى أصحاب هذا المذهب الأخير أنفسهم (بالفلسفة) . ولعل الطلبة في بلاد الإسلام لا تزال إلى اليوم لمذهب الأشاعرة) .
وستعمل (السلفية) في هذا الكتاب بمعناها الأهم : أصل السلف الصالح في الأجيال المفضلة .

(. . فإن لناظر أن يقول : يجوز أن تكون الفرقة الناجية الواقعة على ما كان عليه النبي وأصحابه قد جاءت وانقرضت وأن الباقي الآن من غير الناجية . أو أن الفرق لم تبلغ الآن العدد وأن الناجية إلى الآن لم توجد وستوجد . وأن جميع الفرق ناجية حيث إن كلاً مطابق لما كان عليه النبي وأصحابه من الأصول المطلوبة لنا كالألوهية والنبوة والمعاد . . وأن بقية الفرق ستوجد بعد . .) .

ويضيف (وموجب هذا التردد أنه ما من فرقة إلا ويجدها الناظر فيها معضدة بكتاب وسنة وإجماع وما يشبه ذلك ، والنصوص فيها متعارضة من الأطراف . ومما يسرني ما جاء في حديث آخر (أن الهالك منهم واحدة) .

ويقول (وبالجملة فتحقيق الفرقة الناجية . . مشكل من وجوه . . وخامساً قد أجمع أهل التحقيق من كل طائفة وخصوصاً الشيخ الأشعري على أن المقلد في أصول دينه ليس بمستيقن . . وكل من ليس بمستيقن في الأصول فهو على ريب فيها . وكل من كان كذلك فهو كافر . .) .

ويقول : (والحق الذي يرشد إليه الشرع والعقل أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود . ثم منه إلى إثبات النبوات . ثم يأخذ طريق التحقيق في تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة ، كان ما أدت إليه ما كان ، لكن بغاية التحري والاجتهاد . ثم إذا فاء من فكره إلى ما جاء من عند ربه فوجده بظاهره ملائماً لما حققه فليحمد الله على ذلك وإلا فليطرق عن التأويل ويقول : آمنا به كل من عند ربنا . فإنما لا يعلم مراد الله ونبيه إلا الله ونبيه) .

ويقول :

(. . فالنظر واجب بالإجماع . . فإياك إياك أن تجعل العجز فطرة) .

ويقول :

(فاسلك سبيل السلف واحذر^(١) . . ومن كان على ما كانوا عليه فهو في أعلى غرف الجنان .

(١) السلف يسلمون بالنص ويفوضون في مدلول التشابه ويقطعون بعدم المائلة بين الله وعباده ويعتقدون العقائد كما كان يعتقد السلف الصالح من الصحابة والتابعين . والمجسمة والمشيئة يتصورون الله في صور حية . والمعتزلة يقولون النصوص لإثبات مبادئهم : التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والمنع من المنكر . وأن الإنسان حر الإرادة ، ولذلك يسأل عما يفعل . وأن العمل جزء الإيمان فمن ترك العمل فهو بين متزلة الكفر ومتزلة الإيمان . والأشاعرة يسرون بالعقل في حدود الشرع . والله يأمر الناس بأوامره ليقبلوا أو يتركوا . وهو يكلفهم بالمقدور عليه .

فالأمر لا يسلب الإرادة بل يستعملها . والقول بأن العبد مجبور على الفعل معناه أنه يكسب الفعل ولا يخلقه فالله يخلقه بقدرته فاعله وقيامه به بإرادة العبد جزء من كسب الفعل والله تعالى (ليس كمثله شيء) فلا ضير من عدم

والأشاعرة يقولون النص عند اللزوم وابن تيمية لا يقول وإن كان عماد فكره أن الله تعالى (ليس كمثله شيء) فلا ضير من عدم التأويل .

وسالك هذا الطريق : إما أن يكون من قبل الالتفات إلى ماجاء في الكتاب والسنة وكلام أولى الفضل من الراشدين قديماً وحديثاً فذلك هو الحكيم العملي والمؤمن المتوسط .
وإما أن يكون - مع ذلك - قد سلك بنفسه مدارج الأنوار ووقف على مافى ذلك من دقائق الأسرار حتى جلس في حياته تلك في مقعد صدق عند مليك مقتدر . فهو الصوفي . . وفى هذا مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى . وهذا وما قبله يشملها اسم المؤمن الصادق . .) .

* * *

وليست الدراسة المنجحة هي التى تملأ الرأس بالمعارف . أو تجعل الرجال نسخاً من المؤلفات بل التى تهيئهم لإدراك الحقائق وابتكار الأفكار ، وتبلغ شأوها إذا مكنت الرجل الواحد من أن يصنع على عينه رجالاً يصنعون رجالاً آخرين . وهكذا دواليك .
ومن هذه الناحية يبدو منهج جمال الدين فى تكوين الرجال أنجح المناهج ، وحلقته أعظم الحلقات آثاراً^(١) خرجت فتية كانوا أغماراً ، حتى جرى فيهم تياره مجرى الكهرباء فى الأشياء : محمد عبده - وسيدجوه (صديقى الشيخ) ولما بارح مصر قال : (حسبكم محمد عبده) .
ثم عبد الكريم سلمان وإبراهيم اللقانى وإبراهيم الهلباوى ومحمود سامى البارودى وأديب إسحق وعبد السلام المويلحى ولطيف سليم وعبد الله نديم . وأخيراً ورد الحلقة «سعد زغلول» - ويسميه جمال الدين سعد الزغلول - وستأتيك أنباؤهم وأعمالهم وأعمال صحبيهم على مدى قرن كامل فى حياة مصر - نفخ فيهم من روحه وعلمهم التفكير الحر ، وحب إليهم الكتابة والخطابة فأصبحوا كتاباً مشاهير وخطباء مصاقع وفقهاء ليس لهم نظراء ، وثواراً أحراراً ، فتألف من تفكيرهم وتعبيرهم وسلوكهم ومن صحو المجتمع على أحداث مصر الدولية وانتشار الأنباء العامة ، رأى عام يعارض الحكام ، فى الفترة القصيرة التى لبثها «السيد» بمصر من ١٢٨٨ إلى ١٢٩٦ مارس ١٨٧١ إلى أغسطس ١٨٧٩ م .

وفى سنة ١٨٧٦ قامت حرب بين تركيا - صاحبة السيادة الشرعية على مصر - وبين روسيا

(١) من أقواله التى تم عن منهجه فى تكوين الرجال :

- ألف قول لا تعدل فى الزمان عملاً واحداً .
- صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالخرس .
- قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد ألا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشأوا خلقاً جديداً فحبذا لو لم يبق منهم إلا من هو دون الثانية عشرة من العمر عندئذ يلقون تربية تسير بهم فى طريق السلامة .
- صاحب القلم لا يحتاج إلى عصا .
- أمة تظن حاكمها سراً وتعبد جهوراً غير جديرة بالحياة .
- إذا صح أن من الأشياء مالا يوجب فأنهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال .

فجذبت انتباه الصحافة والرأى العام ، وتكون في المثقفين اتجاه للمطالبة بالحرية لايفاضبه الخديو ، بل كان يستعمله ، ليقاوم به التدخل الأوربي في السياسة المصرية .
ولا غرو إذا شهدنا محمد عبده طليعة هذا الاتجاه الوطنى والثقافى : فهو من أول كتاب صحيفة الأهرام . لم تكذ تصدر حتى كان في العدد الخامس في سبتمبر ١٨٧٦ واحداً من كتابها ، وفي العدد الثامن نقرأ له مقالا بعنوان (الكتابة والقلم) تقدمه بقولها : (الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالأزهر) وتحتفى في عدد تال (بجناب العلامة الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالأزهر) ثم يتعالى التقدير في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦ في العدد ٣٦ فهو (الأديب الفاضل الأريب أحد أهل العلم بالأزهر) ولما كتب مقاله في (العلوم الكلامية . والدعوة إلى العلوم العصرية) نعتته بأنه (جناب العالم العلامة) .

امتحان العالمية :

وفي العام التالى تقدم لامتحان العالمية تسبقه سمعة تظن في آذان الأزهرين . قال : (عرضت نفسى على مجلس الامتحان في ١٣ جمادى ١٢٩٣ (١٨٧٧) وابتليت في الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثرين من أعضائه مع المرحوم الشيخ عlish . وكان يعاديني ، على الغيب ، اتباعاً لآراء من لارشده عندهم من بلداء الطلبة . .) .
وما عادوه وحده وإنما كانوا يعادون «السيد» جمال الدين وتلاميذه الكاتبين في الصحف ، أو الآخذين بعلوم الكلام ، أو الداعين إلى العلوم العصرية ، وقد ارتكب محمد عبده ذلك كله .
ولذلك توقف المتحنون في إنجاحه . وتدخل بينهم وبينه الشيخ محمد المهدى (١٨٩٧) شيخ الأزهر ورئيس لجنة الامتحان قائلاً : لو أعرف درجة فوق العالمية من الدرجة الأولى لمنحتها له - وطال توقف المتحنين حتى صالحوا الرئيس على ألا يمنحوه الدرجة التى يستحقها عنده ويمنحوه درجة لا يستحقها عندهم . فمنح الدرجة الثانية !
هكذا تخرج في الأزهر وفي قلبه من الأسى عليه ماسوف يصحبه في قبره ، فيجعل إصلاحه مشغلة حياته ، مذ كان إنصاف تلميذ فيه ، صاحب فكر ، مثار معركة ! وكان أساس الصلح فيها أن يخسر أطرافها الثلاثة ويخسر الأزهر !

* * *

لم يضيّع العالم الجديد وقته فجلس للتدريس في الجامع الأزهر . ولم يتردد في تدريس ما يعتقد . وساعدته السماء بعدلها وظلم الناس له :

كان الشيخ محمد عlish (١٢٩٩) فقيه المالكية الأشهر وله شرح على مختصر خليل كشروح الخرشي والدردير والدسوقي ، وله فتح العلي المالك على مذهب الإمام مالك (مجموع فتاوى عlish) ، لايتذم إذا أخذ مأخذاً على عالم من أن يشتمه في حلقة كما صنع مع الشيخ حسن الطويل . وفي ذات يوم أبلغه ابن له يدرس بالأزهر أن خريجهم الجديد يدرس العقائد النسفية للتلاميذ وأنه يرجع مذهب المعتزلة على مذهب الأشاعرة فدعاه إليه .

قال : أتدرس العقائد النسفية ؟ وأجاب بالإيجاب .

قال : هل رجحت مذهب المعتزلة ؟

قال : إذا كنت أترك تقليد الأشعرى فلماذا أقلد المعتزلى ؟ إذن أترك تقليد الجميع وأخذ بالدليل .

قال الشيخ عlish : أخبرنى الثقة بذلك .

قال محمد عبده : هلمّ الثقة الذى يشهد بذلك . فليميز بين المذهبين وليخبرنا أيهما رجحت .

قال الشيخ عlish : أومثلك يفهم شرح العقائد النسفية !

قال : سلى إن شئت .

وكبرت مراجعته للشيخ على نفوس الصغار ، فأججوا النار . قالوا : إنه يرسل شعره ويجمعه تحت العمامة ! ! ثم أخذوا عمامته فتركها ، وانصرف حاسر الرأس احتراماً لشيخ تولى كبره . وفي الغداة عاد إلى درسه وفي يمينه عصاً وقال : إذا جاء الشيخ بعكازه ، فله العصا .

* * *

واتسعت حلقة العالم الحديث بعيداً من الأزهر ،

فأمسى في منزله يلقي درساً في كتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه ، بل يلقي درساً في كتاب فرانسوا جيزو - رئيس وزراء فرنسا في القرن الماضى -

L'Histoire de l'Europe depuis la Chute de l'Empire Romain

ترجمه إلى العربية نعمة الله خورى وسماء (التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوربية) ، وقرظه محمد عبده حين ظهوره بمقال لفت إليه الأنظار قبيل امتحان العالمية . وربما كان المقال سبباً لسخط المتحنيين عليه . أو كان سخطهم سبباً لتدريسه . لكن ما فى الكتاب من علم كان مصلحة للأمة وله . فما أسعد دارس التاريخ الإسلامى إذ يسعفه العلم بالتاريخ العالمى فيزداد يقيناً بمعجزة انتشار الإسلام وانتصار أصحابه بالتزام مبادئه التى تحاربها الوثنية المسيطرة على حضارة أوروبا المعاصرة . وأسمع بالمبادئ وأبصر في قول عمر لسعد بن أبى وقاص : (إني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال . فإن تقوى الله أفضل القوة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب . وآمرك

ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عدونا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم . فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة . .) وقول صلاح الدين لقواده : (لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل) .

وفي العام التالي (١٢٩٥ - ١٨٧٨) جاءت النصفة من إصراره على تدريس التاريخ في غير الأزهر . فعين مدرساً للتاريخ في دار العلوم^(١) فدرس للتلاميذ (مقدمة ابن خلدون) بل أضاف إليها كتاباً وضعه في « علم الاجتماع والعمران » وبهذا الدرس أحيا ذلك الكثر العلمي الدفين . وسيتابعه فيه طه حسين إذ يقدم فيه إحدى رسالتيه للدكتوراه بعد أربعين عاماً .

وفي العام ذاته جاء تأييد جديد ، من غير الأزهر أيضاً ، إذ عين مدرساً للعلوم العربية في مدرسة الإدارة والألسن^(٢) . التي ستصبح مدرسة الحقوق .

فهذا الخريج الجديد من الأزهر يتلاقى مع أغراض المدرستين الجديدتين ، و « المعلمين » الكبارين اللذين يقترن اسمهما بهما ، في أنه طلبة الجميع للإصلاح وإن تنوعت الحاجات والاتجاهات . وفيه يجتمع الكثير من آمال بلاده لاجتياز الفجوة بين القديم والجديد ، سواء آمال أصحاب دار العلوم أو أصحاب مدرسة الألسن .

(١) أنشأها في سنة ١٨٧١ في عصر إسماعيل على باشا مبارك نابغة المهندسين العسكريين من بعثات محمد علي إلى فرنسا ، ونفيا من إنشائها إنقاذ العلوم العربية من فساد الطريقة الأزهرية في ذلك الزمان . واستغل لإنشائها ونشر المدارس في مصر وإنشاء دار الكتب ، كل سلطاته وإمكانات الإدارات (الوزارات) التي تولاهما في حكم إسماعيل (التعليم والأوقاف والأشغال) فبأموال الأوقاف وفي دور الأشغال تعلم التلاميذ بعد أن أقفل عباس الأول معاهد العلم التي أنشأها محمد علي .

ومن مقولاته الدالة : (كل إصلاح سياسي لا يرتكز على الإصلاح التعليمي سراب) وهو الذي أمر بطبع كتاب مرشد الحيران لقسري باشا في انتظار يوم تقدر الدولة فيه على تطبيق قانون من الشريعة تنفيذاً لقرار من وزارة شريف باشا .

(٢) أنشأها محمد علي سنة ١٨٣٦ وجعل على نظارتها رفاعة بك رافع الطهطاوي ، فأضاف رفاعة بك إلى مناهج الألسن الفرنسية والإنجليزية منهجاً في تدريس الشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية ولما أنشئ معهد الفقه الإسلامي صار رئيساً له كما ولي رئاسة الوقائع المصرية زماناً . وسيتخذ منه محمد عبده مرشداً له ومن داره ملجأً ومن ابنه صديقاً .

وسترى محمد عبده يتحرك في نطاق الأغراض العلمية لهذه المعاهد وإن امتاز بأنه أضاف إلى وفائه بالتعليم المطلوب منه أمهالاً أكبر . وفي دار العلوم التقى بالشيخ حسين المرصني وفي مدرسة الألسن التقى بالشيخ حسنة النواوي وسيصحب كلا منها طول حياة كل

الثورة الأولى . . والنفي الأول

كانت إنجلترا وفرنسا تتسابقان على النفوذ في مصر منذ جلاء نابليون وانهزمت عنها إنجلترا مرة إثر أخرى ، ولكنها بلغت أغراضها بتدمير جيوش مصر وأسطولها وإمبراطوريتها ، وكرست ذلك في حياة محمد علي « بمعاهدة لندن » سنة ١٨٤٠ . وفي عهد إسماعيل دمرت الإمبراطورية المصرية في أفريقية ولقت حول عتق مصر حبال الدائنين ، وألزمت إسماعيل أن يعين رئيس وزراء أرمينيا (نوبار) ووزيراً إنجليزياً للمالية وفرنسياً للأشغال توطئة لشهر إفلاسه واحتلال بلاده .

ولما دعا إسماعيل مجلس النواب للتاسع من المحرم سنة ١٢٩٦ (١٨٧٨/١/٢ م) كثر فيه نقد الحكومة . وهاج النواب وعلى رأسهم تلميذ جمال الدين عبد السلام المولحي نائب القاهرة . ثم أثار وزير المالية الإنجليزي الضباط بإنقاص عدد الجيش وتأخير رواتبهم . فهاجموه في الطريق بزعامة لطيف سليم بك^(١) في ١٨/٢/١٨٧٩ وقبض أحدهم على نوبار من شاريه وسقطت الوزارة . ومع ذلك دخل الوزيران الأجنيان الوزارة الجديدة برياسة ولي العهد محمد توفيق باشا فسافر نوبار يحرص أوربا على خلع إسماعيل .

وكان جمال الدين - ومحمد عبده في جواره^(٢) - قد أسسا حزباً في مصر باسم الحزب الوطني الحر من أغراضه السعى لتنازل الخديو . وكان ولي العهد محمد توفيق على صلة به . بل كان يقول لجمال الدين على ملأ من الناس (أنت موضع أمل في مصر أيها السيد) .

وخلعت تركيا إسماعيل في ٢٦/٦/١٨٧٩ استجابة للإنجليز والفرنسيين ونفته إلى إيطاليا يموت في إسطنبول ١٨٩٥ وولت مكانه «توفيق» فبادر بتعطيل الحياة النيابية ونفى موضع أمله في مصر إلى خارج مصر.

(١) ابن سليم باشا الحجازي (١٨٥٥) الذي قاد ألوية إبراهيم باشا المظفرة - ثقلب لطيف (باشا) فيما بعد في الوظائف حتى صار رئيساً فخرياً للمحاكم المختلطة وكان من أصحاب محمد عبده . ولما مات سنة ١٩٠٧ كتب مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم أن سبب انتكاس صحته سنة ١٩٠٨ موت صديقه لطيف سليم . وفي بيته كان سعد زغلول ومصطفى كامل يجتمعان كما روى ابنه قواد باشا .

(٢) في ٣/٦/١٨٧٩ ، نشرت جريدة التجارة بالاسكندرية ثم جريدة مصر في ٥/٦/١٨٧٩ تلخيصاً لمجلس لجمال الدين بقلم محمد عبده وقدمت الجريدة محمد عبده بقولها (وردت إلينا المقالة الآتية من حضرة مظهر نور الجمال والجلال ومطلع بدر الحكمة والكامل العالم الفاضل الأستاذ الشيخ محمد عبده مدرس علم الكلام الأعلى بالجامع الأزهر) .

أما محمد عبده فعزله الخديو من وظائفه ونفاه من القاهرة دون أى مصرى آخر ، فرحلوه إلى قرينته محلة نصر فكان يغافل رقباءه ويسافر إلى القاهرة فيستكن وجه النهار فى المكتبة بدار رفاعة بك ، حتى إذا جنّ الليل سرى إلى صحبه بالقاهرة .

وبهذا اقترن بالأحداث الكبرى فى تاريخ بلاده ، وهو لم يكد يبلغ الثلاثين .
لقد جعله الشيخ درويش يجد نفسه فيتجه إلى العلم العظيم ، وجعله جمال الدين يجد طريقه ويتجه إلى العمل العام ، وجعله الخديو أبعد الناس من معاهد العلم وميادين العمل ، وأقربهم إلى مقاليد القيادة .

البَابُ الثَّانِي

من فقه إلى فقه

١٨٨٠ - ١٨٨٨

١٢٩٧ - ١٣٠٦

(إن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة فإن الشاذ
للسيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب)
على بن أبي طالب

الوقائع المصرية

عين الخديو مصطفى رياض باشا (ناظراً للنظار) في ١٢/٩/١٨٧٩ وكان مصرياً صميمًا فطبَّ
لأمراض الحكم التركي بالاستعانة بالمصريين : ألغى السخرة . واستعمال الكبرياج لتحصيل مستحقات
الحكومة . وفرض العدالة في الري والضرائب . وألغى ثلاثين ضريبة . واسترد للدولة من الخديو ١٥
قصرًا بنيت بأموالها منها قصر عابدين مقر رئاسة الدولة .
وكان لزاماً أن يستعين بأداة نشر تثبت الإصلاح في ضمير الشعب ليتشبث به . فاستعمل الصحيفة
الحكومية . واستشار في تحريرها محمود سامي البارودي باشا^(١) والشيخ حسين المرصني^(٢) كلاً على
انفراد ، فأجمعا على محمد عبده . ولرياض عهد بجمال الدين (وصديقه الشيخ) مذ كان وزير

(١) أكبر شعراء العربية في القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي . درس الفنون الحرة في مصر في عهد الخديو سعيد
وسافر إلى إسطنبول حيث درس اللغتين التركية والفارسية ونظم الشعر بها . وقاد فرقة في الحرب الروسية وحرب كريت ورأس الوزارة في
الثورة العرابية . قال عرابي في مذكراته إنه كان يطمع في ولاية العرش . مات البارودي على الرأس سنة ١٩٠٤ على صداقة وطيدة
بمحمد عبده .

(٢) معلم الجيل الأول من الأدباء والعلماء الذين خرجتهم دار العلوم ومنهم حفي ناصف وكان كفيفاً يكاد يحفظ الأدب العربي
القديم كله . تخرج في الأزهر ودرس فيه ثم اختير لدار العلوم وظل زمناً طويلاً يحفظ ويقارن ويستصلح حتى قال عنه (السكندري
وأحمد أمين وعبد العزيز البشري وعلى الجارم وأحمد ضيف) في كتابهم تاريخ الأدب العربي (كان تام الأداة) - أخذ عنه البارودي
وعبد الله باشا فكري (من كبار كتاب القرن التاسع عشر الميلادي ووزير المعارف) - كان المرصني اليد اليمنى لرفاعة بك وعلى باشا
مبارك في إصلاحها للتعليم .

الداخلية الذي ساعد السيد للبقاء بمصر. فاستصدر عفواً عن محمد عبده وعينه محرراً أول «الوقائع».

كان قد أمضى عاماً وبعض عام في قريته. فدلّه الاختيار على أن مواهب الرجال مناط الحاجة إليهم وإن بعدوا عن الأنظار.

ودل هو على أن الكفايات العالية تجعل للموقع العادي شأناً غير عادي. وأنه «رجل إدارة» و«مشرع» من الطراز الأول، بحسن اختيار الرجال وتوجيههم، والعمل بين أظهرهم، ثم بتنظيم المصلحة واستصدار لائحة للمطبوعات^(١) من إعدادة تحول «الوقائع» حق نقد الحكومة والمحاكم والأفراد، وتصويب الصحف الأجنبية التي تعنى بالفساد، وتسديد الصحف المصرية وأساليبها السوقية.

ولن كان النجاح الإداري كالنعيم الدنيوي طالما ثبت صاحبُه فعزله عن العمل الفني المبدع، فإن الشيخ شكر أنعم الله عليه بامتشاق يراعه. وإرسال آرائه رسلاً - في مقالاته - إلى قرائه، من الوزراء ورؤساء المصالح والقارئ العادي.

لقد كان يسعده أن يكتب مقالا للإصلاح في صحيفة سيارة. والآن أصبحت الكتابة للإصلاح «وظيفة دائمة» له، وفي يده أداة رسمية دورية، تجعله رقيب العصر على الدولة والأمة والقضاء جميعاً مذ كانت «الوقائع» كما قال عنها (تخاطب العامة بلسان الحكومة وتخطب الحكومة بلسان العامة) وبلغ بها إلى حيث قال:

(إن تاريخ مصر إن كان مجتمع حوادث أمة لها خيانة سياسية وأدبية وعقلية فلتغيير سير الجريدة الرسمية مكان رفيع من تلك الحوادث).

وكان أعضاء التحرير أفراس رهان ليس لها نظائر في تاريخ مصر: عبد الكريم سلمان^(٢) زميله في التخرج والتلمذة على جمال الدين ومرتبته عشرة جنيهاً. ثم سعد زغلول وتلميذه وتلميذ جمال الدين ومرتبته ثمانية جنيهاً. ومثله الشيخ وفا زغلول.

(١) صدرت اللائحة في نوفمبر سنة ١٩٨١ تفرض على المصالح الحكومية والمحاكم موافقاتها بقراراتها وأحكامها وجعل لها حق التعليق عليها وتصويبها كما خولها فيما سمي (قسم غير رسمي) نشر الفصول الأدبية مما له مساس بالمصالح العامة. فألت إليها سلطة نقد الوزارات والتعقيب على الأحكام والإبداع الأدبي ونشر الشعر. وأمسّت قدوة الصحف الوطنية في الأساليب وألّزمت الصحافة الأجنبية في مصر حدودها.

(٢) ولد سنة ١٨٤٩ ومات سنة ١٩١٨ وتلمذ لجمال الدين وتخرج من الأزهر وسيرأس الوقائع. وسيستعين به محمد عبده في مجلس إدارة الأزهر وسيعين فيما بعد عضواً بالمحكمة العليا الشرعية ومفتشاً عاماً للمحاكم الشرعية ويؤلف كتاب (أعمال مجلس إدارة الأزهر) ولا يضع عليه اسمه حذر بطش الخديو عباس.

أما الرابع في التلمذة على جمال الدين ، فأضافه رياض باشا إليهم بعد محنة رواها الهلباوى في مذكراته المخطوطة ، جملتها أن وكيل مديرية الغربية سخر خصومه لمقاومة فيضان النيل على أرض لرياض باشا ، فندد الهلباوى بهما في جريدة التجارة التى يحررها بالإسكندرية أديب إسحق^(١) وأمر رياض باشا به وكان قد أوى إلى قريته بعد نفي جمال الدين - فحشر إليه والأغلال في يديه . وندد الباشا بمقاله وبجمال الدين الذى علمه الغرور . وناصح الهلباوى عن أستاذه واستمسك بما كتبه فأعجبه وعينه بالوقائع^(٢) .

* * *

اجتمع تلاميذ جمال الدين في موقع من مواقع السلطة لأول مرة فساحت لهم فرصة عاشوا زماناً يتشوفون إليها . وكان الشيخ الرئيس حيث كانت مصر تنتظر . . إليك أمثالا ثلاثة من أثره في الحكومة .

١ - قال في صدد السخرة : (وكان من عدل رياض باشا في ذلك أن عنف فريد باشا مدير الشرقية مع أن فريد باشا^(٣) كان من رجال رياض . . ولم يكتف بذلك بل كتب منشوراً عاماً لجميع المديرين . . دعاني آخر الأمر إلى تحرير ذلك المنشور . . وأتذكر منه العبارة التالية « وليعلم المديرون والأهالي جميعاً أن الأهالي ليسوا عبيداً لأحد ولا لأحد عليهم سلطان إلا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة . وهذا مما لم يكن له مثل من قبل) .

فلنسجل للشيخ ، ولرئيس الوزراء ، سبقهما بإعلان أن الأهالي ليسوا عبيداً أحد . فلسوف نشهد في الغداة ثورة ترفع هذا الشعار وتقتلع أحد صاحبيه .

٢ - قال في صدد التربية والتعليم (لم يضع رئيس التحرير فرصة في انتقاد وزارة المعارف فغضب لذلك وزيرها . . وبعد أن تكرر النقد وجد رياض باشا أن السكوت عن الخلل ضرب من الإهمال

(١) زميل الهلباوى في الحضور على جمال الدين . كان يحرر صحيفة التجارة بالإسكندرية وفي صحيفة مصر بالقاهرة وكان جمال الدين يكتب في إحداها تحت اسم مستعار .

وأديب إسحق أول من دعا لإنشاء مصرف وطني . مات في ثلاثيناته سنة ١٨٨٥ .

(٢) توقفت الصلات بين الهلباوى ورياض وكانا يتراوران . وفي سنة ١٩١١ كان رياض باشا رئيساً للمؤتمر المصرى والهلباوى سكرتيره وتبقت أموال من ميزانيته قدرها ١٨٠٠٠ جنيه أراد رشدى باشا إعطاءها للجامعة المصرية وصمم الهلباوى على أن تكون للجمعية الخيرية الإسلامية وأيده رياض باشا وتصلح الرأبان على إعطائها للجمعية وتخصيصها للإنفاق على التعليم العالى .

(٣) والد الزعيم محمد فريد . وهو الذى سيقنع رياض باشا بقبول الرياضة سنة ١٨٩٢ عقب حادث الحدود الذى سيرد ذكره فينقذ الخديو عباس من ورطته وكان حيثئذ رئيس الدائرة السنية ولما خلف نوبار رياض باشا في رياسة الوزارة سنة ١٨٩٤ أقاله لمعارضته السياسة الإنجليزية في تصفية الدائرة السنية . توفى سنة ١٩٠١ وفي فريد باشا قول شوقى إذ رثى ابنه محمد فريد في سنة ١٩١٩ .

كفريد وأين ثانى فريد أين ثان لواحد الآحاد
الرئيس الجواد فيما علمنا ويلونا وابن « الرئيس الجواد »

الذى لا يغتفر . . ذاكر رئيس التحرير وقال له «أما تغيير الناظر (الوزير) فغير ممكن . . ولا بد من النظر في طريقة أخرى . فعرض عليه أن يشكل مجلساً أعلى يكون هو القاضي في وزارة المعارف وما على الوزير إلا التنفيذ ، فلم يمتص على إبداء الرأي أيام حتى صدر الأمر بتأليف المجلس الأعلى للمعارف وكان رئيس التحرير عضواً فيه» (١) .

٣ - قال عن دار الكتب (اتجه عزم وزارة الأوقاف لوسيلة من أجل وسائل الإصلاح وهي تقريب الكتبخانة العمومية ومدرسة دار العلوم من الجامع الأزهر وتوسيع نطاق المدرسة . . وكان توجه نظارة الأوقاف إلى هذا المشروع بناء على ماعرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضاً . .).

* * *

ولم يكن القسم غير الرسمي أقل أثراً في تاريخ الأمة . . وإليك أمثلة ثلاثة أخرى :

١ - فهناك بصر بأهمية الإصلاح القضائي أعظم رجلين مثلاً الوظيفتين اللتين يدور عليهما جهاز العدالة وهما القضاء والمحاماة ، وعلمت أحكام المحاكم سعد زغلول والهللأوى أن مكانهما هو المحكمة .

٢ - وهناك كسبت «الصحافة» تدريب رئيس تحرير الجريدة الحكومية على أن يقول «لا» للحكومة . . روى الدكتور طه حسين أن عبد الكريم سلمان ، حين تولى رئاسة «الوقائع» بعد محمد عبده جاءته قصيدة لشوقي في مدح الخديو مطلعها :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الشاء

وأن القصر ودّ نشر المدح وإسقاط الغزل وأن رئيس التحرير ود لو نشر الغزل وأسقط المدح . ولم تنشر القصيدة .

٣ - وهنالك تدريب الشيخ الرئيس على أمرين جليلي الخطر في تاريخه وتاريخ الأمة : أولهما : مقارنة السلطة دون أن تطويه أو تطفئه ، ومخاطبة الحكومة باسم الأمة وأن يعلم الطرفين فهذا القسم غير الرسمي يحوى - في مدة قصيرة نسبياً - مقالات جلييلة من عمل الرئيس بلغت نحو ٣٥ مقالة تبدأ في ١٩ / ١٠ / ١٨٨٠ - ذى القعدة ١٢٩٧ عنوانه (حكومتنا والجمعيات الخيرية) وسنرى مصداق يقينه بما يكتبه في تأليفه جمعية كبرى بعد سنوات .

(١) تألف المجلس بذكرتوف ١٨٨١/٣/٢٨ برئاسة وزير المعارف وعضوية علماء العصر وأول أعضائه على مبارك وفيهم العلماء المشهورون في تاريخ التعليم جلياردو (الطب) موجيل (الهندسة) - فيدال (الحقوق) - ماسيرو (الآثار) إسماعيل الفلكي (الهندسة) عثمان غالب (الطب) وأثر الشيخ في اختيار الأعضاء ظاهر فقيم صديقه من دار العلوم ومدرسة الألسن وكان محمد عبده أصغر أعضاء المجلس وترتبه فيه الثاني والعشرين وقبله الشيخ حسين الرصني وبعده الشيخ حسونة النواوى .

وفي أولى الجلسات تقدم محمد عبده للمجلس باقتراح بتقديم معونة حكومية للمدارس الأجنبية . وفرح الأجانب وأقر الاقتراح . وفي الجلسة التالية تقدم محمد عبده باقتراح إشراف الحكومة على هذه المدارس . وفرح الوطنيون وأقر الاقتراح . ومن أصول القانون الإداري أن للحكومة إذا قدمت معونة أن تشرف - على وجه ما - على الجهة التي تقدمها لها .

وتطرد المقالات في أمور أساسية في حياة الأمة الاجتماعية والقانونية والشرعية ، بذلك على ذلك بعض عناوينها مثل (القوة والقانون - الشورى والاستبداد - حاجة الإنسان إلى الزواج - حجاب النساء من الجهة الدينية - الطلاق - تعدد الزوجات - البدع - لجنة إعانة الحجاج) . وفيها تعليقات طويلة لاتحمل عناوين لكنها تصيب الخرافات في الصميم مثل نعيه على الدجالين والصحيفة التي روجت لخرافاتهم . .

وهذا السجل الجليل من مبادراته الحاسمة حق له أن يقول : (بهذا وبما سبقه تنهت الأفكار وبدأت الحياة الاجتماعية في أمة مزقتها الظلم . . ولم يكن يسمع بذلك في مصر من قبل)^(١) . لانيها : قيادة الرجال ، وإدارة الأعمال . فالذي يقود الرجال الذين عملوا معه بنجاح وهو في الحادية والثلاثين ويحدث آثاره في الأمة وفي اللغة عموماً والصحافة خصوصاً وفي مصالح الحكومة ، ويعد التشريع ويطبقه بنجاح ، ويراقب الصحافة مراقبة متحررة كما يقرر المؤرخون ، ويشارك رئيس الوزراء في إصلاحاته ، سيتولى فيما بعد قيادات أبعد مدى ووظائف أعظم أثراً هيأت له النجاح فيها سوابق التجارب .

الثورة الثانية

كانت إنجلترا وفرنسا في هذه الأثناء تكيّدان لتوفيق كيدهما لإسماعيل . وكان اشتراك الشعب معه في الحكم قوة له في مواجهتهما ولذلك رفضتا أى إصلاح دستوري . ورأى توفيق ألا يستعين بشريف باشا^(٢) لأنه كان يرى إصدار دستور يشرك الشعب في الحكم واستعان برياض لأنه لم يكن من هذا الرأي .

(١) للدكتور عبد اللطيف حمزة أستاذ الصحافة في جامعة القاهرة في منتصف القرن الحالى دراسة لمقالات الأستاذ الإمام انتهى فيها إلى أنه . (لولا الطول وطابع الدرس قلنا إنه بلغ الغاية من المقال الصحفي من حيث موضوعه ومن حيث أسلوبه معاً) . وبين المقالات والدراسات ثلاثة أرباع قرن وثلاثة أجيال تعلمت كلها من دروس الإمام ومقالات كانت طلائع الصحافة فالتطوير ضرورة والتدريس غرض في ذاته ، والشيخ معلم حيل بينه وبين كرسى التدريس . والصحافة هي منبره العام .

(٢) تلقى التعليم العسكري في (سان سير) وفي بعوث محمد علي إلى فرنسا وتزوج بنت سليمان باشا الفرنساوى (كولونيل سيف) وهو واضع الدستور الذى تصدره الثورة سنة ١٨٨٢ ووزارته هي التى قررت وضع القوانين من الشريعة ووزيره قلدري باشا هو الذى وضع تقنياً مدنياً كاملاً في كتابه (مرشد الحيران) ولما طلب الإنجليز إلى شريف باشا بعد احتلال مصر إخلاء السودان رفض وقال (إن تركنا السودان فالسودان لا يتركنا) .

يقول عنه محمد عبده (كان محمد شريف باشا من أقوى عوامل هذه النهضة التى انقلبت إلى فتنة) .

ولم تكن الريح تجرى رخاء لرياض فالفساد التركي في عنفوانه والمصريون في هم متراكب والجيش يتوثب .

كان وزير الحربية عثمان رفقي باشا شركسياً يضطهد الضباط المصريين فتقدم الأميرلاى أحمد عرابى بك وزميلان له بطلب من الجيش لعزله . فدعاهم في ١٨٨١/١/٣١ للإعداد للاحتفال بزفاف شقيقة الخديو فذهبوا ليجدوا مجلساً عسكرياً لمحاكمتهم فحضر جنودهم وضربوا كبار الضباط وهرب الوزير .

وفي الغداة احتشد الجند بميدان عابدين طالبين عزله فعزله الخديو وأحال وزارته على وزير الأوقاف محمود سامى البارودى باشا ثم تقدم عرابى بطلب زيادة الجيش وإنشاء مجلس نيابى . كان الشيخ يكره الأسرة الحاكمة فلقد طالما ظلمته وأهله قبله حتى تركوا ديارهم هاربين إلى أقارب لهم في مركز السنطة . ولم يرجع أبوه إليها إلا بعد موت عباس الأول ليجدها كأن لم تغن بالأمس ، لكن الشيخ رأى في الثورة نذيراً بالخطر من إنجلترا وفرنسا فعارضها ملياً ثم انحاز إليها عندما انحاز الخديو إلى إنجلترا وفرنسا ضد بلاده . قال عن موقفه الأول :

(كنت معروفاً في ذلك الحين بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشعب العسكرى وتسوئة رأى الطالبين لتأليف مجلس النواب على ذلك الوجه وبتلك الوسائل الحمقى ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحياناً فأرى من لدن الباب عرابى وبعض رفقاته جالسين معه ورءوسهم بادية من النوافذ فإذا استأذنت للدخول وسمعوا باسمى أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا . . مررت ببيت طلبة (طلبة باشا عصمت قائد الإسكندرية في الحرب) ثالث يوم عيد الفطر فوجدت عرابى وجمعاً غفيراً من الضباط . . فأقنا على الجدل ثلاث ساعات . كان عرابى والأستاذ . . من طرف والكاتب (محمد عبده) من طرف : هما يقولان : (إن الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة دستورية) والكاتب يقول : علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم وأن نحمل الحكومة على العدل مانستطيع ، وأن نبدأ بترتيبها في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تغيير الحكومة . وليس من المصلحة أن نفاجئ البلاد بأمر لم تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناس قبل بلوغ سن الرشد .

وختمت قولى بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة أن تشارك الحكومة في إدارة شئونها فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع . . وأرى أن الشعب قد يجر على البلاد احتلالاً أجنبياً يستدعى تسجيل اللعنة بسببه إلى يوم القيامة . تبسم عرابى ابتسام الساخط وقال : (أبذل جهدى في ألا أكون مورد هذه اللعنة وليس الجند هو الطالب وإنما هو مؤيد لطلب أعيان البلاد) .

فسألته : وعلى من تعتمد ؟ أو ممن أخذت الميثاق على ذلك ؟ فهمس بصوت لا يسمعه ثالثا : إن سلطان باشا^(١) قد عاهدني على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت الوزارة .

تفاقت دسائس حاشية الخديو فاستقال البارودي من وزارة الحربية وخلفه داود يكن باشا صهر الخديو - فتواعدت فرق الجيش لظهور يوم ١٨٨١/٩/٩ أمام قصر عابدين لتطلب تشكيل مجلس النواب وإسقاط الوزارة وزيادة عدد الجيش إلى العدد الوارد في الفرمانات . وقصد عرابي إلى الموعد على رأس لوائه ممتطياً جواده شاهراً سيفه واكتسل بالميدان أربعة آلاف جندي نزل إليهم الخديو من قصره ومعه القنصل البريطاني .

صاح الخديو بالجنود : أغمدوا سيوفكم وارجعوا إلى ثكناتكم فلم يستمعوا له . ونزل عرابي عن جواده وقدم طلبات الجيش .

قال الخديو : لاحق لكم في ذلك وأنا خديو البلد وأعمل ما أريد .

قال عرابي : ونحن لسنا عبيداً ولانورث بعد اليوم .

ودخل الخديو إلى القصر ومعه القنصل البريطاني ثم عاد القنصل يسأل عرابي : وماذا تفعل إن لم يجيبك إلى طلباتك ؟

وأجاب عرابي : أقول كلمة أخرى .

قال القنصل : وما هي ؟

قال عرابي : لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط .

سقطت وزارة رياض وألف شريف وزارة جديدة في ١٨٨١/٩/١٤ برنامجها (تصحيح الحالة المالية ووضع قوانين متناسقة متقنة النظام صريحة الأحكام) وتبهرجت الدنيا وهللت الصحف وكانت - كما قال المؤرخ عبد الرحمن الرافعي - (قد حررتها رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة من قيودها السابقة) وذاعت أنباء الانتصارات الشعبية في أوروبا . وقدم محمد عبده ومحمود سامي البارودي - وزير الحربية - وأحمد عرابي ماسموه (برنامج الحزب الوطني) إلى المستشرق بلنت^(٢) فنشره في صحيفة التيمس البريطانية في أول يناير سنة ١٨٨٢ .

(١) ولد سنة ١٨٢٥ وصار عمدة بقرية بالنيا وعين مفتشاً عاماً للوجه القبلي رئيساً لمجلس النواب وقد انضم إلى الخديو بعد أن كان مع الثوار وهو والد عمر سلطان باشا صاحب الزعيم مصطفى كامل والسيدة هدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية وزوجة ابن أخته علي باشا شعراوي .

(٢) Novnm Organum كان من الأحرار الإنجليز . وكان صديقاً لعرابي ودارت بينها مراسلات من قبل قيام الثورة . أقام بنت مده بمصر وتحتوى بها أرضاً في صحراء عين شمس في حيدر متزل محمد عبده .

وعينت الوزارة الشيخ محمد عبده رئيساً لقلم المطبوعات العربية والتركية^(١) .
افتتح شريف باشا مجلس النواب في ١٨٨١/١٢/٢٦ وطرح عليه مشروع الدستور فاعترض
الإنجليز والفرنسيون على حق المجلس في مراقبة الميزانية . فرأى شريف أن يفاوضهم وأيده محمد عبده .
ويروى بلسن قوله (لقد لبثنا عدة قرون في انتصار حريتنا فلا يشق علينا أن ننتظر الآن بضعة أشهر)
لكن الضباط مالوا عن شريف إلى واحد منهم .

فاستقال شريف في ١٨٨٢/٢/٢ ليتولى البارودي باشا الرياسة وأحمد عرابي باشا وزارة الحربية ،
وصدر الدستور كاملاً في ١٨٨٢/٢/٧ . وأقيمت الاحتفالات فكان من خطبائها محمد عبده وإبراهيم
اللقاني وأديب إسحق وعبد الله النديم^(٢) وفتحى زغلول . والأربعة الأولون زملاء في التلمذة لجمال
الدين والخامس تلميذ محمد عبده . وكان رئيس التحرير كما تقول الوقائع (يبين مزايا الحكومة
الدستورية ويسميها الحكومة القانونية وينوه بوجوب إسناد النيابة إلى المتعلمين ويدعو إلى احترام حرية
القول والكتابة وسن القوانين المبينة لحقوق الناس وواجباتهم) .

فزع الضباط الجراكسة لانتصارات الشعب ، فتآمروا ، وحوكموا بمجلس عسكري قرر نفي
أكثرهم . وتدخل الإنجليز فعدل الخديو الحكم . فدخل عليه البارودي ولامه لوماً شديداً ودعا مجلس
النياب للانعقاد في ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ .

وفي ١٧ مايو وصلت سفائن الأسطولين البريطانى والفرنسى أمام الإسكندرية وقدمت إنذاراً لعزل
الوزارة ، وخروج عرابي وكبار الضباط من القاهرة ، فقبل الخديو الإنذار . فاستقال البارودي في
٢٦ مايو .

* * *

ثم شرع قناصل الدول يدبرون لأمر جلال . فأعدوا كتاب من رعاياهم . ثم انسحبت السفن
الفرنسية كيلا تشارك في ضرب الإسكندرية .

وفي ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ نفذت المؤامرة فطعن مالطى من رعايا إنجلترا بالإسكندرية مصرياً بمديّة
فقتله . وتوالى إطلاق المالبطين واليونانيين النار على المصريين . وقاوم المصريون فقتل من المصريين
١٦٣ ومن الأوربيين ٧٥ . وألفت لجنة تحقيق . ثم تألفت وزارة برياسة راغب باشا في ٢٠ يونيو وزير

(١) كتب الشيخ في شهر ديسمبر مقالات دستورية منها - الشورى - الشورى والقانون . وفيها قوله (إن القانون الصادر عن
الرأى العام هو الحقيق باسم القانون) .

(٢) خطيب الثورة العرابية الشعبى . سيطلب الإنجليز رأسه بعد احتلال مصر فيحتفى ويقدرّون ألف جنيه مكافأة لمن يرشد إليه
وبعد سنوات تسعة قدم نفسه لرئيس النيابة في طنطا قاسم أمين فسافر قاسم إلى مصر واتمس عفواً عنه فاستصدره رياض باشا وأعانه على
إصدار جريدة . مات سنة ١٨٩٨ .

الحربية فيها عرابى باشا . وأخذت بوارج الأسطول تقارب الشاطئ . وامتنع القنصل البريطانى من التعاون مع اللجنة وأخذ الأجانب يتزحون عن البلاد . وانتقل الخديو إلى الإسكندرية ليكون فى حماية الأسطول البريطانى .

وانعقد مؤتمر دولى فى إسطنبول خادعت به إنجلترا أوربة ومصر حتى تتمكن من احتلال مصر . وفى ١١ ، ١٢ يوليو ضرب الأسطول البريطانى الإسكندرية واحتلها رجاله ووضعوا الخديو هناك تحت حمايتهم .

وفى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ أصدر الخديو أوامره إلى عرابى باشا بعدم اتخاذ استعدادات للحرب ، واجتمع بوزارة الداخلية فى القاهرة مجلس وطنى حضره الأمراء والعلماء والأعيان وقرروا الاستعداد للحرب . فأبى الخديو ، وعزل عرابى فلم ينزل ، بل طلب انعقاد جمعية وطنية :

واجتمع خمسمائة من الأمراء والعلماء والأعيان فيهم شيخ الأزهر وقاضى القضاة والمفتى وبطريك الأقباط وحاخام اليهود ومحمود سامى البارودى ، ثم (تليت عليهم الأوامر الصادرة من الخديو والمنشورات التى أصدر . رابى وتولى هذه التلاوة « الشيخ محمد عبده » بناء على أمر حسين باشا الدرہ مللى وكيل الداخلية ، وتليت فتوى شرعية من الشيخ محمد عيش والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى بمروق الخديو عن الدين لانحيازهم إلى الجيش المحارب لبلاده . . وقررت عدم عزل عرابى من نظارة الجهادية والبحرية ولزوم إبقائه ووجوب توقيف أوامر الخديو . حيث إنه خرج عن قواعد الشرع الشريف) .

ووضع الشيخ محمد عبده صيغة يمين تقاسمها - بين يديه - الضباط والوزراء والكبراء للدفاع عن الوطن كما قاد الدعوة للتطوع فى الجيش بالنفس أو بالمال أو الرجال .

وفى ٢٠/٢١/٢٢ أغسطس انتصر عرابى على الإنجليز فى كفر الدوار . وفى ٢٥ أغسطس استدعى الخديو شريف باشا لتأليف وزارة فألفها بعد أن اشترط (توسيع المؤسسات الحرة والاجاه إلى صيانة البلاد) .

..

وولى الإنجليز وجوهم شطرقناة السويس فرخص دلبس - وهو فرنسى - لسفنهم باستعمالها . ورخص لهم الخديو باحتلالها . وفى ١٣ سبتمبر بوغت الجيش المصرى فى التل الكبير فانهزم . وفى ١٩ سبتمبر أصدر الخديو قراراً بإلغاء جيشه !

وحوكم محمد عبده^(١) مع الزعماء . فقدم مذكرة بدفاعه قال فيها بين ما قال (هل يقدر أحد أن

(١) نظم محمد عبده فى سجنه قصيدة طويلة حسبنا منها بيت واحد يشرح موقفه :

مجدى بمجد بلادى كنت أطلبه وشيمة الحر تأبى خفض أهليه .

يشك في كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان فكان يتألب المسلمون والأقباط والإسرائيليون لنجدته بخاس غريب وبكل ما أوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز) .

واتهم الخديو وعمر لطفى باشا محافظ الإسكندرية بتدبير الفتنة ولم يكتب عن هذا الاعتقاد ضوء حيزه فستقرأ في مذكراته (لا ريب أن استقراء الحوادث يظهر أنم الظهور أن الخديو بالاشتراك مع عمر لطفى كان سبب الفتنة) .

النفى الثانى

أبدى البريطانيون عطفاً على عرابى فلم يحاكموه على محاربتهم بل حاكموه على عصيان أوامر الخديو . وجيء به بعد أن وقع وثيقتين يعترف في أولاهما بالعصيان ويقبل في الثانية البقاء حيث يراد له . فسمع حكماً متفقاً عليه بالنفى مدى الحياة في جزيرة إنجليزية . وكذلك كانت أحكام بقية القواد وفي طليعتهم البارودى .

أما محمد عبده فنفى لمدة ٣ سنين إلى بيروت ونفى المشايخ والضباط الكبار . هكذا خفف الإنجليز غضب الأمة ، بالامتناع عن سفك دماء الزعماء ، بعد أن كسبوا المعركة منهم ، وأخذوهم رهائن في جزيرتهم ، واحتلوا بلادهم . وسيفرضون عليها غرامة هي تكاليف حربيهم عليها ثم يكلفونها نفقات احتلالهم لها مع زعمهم أنهم جاءوا لإصلاح مالياتها ! لكن «الوقائع المصرية» كانت أمة وحدها : فكتابها رجال «عمل» عندما يكون العمل توضحيات لا مقالات . علمهم شيخهم وعلم من يجيئون بعدهم فن قيادة الرجال ، فاحتفظ كل منهم بالحرية الكاملة ضده أو معه . أو ضد الحكمة التي هم لسانها أو معها . ولذلك ذهب كتابها الأربعة في الثورة مذاهب أربعة . فالرئيس يعارضها ثم ينضم إليها أما سعد فهو معها دون أن ينضم إليها ولذلك حبسه الإنجليز شهراً بعد هدوء الأحوال ثم أطلقوه . وأما الهلباوى فلم يكن هوام مع الخديو أو مع الثورة ، فجرى شوطه كاملاً ضدهما حتى حكم عليه المجلس المخصوص للثورة بالسجن ثماني سنين في أغسطس سنة ١٨٨٢ ، ولما أطلق الإنجليز سراحه على الرغم من الخديو ، وطلبوا إليه أن يكون سكرتير المحكمة التي تحاكم عرابى رفض . فأسخط العرايين والخديو والإنجليز وأرضى نفسه ! أما عبد الكريم سلمان فبقى في الوقائع .

استقرأ حكم محمد عبده على سبب الحرب (لو أن بصيراً نظر في أحوال القطر المصرى بعين

صحيفة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل في ذلك القطر يوم وردت المراكب الإنجليزية لشغل الإسكندرية) .

ثم نقرأ الحكم على الحرب في قول مصطفى عبد الرازق (انتهت الثورة بالفشل وجرت على البلاد أسوأ العواقب . لا لأنها قامت على غير أساس شريف وإنما لأن دسائس الدول الأجنبية وأغراضها فرقت بين الحاكم والمحكوم . وتبع ذلك تفريق في الأمة نفسها ليس من العدل أن نلقى إثمهم على فريق جزافاً . غير أن دعاة الحرية والمجاهدين في سبيلها هم الأشرف مكاناً والأعز عندنا شأنًا وإن وهنوا وخابوا . وقد كان الشيخ محمد عبده ممن طلب بأولئك التأثيرين أن تخلص البلاد من الشقاء وينقذ العباد من طول العناء .. فلا يجوز لمؤرخ أن يدعى أن الشيخ عبده كان عدوًا للثورة وعدوًا لما تدعو إليه .

نعم : إن الشيخ عبده لم يكن يدعو إلى الإصلاح الاجتماعي عن طريق الثورة ولكنه لما رأى الثورة قائمة لنصرة مبادئ هي مبادئه ومبادئ أستاذه (جمال الدين) اتصل بها وألقى في نارها قيساً) .

بيروت ١٨٨٢ - ١٨٨٨ :

ركب الشيخ السفينة إلى منفاه الثاني غير متكاره ، فألقت مراسيها في أواخر ديسمبر سنة ١٨٨٢ م به وزوجه وبنات ثلاث وولد وأخ صغير اسمه حمودة . وهناك أخذ يرسل سعد زغلول^(١) وكثيرين آخرين . وفيما يلي فقرات من إجابات سعد :

١ - ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠ .

مولاي الأفضل « ووالدي » الأكمل أحسن الله معاده .

بعد تقبيل الأيدي الكريمة قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا إليه فتلونا ووعيناه في الفؤاد وحمدنا الله على أن شرفتم تلك الديار سالمين مبالغاً في إكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين . . ولهم منا معشر أتباعك ومريدك بما تقبلوك به من كريم الاحتفال وعظيم الإجلال ألسنة مرطبة بالثناء عليهم . . صحتي الهدئية معتدلة . . أما فكري فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالبعاد . . توجهت إلى البليك صاحب كتاب تاريخ العرب وسألته إعارته فأجاب بأن محمود

(١) ولد سنة ١٨٥٦ لأب من أعيان الريف في قرية قريبة من محلة نصر في شمال الدلتا ودرس في الأزهر سنة ١٨٧١ وتلاه.. لجمال الدين الدين ودرس التوحيد على محمد عبده واختاره للعمل معه في الوقائع المصرية . وعين في أواخر سنة ١٨٨٢ رئيساً لـالم القضاة بالحيزة وكان لهذا القلم اختصاص في المسائل الجزئية - فدرس القوانين المطبقة وفصله الانجليز في أكتوبر سنة ١٨٨٢ وفي ١٨٨٣/٦/٢٠ اعتقل حتى ١٨٨٣/١٠/٣ بتهمة تأليف (جمعية الانتقام) لقتل الانجليز وسيبصر زعيم مصر ابتداء من ١٩١٣ تاريخ انتخابه عضواً ووكيلاً للجمعية التشريعية .

سامى البارودى أخذه وسافر ولم يردده إليه ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام ويقول إنه مستعد لخدمة جنابكم فى أى شىء تريدون حسياً كان أو معنوياً . سأتحرى هذا الكتاب فى كتب سامى عند بيعها^(١) فإذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته فى الحال إلى حضرتكم أو أحضرته معى إن وافق ذلك استجاعى لوسائل السفر . . الحال العمومية على ما تركتها . . رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم فى الكتاب تصرخاً وتلويحاً . . الشيخ حسن الطويل ووالدى عبد الله وأخوای شناوى وفتح الله (أحمد فتحى زغلول) وكثيرون غيرهم يقبلون بديكم .

مولای : ذكرت لحضرتك أن الضعف ألم بفكرى فبالله إلا ما قويت به بتواصل المراسلة غير تارك فيه ما عودتنا على سماعه من النصائح . . وفقنا الله لمقابلتك ولا أطال على بلادك مدة غيبتك . إنك « إمامها » وإن اقتدت بغيرك ومحبا الصادق وإن لم تعرف بقدرك والسلام) ولدكم سعد زغلول .
٢ - (٨ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠) .

مولای : الأفضل « ووالدى » الأكمل . أحسن الله مآبه . . تفضل أدام الله فضله وتكرم أبى الله كرمه ببيان بعض أسماء الكلمة الكرام . .

أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل ثابثاً صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين . . إني كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا الشيخ وما سمعت منه ما يقصد به مس مقامكم الكريم . إن ظنكم فيما رأيتموه فى جريدة البرهان هو الموافق للصواب (يقصد اشتغال سعد بالمحاماة) ويحق لحضرتكم السرور بما نال ولدكم . فهو المترى فى نعمتكم . . البالغ ما بلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجيهاتكم . . ونسلم على حضرات أخينا الفاضل إبراهيم أفندى اللقانى . . ونجلكم الكريم . . صنيعتكم سعد زغلول) .

(نرجو عدم انقطاع المراسلات وأتمنى ألا أحرم كل أسبوع من كتاب . . (سعد) .

والخطاب الثالث مؤرخ ٢٧ جمادى سنة ١٣٠٠

حضرة الأستاذ الفاضل والمولى الكامل .

(وبعد تقبيل اليد الكريمة فقد ورد علينا كتابيكم الكريمين المؤرخ ١١ ج والمؤرخ ١٨ ج) . وبعد أن تكلم عن مقالين (للسيد) وتكلم فى العلم قال (أظن الفرش وصل لحضرتكم . . طلبتم أن نوضح لحضرتكم كل ما ينفق على ما تطلبونه من المصاريف ليكون لكم الحرية التامة فى الطلب . . مع جرح خاطرى لهذا التعليل أقول إن الكتب لم ينفق عليها إلا أربعة وعشرين قرشاً والفرش لا أعربت ماذا أنفق عليه . . بالله أرجو أن تعافونا من هذا البيان وكل ما ترغبون إرساله مرونا به ونحن نقوم

(١) . المزمع - وظاهر أن الإنجليز باءوا فى الزاد ممتلكات الزعماء المنفيين .

بإرساله ونفقاته تقيد في دفتر مخصوص ونحن نحاسبكم على مقتضاه والحمد لله عندنا فلوس كثيرة
لا نحتاج إلى أن ترسلوا لنا شيئاً منها الآن . فقد شرعنا أن نتوكل في بعض القضايا . . كاتبه ولدكم سعد
زغلول .

باريس - لندن

العروة الوثقى

انجلت التجربة السياسية «لإمام مصر» كما لقبه زعيمها في المستقبل عن حقيقتين :
أولاهما : أن سياسة السلاطين كهيئة قيادة القردة ، وأنهم كالفقاعات الطافية على أمواج عاتية .
الثانية : أن السياسة العليا هي العمل لإصلاح الأمة بصلاح دينها لترد كيد عدوها الداخلي
والخارجي معاً .

وكل إصلاح لا يعتق هاتين الحقيقتين سراب يخدع أصحابه وطلابه .
وكان يحفظ قول جمال الدين إذ عرض إخوانه عند نفيه مايقوته «إن الأسد لا يعدم قوتاً» . وكان
أحفظ لما علمه الشيخ درويش وهو أن يعمل بيده ليعيش «وإذا خلوت فاذكر الله» ويروي الأمير
شكيب أرسلان أن أباه كان يبعث إليه نفقته^(١) .

كان أهل الشام في مطلع عصر جديد حفزهم فيه مدحت باشا (في تركيا) إلى النهضة التعليمية .
لمجاعة مدارس المبشرين ومقاومتها . فأنزلوا محمد عبده بحى زقاق البلاط قريباً من دار رئيس البلدية
محيى الدين حمادة فصارت ندباً له . وأصبح منزله مقصداً لطلاب المعرفة . وقد يستقرئ فيه في ليالى
رمضان تلاميذه كتاباً في السيرة ليخلو المجلس النبیه من النغو . ويخلو الحديث بذكر الرسول ﷺ
أويقرأ لتلميذ كتاباً في المنطق أو بعض علم الكلام (التوحيد) .

ولم يقطع هذا التيار التعليمي إلا دعوة من جمال الدين في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٣ لموافاته في
باريس^(٢) ليؤلفا جمعية «العروة الوثقى» من أعضاء من شتى أرجاء الوطن الإسلامى وليصدرها
صحيفة باسمها .

(١) توفى والد الإمام سنة ١٣١٤ هـ ١٨٩٧ م .

(٢) تلقى محمد عبده بالقاهرة سنة ١٨٨٢ خطاباً من «السيد» ليكنده على عنوان المستشرق البريطانى بلنت في لندن وليشكر سعد
(الزغلول) كما كتب اسمه وإبراهيم اللقاني ورد النصح عليه رداً ملئاً بالولاء .
وباسم اللقاني شارع كبير في ضاحية مصر الجديدة الآن .

هنالك أطال الشيخ شعره ولبس الطربوش كهيئة علماء المسلمين في خارج مصر . ولبس الجبة والقفطان . وأعد وثائق تأسيس الجمعية والانضمام إليها . وكان هو نائب الرئيس .

وصدرت الصحيفة من غرفة ضيقة في سطح منزل قريب من كنيسة المادلين مكتوباً في صدرها (العروة الوثقى لا انفصام لها) رئيس التحرير جمال الدين الحسيني الأفغاني - المحرر الأول الشيخ محمد عبده .

أما بقية هيئة التحرير ففارسي فقير يدعى مرزباقر^(١) يترجم وينقل الأخبار . أما الشيخان فينكران ومحمد عبده يكتب .

صدر العدد الأول في ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ - ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ حاوياً مقالا عن (الاستعمار في مصر) وإلزامها نفقات الحرب وإخلاء السودان لبريطانيا . والعدد الثاني مقالا عن (إنجلترا والمسألة المصرية) يعلن أن الحل الوحيد للمسألة المصرية (لا يكون إلا على يد أهلها) . والعدد الثالث مقالا عن (ماضي الأمة وحاضرها) يهيب بها أن تتحد . وعلى هذا الفحوى وأمثاله تطرد المقالات .

أما السياسة الدولية للعروة فالدفاع عن الإسلام بوجه عام ومناشدة تركيا - وهي دولة الخلافة - وصاحبة السيادة الشرعية على مصر لتؤدي واجبها ، أما الدول الأوروبية فكلها ذئاب . ومن باريس قصد إلى لندن .

وفي لندن أعلن للصحفيين والنواب (أنه لاخطر على مصر من حركة المهدي (ثورة السودان) وإنما الخطر على مصر من وجودكم أنتم فيها . إنكم إذا غادرت مصر فالمهدي لن يفكر في الهجوم عليها ولن يكون في هجومه أقل خطر وهو الآن محبوب من الشعب لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوربي وسينضمون إليه عند دخوله) .

(إن توفيق باشا أساء إلينا أبلغ إساءة لأنه مهد لدخولكم بلادنا . وزجل مثله انضم إلى أعدائنا في قتالنا لانشر إزاءه بأقل احترام . لكنه إذا ندّم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم فرما غفرنا له سيئاته . . إننا لانريد خونة وجوهم مصرية وقلوبهم إنجليزية) .

(٣) كان غريب الأطوار . تنصر ثم رجع إلى الإسلام . وكانت تستولى عليه فكرة توحيد الأديان . وسيتابعها بعد انقطاع العروة الظهير ويزور محمد عبده بعد عودته إلى بيروت ويؤيد محمد عبده في دعوته .

هذان التصريحان موقعتان خاضهما لحساب مصر والسودان شاب وحيد مغترب في دولة معادية تحتل وطنه^(١).

وكان اقتناع الشيخ بالثورة المهدية دينياً وسياسياً . فالمهدى قد طبق الشريعة وأحدث إصلاحات نادى بها الإمام محمد بن عبد الوهاب . والشيخ من المطالبين بتطبيق الشريعة والمعتنقين مبادئ ابن عبد الوهاب . كما يظهر من كتابه رسالة التوحيد - أما من الناحية السياسية فالثورتان المهدية والعراقية قامتتا ضد حكم الأتراك في مصر أو السودان . ولما حاصرت جنود المهدى الخرطوم وفيها القائد الإنجليزي (جوردون) كان المهدى يريد استلامه حياً ليفدى به أحمد عرابي باشا .

أما الموقعة الثالثة فتقول عنها العروة : (رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندن إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لأمتنا ومن يؤمل فيهم صدق النية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الإنجليزية ، وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلوين . ومن محادثاته التمهيدية ما نشر في بعض الجرائد الإنجليزية كجريدة (أبال مال جازت) وجريدة (التروت) وجريدة (التايمس) وسيدكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الأكابر من رجال الحكومة مما يستفيد منه الشرقيون عموماً والمصريون خصوصاً) .

سأل اللورد هرتنجنون وزير الحربية : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة البريطانية وألا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الأتراك وفلان باشا وفلان باشا . فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) : كلا إن المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلاً وفيهم من محبى أوطانهم مثل ما في الشعب الإنجليزي . فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ولا يصح لحضرة اللورد ، فهو على علم بطبائع الأمم ، أن يتصور هذا الميل في المصريين .

فقال الوزير : هل تنكر أن الجهالة عامة في أقطار مصر وأن الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبي والحاكم الوطني وأن ماذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون في الأمم المهذبة .

(١) كانت رحلة إنجلترا بترتيب من مستر بلنت وهنالك وضع الشيخ العمامة على رأسه كعلماء مصر وزار مجلس العموم في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٤ (معمماً يرتدى جبة زرقاء أنيقة فاسترعى بزيه الأنظار وتسابق النواب والزوار إلى الردة لرؤية أحد قادة الثورة المصرية جاء إلى إنجلترا لأول مرة يطلب الجلاء عن مصر ويرى البلاد التي كانت السبب في نكبة بلاده) كما وصفته اليول مول جازيت (ليس عليه أدنى ممحة من التقاليد الأوربية متوسط الطول أسمر اللون ذا لحية سوداء حاد البصر له وقار ومظهر مهيب وابتسامة جذابة إذا استشاره محدثه تكلم كلام الفصيح المتواضع قوى الحجة) .

فاحتد الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون في آداء مافرضه الدين وأوجبه الشريعة وقال :
 إن النفرة من ولاية الأجنبي ونبد الطبع للسلطة مما أودع في فطرة البشر وليس يحتاج للدرس
 والمطالعة وهو شعور إنساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشاً . . وثانياً أن المسلمين مهما كانوا وعلى أى
 درجة وجدوا لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التى يتصورها الوزير فإن الأميين منهم لا يفوتهم العلم
 بضرورات الدين ومن أظهرها عندهم ألا يدينوا لمخالفيهم فيه وأن لهم فى خطب الجمعة ومواعظ
 الوعاظ فى مساجدهم مايقوم مقام العلوم الابتدائية وأن جميع مايتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم
 من الخضوع لمن لا يوافقهم . . وثالثاً : أن أرض مصر من زمن محمد على قد انتشرت فيها العلوم
 والآداب الجديدة على النحو الموجود فى أوربا .

* * *

قعدت الحكومة البريطانية للعروة كل مرصد فى مصر والهند ، حيث كثرة القراء . وفرض ممثل
 بريطانيا فى مصر اللورد كرومر على قارئها بمصر عقوبة الجنبحة (٥ جنيهات غرامة كحد أدنى !)
 فكانت تصدر فى البريد أو تهرب ، ثم توقفت بعد ثمانية عشر عدداً فى ١٧/١٠/١٨٨٤ .

واستأنس « الشيخ » من طريقة « السيد » وقال عنها فيما بعد .

(إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار . وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك
 السياسة وأن نذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات فنعلم ونرى من نختار من التلاميذ على
 مشربنا . فلا تمضى عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم
 والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار فقال : أنت مشبّط) .

ولم يكن محمد عبده مشبّطاً . وإنما أكدت له تجربته الأخيرة أن السياسة بحر يموج بعضه فى بعض
 فيسقى راكبيه مالا حيلة لهم فيه . وأن الخلاف بينه وبين جمال الدين خلاف فى الطبيعة والطريقة :
 فالسيد « سياسى » عجل يؤثر الثورة والهدم . والشيخ « فقيه » بناء يؤثر تربية العقول على تجهيش
 الغضب بعد أن احتل الجيش البريطانى قلب الوطن العربى فى مصر . .

إليك نماذج من أقوال السيد وأفكاره وأقوال الشيخ وأفكاره إذ يكون فى جواره :
 كان جمال الدين يخطب فى الإسكندرية من بضع سنين فيقول : (أنت أيها الفلاح المسكين لماذا
 لاتشقى قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك) ! ويورد مستر بلنت صاحب (التاريخ السرى للاحتلال
 البريطانى) حديثاً للشيخ بعد ربع قرن فى مارس سنة ١٩٠٣ بداره ، جاء فيه أن جمال الدين - فى
 وقت معاصر للخطبة السابقة - اقترح عليه قتل إسماعيل ، وأن محمد عبده قال : (وكنت أنا موافقاً
 الموافقة كلها على قتل إسماعيل لو أننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت . فرمما كان فى إمكاننا أن ننظم

الحركة لأن قتل إسماعيل في ذلك الوقت كان يعتبر أحسن ما يمكننا عمله .

وفي باريس كتبت العروة الوثقى ، بلسان « السيد » وقلم الشيخ «^(١)» ، عن نوبار (الرجل ليس بمصرى ولا عربى ولا مسلم . فإذا باع مصر بأخمس الأثمان فهو الرابع . لاخسر ملة ولا وطناً ولا جنساً . . . إني أتعجب وكل ذى إحساس من سكان مصر من المصريين والأتراك والحجازيين واليمنيين . ألا يوجد بين هؤلاء من يشمر عن ساعده ويتقدم بصدرة ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمنى فيبطل هذه الصنعة وينقضى هذه البيعة ويكشف له وللمتردين من أمثاله حقيقة الوطنية)^(٢) .

قفل الشيخ راجعاً من باريس فلم ير أحد الرجلين بعد ذلك صاحبه . . . وكل ميسر لما خلق له . . . وجرى « السيد » شوطه السياسى حتى نهايته . فتنقل بين باريس ولندن حتى سنة ١٨٨٦ . ولقى الشاه ناصر الدين سنة ١٨٨٦ فدعاه إلى طهران فلبى . ثم تركه وقصد إلى روسيا يتنقل في حواضرها . واستقبله القيصر . ثم ترك روسيا إلى عواصم أوربية . وفي سنة ١٨٨٩ لقي الشاه ثانية فدعاه فلبى ثم اختلفا . فخرج مغاضباً له وحرص رجال الدين عليه فأصدروا فتوى بمقاطعة شركة إنجليزية تحتكر الدخان هيجت أفراد الشعب على الشاه .

وقتل واحد من تلاميذ جمال الدين الشاه سنة ١٨٩٦ واعترف بأن جمال الدين وحده كان واقفاً على أسرار خطة القتل . وطلبت فارس إلى تركيا تسليم جمال الدين فرفضت تركيا . وكان السلطان عبد الحميد قد دعاه في سنة ١٨٩٢ إلى اسطنبول فوافاه . حيث بقى فيها كالأسير في القفص الذهبى من جوار السلاطين حتى مات في شوال سنة ١٣١٤ هـ - مارس سنة ١٨٩٧ .

العودة إلى بيروت :

أما الشيخ فعاد أدراجه إلى بيروت سنة ١٨٨٥ بعد أن زار تونس . ثم دخل مصر متخفياً فكان يلم

(١) ذكر الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ الأمام يقول : (إن الأفكار في العروة الوثقى للسيد ليس لى فيها فكرة واحدة ، والعبارة كلها لى ، ليس للسيد فيها كلمة واحدة) .

(٢) روى نوبار مصر بنظام المحاكم المختلطة الذى صير الأجانب في مصر ملوكاً غير متوجين وكان يستعمل الرشوة في كل اتجاه ، ومن ذلك أصدر لنفسه وهو وزير أشغال امتيازاً بإنشاء شركة تباع مياه النيل لأهل القاهرة روى عنه اللورد كرومر قوله إنه « سيرحل عن مصر مع آخر جندي بريطاني » ولذلك فرضه الإنجليز على الخديو توفيق ليجلى الجيش المصرى عن السودان سنة ١٨٨٤ . وكانت فيه قحة العمل العلن وطرده الخديو من الوزارة في ٧ يونيو سنة ١٨٨٨ قائلاً :

(إنه بناء على ما وقع في المجلس بالأمس وما هو إلا تكرار ما حدث أكثر من مرة من التباين في الآراء مما رأيت معه استحالة بقاءك في منصبك فلهذا قد فصلتك من وظيفتك) .

مع ذلك سعيده الإنجليز في عهد ابنه الخديو عباس ليكيد للخديو الجديد - كما كاد لأبيه وجده .

في القاهرة بتمتزل على بك رفاعه^(١) . وسبق المبيت به بعض عاداته حتى آخر حياته .
كان أول صنيع له في بيروت ترجمة رد جمال الدين على الدهريين من الفارسية إلى العربية^(٢) . كما
جلس لتفسير القرآن ثلاث ليال في الأسبوع في مسجد الباشورة وفي عشرين رمضان في المسجد
العمري الكبير . فكان المسجد يضيق بالسامعين . وكان المسيحيون يقفون جماعات على بابيه ، ثم
تعودوا الدخول . ثم صار له مجلس في داره يُفاه فيه الجميع ، وكما يقول الأمير شكيب أرسلان
(يجتمع بحضرته علماء السنة ومجتهدو الشيعة وعقال الدروز وإلى جانبهم أساقفة النصارى . . وكانوا
يرون التردد عليه أمرا طبيعيا ويجدون فيه مرجعا عاما) .

وفي هذه الأثناء جاءتته دعوة جمعية المقاصد الخيرية ليعلم تلاميذ المدرسة السلطانية الفقه والسيرة
واللغة . فكان من تلاميذه عظيمان درسا عليه فقه أبي حنيفة وهما الأمير شكيب أرسلان وعبد الباسط
فتح الله . ثم تخطف الردي ولدا له ، ثم زوجته .

ونجست في شخصه وفعله سماحة الفكر فكان قسيس الكنيسة يعرض عليه موعظته . وكان يجتني
بعباس البهاء زعيم البهائية - وإن ناقضه - وصار من عاداته أن يلقي المحاضرات في حفلات التخرج
السنية . ثم بنى بزوجته من بيت حمادة سيرزق منها بنت رابعة .

وفي سنة ١٣٠٤ (١٨٨٦) كتب لائحتين عن التعليم وقع معه وجهاء بيروت على إحديهما وأرسلها
إلى شيخ الإسلام في إسطنبول . أساس التعليم في الأولى التربية الدينية ، والتعليم الديني والابتدائي
والوسط والعالي ، أما الثانية فتتعلق بأهل الجبل وأهل بيروت وسورية . . واستمر ينشر في الصحف
وبخاصة مجلة (ثمرات الفنون) ومن مقالاته فيها مقال يرفع الوحدة الوطنية للمسلمين والأقباط بمصر
إلى مستواها من وصية النبي عليه الصلاة والسلام ، فلم تشغله عنها شواغل ليله ونهاره أو غربته
وأسفاره .

ففي عام ١٣٠٥ (١٨٨٧) نشبت في مصر معارك صحفية اتهم فيها بعض الكتاب بطرس باشا غالي
وكيل وزارة الحفانية بالتعصب الديني . فكتب الشيخ مقالا في مجلة ثمرات الفنون ، وبعث به إلى سعد

(١) هو ابن رفاعه بك . وسلي وظيفة وكيل وزارة المعارف ويعطى لقب باشا .

(٢) ساعده على الترجمة تابع جمال الدين (العارف أبو تراب) وكان قد سافر إلى بيروت حين نفي إليها محمد عبده . ويرى
البعض « أن الشيخ تعلم « الفارسية قبل ذلك إذ تعرف منذ دخل الأزهر بمحمد مهدي صاحب جريدة (حكمت) التي صدرت في
القاهرة باللغة الإيرانية سنة ١٨٩٢ ، وكانت الفارسية لغة جمال الدين الأصلية كما كان لايران والأفغان مكان بارز في مقالات العروة
الوثقى . وهي تنشر عن اللغة الفارسية في مقال (إنها في الشرق كاللسان الفرنسي في الغرب) .

زغلول - وكان المحامى الأول بمصر - وكلفه أن يسعى لنشر المقال فى « الجرائد الإسلامية » حسبنا منه بعض فقرات تشير إلى سائره .

(أتت جريدة على ذكر مايشاع من الخلل فى المحاكم الأهلية بمصر وتذرعت بذلك إلى الكلام فى وكيل الحقانية وناطت جميع الخلل بأثرته وتطرفه فى الميل إلى أبناء طائفته (القبط) حيث أقام منهم فى مناصب القضاء ومايتعلق به من لا أهلية فيه إلى إجادة العمل . . فعارضتها جريدة أخرى . . ثم رأينا فى مواضع متعددة من جريدة جديدة تطبع فى القاهرة تلويحاً وتصريحاً بالخلل الواقع فى المحاكم وأن معظمه بل كله من تداخل وكيل الحقانية .

وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لاينبغى أن يتخذ ذريعة للطعن فى طائفة أو أمة . فإن ذلك اعتداء على غير معتد . ومحاربة لغير محارب . أو كما يقال جهاد فى غير عدو . وهو مما ضرره أكثر من نفعه ، إن كان له نفع ، فإنه يثير الساكن ، وينطق الساكت ، ويؤلب القلوب المتفرقة . .

فنحن نرى رأى الجريدتين المحاميتين عن طائفة الأقباط فى مصر . فإنها أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبى ﷺ ، فقد عهد إلى أصحابه إذا فتحوا مصر أن يستوصوا بقبطها خيراً . وقد كان حسن حال الأقباط مظهراً لصدق نبئه عليه الصلاة والسلام . . فلا ينبغى لمبتغى الحق أن يمس شأنهم بالعنوان العام . وأما ما لا تخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين إلى الشر ، فعلى الناقد أن يقصروا تقديمهم على حال أولئك الأشخاص ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم أو تحويلهم عن القبيح من أعمالهم . ويجب أن يكون النقد خاصاً بالعمل الذى ظهر فيه الخلل . .) .

ومن المقالات مقال عنوانه : (الانتقاد) يستهله بمقولة معبرة عن منهاجه (ما وعظك مثل لائم ولا قومك مثل مقاوم) .

وفى سنة ١٣٠٦ (١٨٨٨) نشر له بحث شرعى أصيل عن آفة وضع الأحاديث النبوية ، جواباً عن سؤال عن صحة كتاب منسوب للواقدي (فتوح الشام) فتنى صحة الكتاب وبين أن الكذب قديم ومن ذلك قوله :

بل عهد الكذب على النبى ﷺ . فى حياته حتى خطب الناس قائلاً «أيها الناس قد كثرت على الكذابة . ألا من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» أو كما قال . . إلا أن عموم البلوى بالأكاذيب حق على الناس بلاؤة فى دولة الأمويين فكثرت الناقلون وقل الصادقون وامتنع كثير من جلة

الصحابة عن الحديث إلا لمن يثقون في حفظه خوف التحريف فيما يؤخذ عنهم حتى سئل عبد الله بن عباس رضى الله عنه لِمَ لم تحدث ؟ فقال : لكثرة المحدثين . وروى عنه الإمام مسلم في مقدمة صحيحه أنه قال (ما رأيت أهل الخير في شيء أكذب منهم في الحديث) . . . ولقد روى عن الإمام مالك رضى الله عنه أنه قد كتب كتابه الموطأ حاوياً أربعة عشر ألف حديث عن النبي ﷺ فلما سمع حديث (قد كثرت على الكذابة فطابقوا بين كلامي والقرآن فإن وافقه وإلا فاطرحوه) عاد إلى تحرير كتابه فلم يثبت له من الأربعة عشر ألفاً أكثر من ألف . . .

واستطرد لبيان أسباب الوضع بقصد مهاجمة الدين مما يضيق المقام عن سرده .
وأكبَّ على تدريس فقه « المجلة العدلية » التي قن فيها الأتراك فقه أبي حنيفة في المعاملات المدنية وأعد نسخة أولى لرسالة التوحيد .
وألح عليه أهل العلم في بيروت ليشرح مقامات بدیع الزمان الهمداني كما قال في المقدمة فتضاعف حجم المقامات بشرحه لها مرات .
ثم استخار الله فخار له فشرح « نهج البلاغة » وكتاب « أسرار البلاغة » .

نهج البلاغة للإمام علي :

« نهج البلاغة » مجموع خطب أمير المؤمنين علي ورسائله . وتدرسه تدریس لسيرته وبلاغته . وهو بطل معارك النبي غير منازع . وخلافه مع معاوية وظلم الدولتين الأموية والعباسية لأهل البيت بعده عبرة التاريخ . أما علمه وبلاغته ففيها قول النبي عليه الصلاة والسلام (أنا مدينة العلم وعلي بابها) .

وجامع نهج البلاغة وشارحه الأول هو الشريف الرضي (٤٠٦) وهو حفيد علي من فاطمة الزهراء وواحد من أعلام الطريق في مدرسة جديّه . مثل - وهو زعيم شيعي - الخليفة السني في إمارة الحج . وهو الشاعر الذائع الصيت . وله كتابا (تلخيص البيان في إعجاز القرآن) و (المجازات النبوية) يقفان شامخين في جوار ديوان شعره ليتفع بهما المفسرون والمحدثون والمتفقهون .

ويندر أن يتعلم أحد مثلاً تعلم - هو في الفقه السني تلميذ (الأكفاني (٤٠٥) والخوانزمي (٤١٣) والطبري (٤٢٠) أما علوم الحديث فتلقاها علي بن عيسى (٣٩١) وأما في الفقه الشيعي فهو تلميذ الشيخ المفيد (٤١٣) أحد الأركان الأساسية للفقه الشيعي . ولعل تلمذته في اللغة أعظم . مذ درسها على النحاة واللغويين العظماء :

(السيرافي (٣٦٨) وأبي علي الفارسي (٣٧٧) وابن جني (٣٩٢) كما تلمذ للشاعر ابن نباتة (٣٨٠)

وهو في الأصول تلميذ نجبة الاعتزال القاضي عبد الجبار (٤١٥) . وعلم هؤلاء جميعاً يترقّق صافياً في شرحه لنهج البلاغة فينقل قارئه إلى أفلاك رفيعة في اللغة والفقه والسيرة والعقيدة .
وفي كتابي الشريف الرضي المشار إليهما يتصدى لأدق (المتشابه) في القرآن والحديث ، مثل (أصابع الله - يد الله - نفس الله - يمين الله) فيفسرها بلغة العرب وبالقرآن وبأحاديث جده عليه الصلاة والسلام .

وما يزال شرح محمد عبده لنهج البلاغة مرجعاً أساسياً لكل من يتصدى لدراسته أو تدريسه^(١)

* * *

ولسائل أن يتساءل : لماذا اختار تدريس نهج البلاغة في بيروت ؟ والجواب ليس مقتصرًا على عشق اللسان الذي نزل به القرآن أو هديل طائر بعيد من فتنه يتغنى بالإسلام في أيام مجده . أو انجذاب صوفي أصيل إلى الإمام الذي يضعه الصوفية كافة في قمة نظامهم .
وإنما الشيخ لا يعتبر أحداً عالماً إلا إذا نفع بعلمه الناس . وهو أستاذ في اللغة يتصدى لما يتهيبه الجميع ويشرح المعاني العالية والسير العاطرة للمسلمين ليقتدوا ويتحدوا في عصر كله فتنة . والشام - كمصر - وطن له . وفي الكلام عن الوحدة في لبنان إيلاف بين الشيعة وأهل السنة . وطوائف لبنان شتى والتآخي أنشودتها .

وفي نهج البلاغة قول أمير المؤمنين : (إن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبون من الباطل) .

والمسيحيون والمسلمون أجمعون يذكرون من عهده للأشتر النخعي واليه على مصر : (وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم . ولا تكونن سباً ضارياً تغتم أكلهم . فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق . يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ . فأعطهم من عفوك وصفحك الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه . . .)

ولقد زاده نهج البلاغة ودراسة جامعته ودراسة مقامات بديع الزمان وأسرار البلاغة بصرّاً بدقائق اللغة وأسرار المجاز . . فانكشف له الفحوى في نصوص لفلاسفة المتصوفة يبلغ بها المجاز حد الإلغاز ، في كتاب الفتوحات المكية لابن عربي ، فيقول فيه : (إنه عندي كتاريخ ابن الأثير لا يقف فهمي في شيء منه) . ويرد بعض المؤلفين هذا المقال إلى تصوف محمد عبده . وهو على كل حال شهادة

(١) لم يتصد لتفسير نهج البلاغة إلا العظماء من المحدثين والمفسرين والعلماء ومنهم البيهقي المحدث (٤١٨) والفخر الرازي

المفسر (٦١٠) وابن أبي الحديد المدائني (٦٥٥) .

«صوفى سلقى» لابن عربى^(١) .

وواتته المعاشة الصادقة للسيرة العلوية مزيداً من الفتوة بمعناها عند المتصوفة : إذا قال أمير المؤمنين على : (ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله) ، رأينا محمد عبده يذوب رحمة بالفقراء ويمسك الميزان مع الجبابرة ليقول عنه الخديو الجالس على عرش الفراغة لخاصيته : (يدخل على وكأنه فرعون) ويقول محمد عبده لحسن عاصم إذ وصل إليه القول (وأينا فرعون ؟) .

(١) راجع ص ٥٠ - ٥٨ - ٥٩ - ١٤٩ - من كتابنا (الإمام محمد عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلقى) طبعة دار المعارف

الباب الثالث

الشيخ الرئيس

١٨٨٨ - ١٨٩٩

١٣٠٦ - ١٣١٧

(إن صورة الانتساب إلى دين لا تغني عن اتباع
هديه الصحيح)

محمد عبده

أثبتت بيروت لمحمد عبده أن الإسلام دار واحدة . وأن فيها منطلق جهاد كالقاهرة . ومع ذلك غلبه التوق إلى ربوع مصر . والبرد تجرى بين الشواطئ فتثير الشجى والخلى . وسيرة الشيخ أنشودة عامة يترنم بها الهلباوى بك بعد نصف قرن في مقالاته عن رجال القضاء السابقين في كتاب اليوبيل الذهبي للمحاكم الأهلية (١٨٨٣ - ١٩٣٣) فيقول : (وأذكر أن جميع الذين أبعدهوا عن مصر بسبب الثورة بعدت عنا ذكراهم وجهلنا سيرتهم من يوم نفهم إلى يوم عودتهم إلا الأستاذ الشيخ محمد عبده فقد كان اسمه يجلجل في جميع المحافل المصرية في أثناء هذه المدة كأنه بين ظهرانينا) .

وكان سعد يتصدر صحبه ويبرز قاعات المحاكم بمرافعاته منذ افتتاحها في ديسمبر ١٨٨٣ فأجمع عليه المتقاضون من الأمراء والعظماء والشعب : ومثل مصر كلها في العمل لعودة «إمامها وإن اقتدت بغيره» كما كان يكتب إليه ، فوسط الأميرة نازلى فاضل (١٩١٤/١/١) لاستصدار عفو عنه من الخديو الذى ثار عليه فى القاهرة واتهمه بالخيانة فى باريس ولندن فوق ماله عليه من ذنب الإفتاء بخلعه فى سنة ١٨٨٢ كما كان يعتقد .

وبوسطت الأميرة - وهى بنت الأمير مصطفى فاضل أخى الخديوى إسماعيل - لدى الخديو مختار باشا «ألغازى» نائب تركيا فى مصر . فصدر العفو بناء على وساطته . وسيدكر له محمد عبده هذه اليد عنده فتكرر زيارته له . ويقول الباشا بعد موته : (إن دماغ هذا الرجل أعظم دماغ عرف) . ومع ذلك فاللورد كرومر يذكر فى كتابه (مصر الحديثة) أن العفو صدر بسبب الضغط

البريطاني . في حين يذكر إمام المعية الشيخ محمد البسيوني أن الخديو قال : (ماعفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار إلا هذا) .

ضمن الخديو على الشيخ العائد بوظيفة كان يرجوها ، هي التدريس في دار العلوم أو الأزهر ، كيلا يجتمع بالشباب . فجلس - متطوعاً - يلقي درساً في التفسير في جوار إحدى أساطين الأزهر وهو يقول معزياً نفسه : (كنت أقوم بدرس التفسير قديماً) .

وستبقى لديه من ذكريات ذلك الدرس أن كثيراً من حاضريه كانوا من طلاب مدارس الحكومة ، لما في الدرس من فوائد ، وأن منهم قبطين كانا يكتبان ما يدلى به .

لكن للأساطين هممة كالطين : لقد خصص كرومر إيراد مصر لسداد «فوائد» الديون لا الديون . وقدم قطنها طعمة رخيصة لمصانع لانكشير . وعطل الحكم النيابي وأنشأ مجلساً للشورى وألغى مراحل التعليم . بل قصره على المرحلة الابتدائية ! ثم عزم أن يحل اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية ! وفي سنة ١٨٨٤ أعلنت بريطانيا أنها تضع مصر في شبه حماية . وصفت الوجود المصري في أفريقيا بعد إذ كانت قواتها تحتل الصومال طبقاً لمعاهدة بينها وبين إنجلترا في ١٨٧٧/٩/٧ ، ومصر والسودان بلداً واحداً فيه منابع النيل (بحيرة فكتوريا - بحيرة ألبرت - بحيرة إبراهيم) والقوات المصرية في أفريقيا حتى رأس جردافوى - (القرن الأفريقي الآن) على مبعدة آلاف الأميال تحت مدخل البحر الأحمر . تسيطر على بربرة وزيلغ وهرز وجيوزي ومن تحتها أقاليم كينيا وأوغندا ، فكانت السفن تبحر من ميناء إسماعيل (قسمايو) على المحيط الهندي حتى بورسعيد في حماية مصرية (انظر الخريطة صفحة ٥١) .

وكانت جيوش مصر - في عهد إسماعيل تدافع عن تركيا في كريت وفي شبه جزيرة القرم (روسيا)^(١) وتدافع فرقة منها في المكسيك عن سياسة فرنسا !

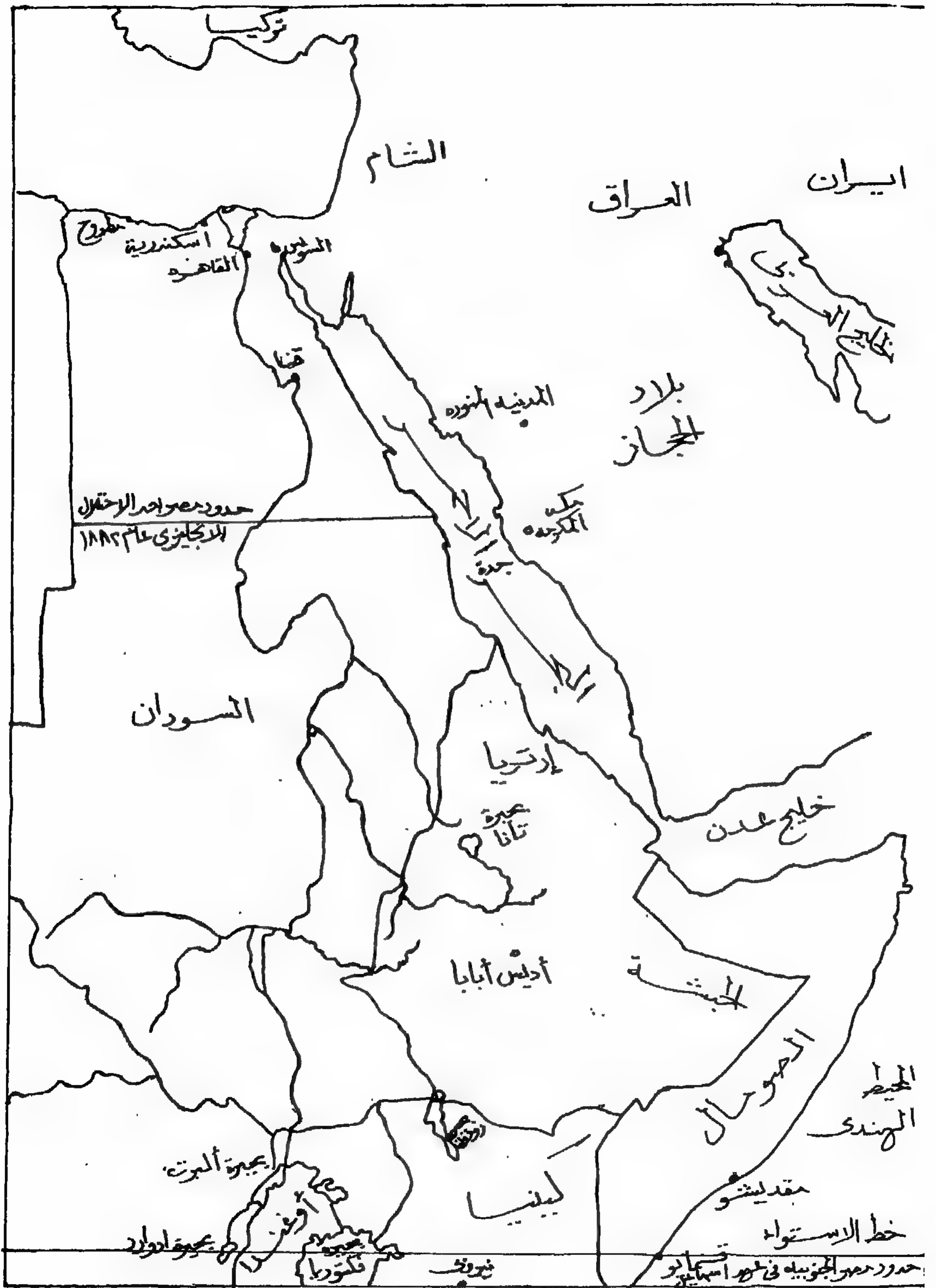
وسيلغ الإنجليز أغراضهم لإفقار مصر فتصرح لجنة شئون الميزانية في مجلس الشورى سنة ١٨٩٤ (بأن الأمة المصرية سائرة في طريق الفقر وعسر الحال) ويعلن الأمير حسين كامل : بعد سنين (أن

(١) يقول البارودي الذي كان يقود الفرق آنذاك إذ يعود من المنفى كفيفاً ، بعد بضعة عشر عاماً ، سنة ١٩٠٠ :

أين المعادل بل أين الجحافل بل أين المصاول والخطية الشرع !

وفي سنة ١٩٠٠ يقول حافظ إبراهيم :

جادت جفوني لها بالؤلؤ الرطب	فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت
قرم تردد بين الموت والحرب	كأنني عند ذكرى ما ألم بها
وإن سكت فإن الغم لم تطب	إذا نطقت ففزع السجن متكأ
ونحن نمشي على أرض من الذهب	أيشنكي الفقر غادينا وراحمنا



الفلاح المصرى يقضى حياته مثقلاً بالدين لايزيد إirاده على الضرائب المفروضة عليه وفوائد الديون المطلوبة منه .

وتخطف البطش بالأنفس وذهب ربح الأحرار وتشذروا فى الآفاق . وساد الذين مردوا على النفاق . وسكتت أصوات ٢٩.٥٠٠ مصرى سجنهم الإنجليز عندما دخلوا القاهرة ! وسادت الإمعات الطائفة أو الطامعة وأصبح المجتمع رجراجة !

لم يعتزل الشيخ مجتمعه فى هذا التيه الكريه بل كظم كمدته واتجه إلى تعليم الأمة . فقدم إلى كرومر تقريراً بوسائل إصلاح التعليم بوجه عام - أما فى صدد الأزهر فرأى أن الإصلاح يكون بالتدرج . ولم يقدم صورة من التقرير إلى رياض باشا رئيس الوزارة مما ينم عن تقطع الأسباب بينهما وأنه كان يأقئ الأمور من أبوابها . مثلما قدم تقرير إصلاح التعليم فى سورية إلى شيخ الإسلام مباشرة فى إسطنبول ، ومثلما سوف يصنع إذ يحدث الخديو نفسه بعد سنوات عن إصلاح الأزهر - إدراكاً منه أنه ينوب عن « الجماعة » والحديث باسمها لا يجرى إلا مع أولى الأمر . .

واستأجر داراً فى شارع الشيخ ربحان على مقربة من قصر عابدين وكان يقول (نحن نناطح عابدين مناطق) وسينتقل فيما بعد إلى حى الناصرية ثم إلى ضاحية عين شمس .

فى القضاء

لم يطل زمن التطوع فى حلقة الأزهر فالدولة أحوج إلى العالم الحق منه إليها . كان النظام القضائى الجديد وليداً . ورجاله حريصون على أن ينافسوا القضاة الأجانب بالمحاكم المختلطة . والشيخ قد عاد إلى مصر إماماً له أنصاره .

وأولو الأمر فى القضاء مجمعون عليه كما صرح بذلك الهلباوى بك فى المرجع السابق حيث قال : (شعر كثير من أنصاره فى مصر بالحاجة إلى عودته فدعوه ملحين ليعود .

والقائمون بأمر القضاء فى وزارة الحقانية كانوا يشعرون بحاجة القضاء إلى وجود مثل هذا الرجل بين رجاله . .

مواهبه والإجماع على الحاجة إليه ذللت العقبة التى كانت قائمة بشأن رجوعه أو دخوله فى القضاء حتى رضيت السراى بتعيينه على أن يكون نائب قاض وفى يونيه سنة ١٨٨٨ عين نائب قاض بينها) . كان الإنجليز قد فرضوا على هذه المحاكم : (القانون الفرنسى . قانون نابليون) فأخذ الشيخ يحكم بأصول شرعية تمكنه بعمومها وعدالتها من احتواء أحكام القانون الفرنسى أو تفادى تطبيقه :

كأن يحدث صلحاً بين الخصمين حتى لا يحكم « بالفائدة » .
أو يحكم بالعدل لا بالنص في قضية . . ويسأله « المستشار القضائي سكوت » - بناء على شكوى فيجيبه بسؤال : هل العدل وضع لأجل القانون أو القانون وضع لأجل العدل ؟ ويشرح له الأمر فينشرح به صدره .

أو يسئ أجنبي الأدب في الجلسة - محتماً بالامتيازات - فيأمر بنجسه . وسأله (سكوت) : فقال (مادمت على كرسى القضاء فلن أقصر في احترامه) .

و ذات يوم استعان مصري مغتصب بإنجليزى ليرفع علم بريطانيا على أرض غصبها فأمر محمد عبده بترع العلم وطرد الغاصب .

وطارد الفواحش مظهر منها ومابطن حتى لتقول امرأة في الزقازيق (إن النبي ظهر ثانية) .
وكان يفطر في المحكمة في رمضان ليكتب أسباب الأحكام بعد الإفطار يوم تصدر الأحكام .
وأخذ الشيخ سمته بين الزملاء فبلغ الأوج . يقول الهلباوى بك :

« وأذكر أنه في هذه المدة الطويلة لم يشتغل في الدوائر الكلية إلا بعض جلسات قليلة أما عمله المستمر فكان في محكمة عابدين .

ومحكمة عابدين كانت وماتزال أهم محاكم القاهرة . ولا أذكر أن كرسى القضاء فيها جلس عليه رجل كان موضع إعجاب جميع الطبقات من متقاضين وصحفيين وسواهم مثل المرحوم الشيخ محمد عبده أولاً^(١) والمرحوم عبد الخالق ثروت باشا من بعده . . كان محمد عبده يصدر الحكم ويشفعه أو

(١) كانت أحكامه ذات المبادئ تنشر في المجلات القانونية . إليك مثلاً بعض حثيات من حكم له بمحكمة عابدين في ٥ أكتوبر

(من حيث إن الأصل العام الذى أسست عليه جميع أحكام الشرائع في إلزام شخص بتأدية شيء إلى آخر هو أن يكون الأداء على قدر العوض حاصلًا كان بالفعل أو مؤملاً فيه عند العقد . . . وليس من الجائز أن يؤدي شخص شيئاً لم يتفع به أو لم يأمل الانتفاع به . لأن هذا هو الظلم بعينه . ولكن ضرورة اتساع المعاملات وضعف الثقة أحياناً بالذمة الواحدة ألجأت إلى ضم ذمة إلى ذمة أخرى في الالتزام بالأداء وإن لم يتفع صاحب الأولى بشيء مما يلتزم بأدائه أو أداء عوضه . . . فالترام الضامن أمر جاء على خلاف الأصل وقررت الشرائع باقتضاء الضرورات . فلا يجوز التوسع في القياس لأن ماسوغ بضرورة قدر بقدرها .

ومن حيث إن الشرائع الصحيحة قد قسمت الضمان إلى قسمين : كفالة تضامن وكفالة لا تضامن فيها . فالأولى ما التزم فيها الضامن أن يكون بمنزلة المضمون في الالتزام بالأداء في جميع الأحوال بنص في عقد الضمان أو نص في القانون . والثانية ما شرط فيها الالتزام بعجز المضمون أو امتناعه عن الأداء عند وجوبه أو نحو ذلك أو سكت فيها عن التعميم والتخصيص . وحكم القسم الأول من الكفالة انشغال ذمة الضامن مع المضمون وأن للدين أن يتبع أيهما يشاء . وكل ما صح إجراؤه مع أحدهما صح إجراؤه مع الآخر وكل عمل رسمي جرى مع أحدهما يعتبر جارياً مع الآخر . ولكن لكون هذا الحكم جاء على خلاف الأصل المعقول رأى أهل الشرع وجوب التصريح به . وجرى على ذلك القانون المصرى في المادة ١١٠ حيث قال مطالبة أن أحد المدينين المتضامين مطالبه رسمية وإقامة الدعوى عليه بالدين يسريان على باقى المدينين . والكفلاء المتضامنون مع المدين الأصلي يعتبرون مدينين . فالتصريح بأن إقامة الدعوى =

يسبقه أحياناً بدروس ومواظب يلقيها على المحكوم عليه والجمهور إلقاء يشعر الجماهير والمحكوم عليه نفسه أنهم في حضرة أب ومصلح كبير . ولقد كنا نتحدث في مجالسنا بهذا ونعجب لهذه النتائج التي يحصل عليها هذا المعلم المقطور بطبيعته بين سامعيه ومتقاضيه ، إذ لم يحصل إلا نادراً أن عاد إليه منهم أو خصم بمثل ما حكم عليه به من قبل) .

ثم تلاحقت الخطى في الصعود فهو يرقى فوراً قاضياً من الدرجة الثانية بالمنصورة ثم ينقل إلى الزقازيق ثم يرقى إلى الدرجة الأولى بالقاهرة سنة ١٨٩٢ ثم مستشاراً في الاستئناف سنة ١٨٩٥ لنراه عضو اليسار في دائرة باسيلي بك تادرس سنة ١٨٩٦ وفي دائرة سعد زغلول بك سنة ١٨٩٧ . ويقول هلباوى بك عن عمله في الاستئناف (إذا لم نجد للأستاذ عملاً يبرزاً في القضاء فما ذلك إلا لأن عمل القضاة فيما بينهم مشترك مستور . وكل مانستطيع أن نقوله عن مدة السنوات الأربع التي لبثها في الاستئناف أنه كان من أوائل القضاة ومفخرة من مفاخر الوطن)^(١) .

= على أحد المتضامين تسرى على الباقي تصريح بأنها لا تسرى على غير من أقيمت عليه الدعوى إذا لم يكونوا متضامين . ومن حيث إن عقد الكفالة في هذه القضية قد صرح باشتراط تأخير المستأجر عن أداء الإيجار فهي ضمانة لا تضامن فيها فالدعوى التي أقيمت من المالية على المستأجر لا تسرى على المتضامن . فإذا لم تسر عليه لم يوقف بالضرورة مضي المدة التي يسقط الحق بمضيها . ومن حيث إن نظارة المالية متمسكة بالحكم الصادر من محكمة الأزيكية وهي إنما تطالب الآن بالمحكوم به في ذلك الحكم . . . ومن حيث إن ذمة الضامن قد اشتغلت بالدين من يوم عجز المستأجر عن الأداء وظهور ذلك لنظارة المالية فيكون الدين قد لزم ذمته في ٥ مارس سنة ١٨٨٨ .

ومن حيث إن صدور الحكم بالمبلغ لا يغير الدين ولا ينقله عن صفته فهو لم يزل إلى الآن أجرة . لأن استبدال الدين بغيره مقيد بطرق فصلت في المادة ١٨٧ وليس الحكم من تلك الطرق . على أنه لو فرض أن الدين استبدل بآخر فقد صرحت المادة ١٩٠ مدني بأنه لا يصح في أي حال من الأحوال نقل التأمينات الشخصية كالكفالة والتضامن إلا برضاء الكفلاء والمتضامين . ومن حيث إن المادة ٢١١ مدني صريحة في أن ما استحق دفعه سنوياً أو بمواعيد أقل من سنة يسقط حق المطالب به بمضي خمس سنوات) .

(١) فيما يلي أسباب في قضية استئناف عادية صيرها أسباباً غير عادية اشتراك محمد عبده وسعد زغلول في تحريرها ويده القارئ لها إخلاص الرواد الأوائل لقضاة مصر وامتيازهم إذا قورنوا بالقضاة الأجانب في المحاكم المختلطة ، وكانت دولهم تختار قانونيين عالمين لتمثيلها في القضاء المختلط - والحكم صادر في جلسة ١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٧ وكان الشيخ محمد عبده عضو اليسار . وفي الحكم تظهر آثار السو العري والفرنسي جميعاً وإحاطة الإمام وتلميذه - الرئيس - بالفقه الفرنسي (وحيث إنه فيما يتعلق بتطبيق العقوبة فإنه يشترط لوجود الجنحة المدونة في المادة ٢١٩ - الآن ٢٤١ - جملة شروط منها وجود الجرح أو الضربات مادياً وأن ينشأ عنها مرض أو عجز أو عن الأشغال الشخصية أزيد من عشرين يوماً . وحيث إن هذين الشرطين مستفادان صريحاً من نفس المادة المذكورة . فلزوم وجودهما واجتماعهما وترتب إحداها على الآخر مما لا يقبل بحال من الأحوال .

وحيث إنه يتج من ذلك حتماً أنه لا يصح اعتبار مجرد الجروح أو الضربات مرضاً لأن القانون اعتبرهما أمرين مختلفين مستقلين في وجودهما واشترط اجتماعهما معاً وأن يكون أحدهما علة ومنشأ للآخر .

وحيث إن عدم استطاعة الأعمال الشخصية هو المعنى الملحوظ للقانون من المرض وهو الجهة التي نظر إليها فيه ولذلك عطف عليها (عجز) الذي هو نص صريح في هذا المعنى ، بياناً له بعبارة أخرى .

كانت جهود الشيخ ليحتل مكاناً علمياً يليق به بين كبار القضاة في عصره ، وهم كبار القضاة في كل العصور ، آية إخلاص جدية به . فانتقال الفكر من المنهج التقليدي في فهم الفقه الحنفى والمالكي إلى المنهج العصرى الفرنسى الأصول والفروع ، وإحسان تطبيقه ، وبلوغ الغاية من ذلك ، على الفور ، أمور فوق العادة . وفوق الطاقة ، لكن الإخلاص يجعل العمل عبادة ، وليس أعباء من الإمام وهو يوزع العدالة . والعدل صفة من صفات الخالق سبحانه . وسرى الإمام بعد بضعة أعوام يتطوع فيضيف على كاهله شواغل عظيمة ذات أهمية ، لتدلنا شواغله الشتى وإيفاؤه فيها على الغاية ، على أنه كان أمة في رجل

تحرير المرأة :

أصبح صالون الأميرة نازلى فاضل وزوجها التونسى « خليل بوحاجب » ندياً يسرف فيه أعلم وأعظم القضاة في تاريخ مصر : محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وأحمد عفيفى . أما محمد فريد فحامي الأميرة وإن لم يكن من السمار في المصانير - . فالأميرة مولودة في بيت صارت مكتبته نواة لدار الكتب المصرية التى تضارع أعظم دور الكتب في العالم كله . وهى برزة تجالس العلية من الساسة والعلماء والأمرء وتدلى بأحاديث مثيرة . منذ قضت أيامها الأولى زوجة لخليل باشا شريف سفير دولة الخلافة في باريس وأخى على باشا شريف رئيس مجلس النواب بالقاهرة . فلما مات تزوجت من خليل بوحاجب ، وزوج أختها تونسى هو القائد بن عياد .

وسرى الإمام بعد أعوام يكتب إلى جمال الدين وهو في جوار سلطان تركيا يطلب إليه التوسط

= وحيث إن عبارة الطبعة الفرنساوية تشير إلى هذا المراد . لأن حرف (أو) في الفرنساوية يأتي لتوضيح معنى سابق بعبارة أخرى . ولأن أداة التنكير لم تكرر فيها مع كلمة عجز . وهو دليل على أن هذه الكلمات جاءت توضيحاً لمعنى سابق لاتعبيراً عن معنى جديد . وعبارة الطبعة العربية لاتأتى هذا المعنى . لأن حرف أو يصح أن يكون مابعدة بياناً للمعطوف عليه أو تعميماً لمعناه كما يصح استعماله لأغراض أخرى .

وحيث إنه يتحصل من ذلك أن قصد القانون من المرض أو العجز يرجع إلى شىء واحد وهو الحرمان من الأعمال الشخصية مدة تزيد من عشرين يوماً وهو المعول عليه في تحقيق الشرط الثانى لتطبيق المادة ٢١٩ عقوبات .

وحيث إنه في الحقيقة . لا يمكن التعويل على غيره في الاستدلال على جسامه الجروح أو الضربات وفي قياس درجة خطورتها لأن هو الأثر الذى يتبع عنها وحقيقته ليست متنوعة مختلفة بل هى حقيقة واحدة لا تختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ولذلك يتعين أن يكون هو الضابط الوحيد لجسامه هذه الإصابات والقياس الصحيح الذى لا يصح التعويل على غيره في تقدير العقوبة المناسبة لها . وحيث إن الأحكام الصادرة من المحاكم الفرنساوية في موضوع المادة ٣٠٩ من القانون الفرنساوى وهى التى نقلت عنها حرفياً عبارة المادة ٢١٩ صريحة كلها في المعانى التى قدمناها ولم تختلف عنها دلالة وصراحة عبارات مشاهير العلماء الذين شرحوا هذه المادة مثل دالوز وفستن هيل وبواتار وجاروه وبرياندى شويه . بل كل عباراتهم ناطقة بها كأنها من القضايا البديهة المسلمة التى لا خلاف فيها وإنما اختلفت كلماتهم في تعيين معنى المراد من الحرمان من الأعمال الشخصية . . .) .

للإنعام عليها بنیشان ونجيبه السيد بما يفيد عجزه عن الوساطة فيقول (وأما تمثال الكمال والجمال حضرة البرنيس . التي لها من قلب المنزل الأبى والمقام الأسنى . فلا أعلم من أمرها شيئاً . لا لها ولا عليها ولا سمعت . .)

وسرى الإمام في سنة ١٩٠٣ ينزل ضيفاً على زوجها كبير الوزراء في تونس خليل بوحاجب . في إبان رحلته إلى تونس .

ولقد يفد على الصالون أمراء للشيخ بهم عهد . أو تدلى صاحبة السمو بالآراء ، فلا يجعل لها الكلمة الأخيرة . بل قد ينبها على ما يحمل بها - وبمصر - فيقول لماذا تتكلمين في السياسة ، ولا تؤسسين مدرسة للبنات ! ! فهو مؤمن من قديم بتعليم البنات وفي جواره سعد زعيم الثورة المنتظرة . وقاسم زعيم تحرير المرأة .

ولا جرم أن آراء قاسم أمين وكتابات موافقة سعد قد ترعرعت في رحاب صالون الأميرة نازلي وإن بدأت قبل ، وأن النهضة النسائية التي تزعمتها السيدة هدى شعراوى زوجة على شعراوى - وهو تلميذ للإمام ستقرأ اسمه فيما بعد - تمت أسبابها إلى أفكار صالون الأميرة نازلي . وأن صاحباً رابعاً هو الهلباوى وثلة من النابهين قد وجدوا في صالون « هدى هانم » الذي اشتهر في الربع الثاني من القرن العشرين الميلادي منطلقاً لتحقيق إصلاحات نادى بها محمد عبده من سنة ١٨٨١ في « الوقائع » وأعقبه فيها قاسم أمين . فبلغت مبالغها لتحرير المرأة .

وهيا سعد الأسباب العملية والسياسية في ثورة سنة ١٩١٩ إذ رحب ومعه أم المصريين وزوجة قاسم أمين - وكانتا صديقتين حميمتين - « بسفور » النساء ، ورفع البراقع البيضاء وذهابهن إلى بيت سعد متظاهرات ، وحيا سفورهن تلميذ آخر للإمام^(١) وبلغ الإصلاح شأوه يوم قبل تلميذ آخر هو لطفي السيد التحاق المرأة بالجامعة - وهي الأخرى - أثر من آثار محمد عبده .

وبدخول المرأة فيها وتخرجها منها تغير وجه المجتمع الإسلامى على مدى نصف قرن بأيدي الإمام ومدرسته .

وفي محاضرة بالجامعة الأمريكية بتاريخ ١٢/١١/١٩٢٩ لخصت السيدة هدى شعراوى حركة تحرير المرأة وفرسانها فقالت :

(١) خلد حافظ إبراهيم هذه المناسبة التاريخية في أكثر من قصيدة أولاها عن مظاهرتين سنة ١٩١٩ وفيها يشير إلى « بسفور »

وجوهن وظهور شعورهن . قال بين ما قال :

فطلعن مثل كواكب	يطلعن في وسط الدجّة
وأخذن يحتزن الطريق	ودار « سعد » قصد هُنه
يمشين في كنف الوقار	وقد أبّن شعور هُنه

(عندما قام قاسم وقام فريق من صحبه لنشر دعوته . . . ومن بين هؤلاء سعد باشا زغلول والمرحوم الإمام الشيخ محمد عبده والأستاذ الكبير الشيخ عبد الكريم سلمان انتهزت هذه الفرصة . . . السيدات . . . كالمرحومة ملك حفني ناصف . . . وخرج كثير . . .)

لم يكن «الإمام» ليرضى أن يكون «الثاني» في أى موقع . وهو بين قضاة رجعوا من بعثات باريس متخصصين في الفقه الفرنسي الذى يطبقون قانونه . فلا معدى عن أخذه من مصادره بلغته الأصلية .

وستقرأ له في تفسير صورة العصر (لو قضى الزمان بأن يكون من وسائل التمكين من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واشتغال الناس بالحق عن الباطل والطيب عن الخبيث أن يضرب الإنسان في الأرض ويمسحها بالطول والعرض وأن يتعلم اللغات الأجنبية ليقف على ما فيها مما ينفعه فيستعمله وما يخشى ضرره على قومه فيدفعه ، لوجب على أهل العلم أن يأخذوا من ذلك ما يستطيعون ولهم في سلف الأمة من القرن الأول إلى نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن الأسوة)

لهذا تعلم الفرنسية في القاهرة ورحل لإتقانها إلى «جنيف» في سويسرا ومن أساتذته من حرص على أن يكون له ولصغاره صورة فوتوغرافية في جوار شيخ معمم يعلن فوداه ولحيته شيئاً كأضيواء النهار . وكمثله سيصنع سعد والهللواوى فيتعلمان الفرنسية ويرحلان في سبيل تعلمها . ولا يُلْكَر أحد منهم في تعلم الإنجليزية .

قال ليعلم الكبار : (بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عندما كانت سنى أربعاً وأربعين سنة . ولكن ميلى إلى تعلم لغة أجنبية ابتداءً في أثناء الحوادث العربية فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيته تقريباً ، وعندما سافرت إلى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر . . ولم أتعلم شيئاً من الفرنسية . . أما بعد عودتى من النفي إلى مصر واشتغالى بالقضاء . . خصوصاً في الجنايات على أصول القوانين الفرنسية وجلوسى بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها فقد تقوى عندى الميل إلى تعلم اللغة الفرنسية حتى لا أكون في معرفة القوانين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء . . فوجدت أستاذاً لا بأس به جاءنى حاملاً كتاب نحو في يده (كرامير) فسألته ما هذا ؟ فقال كتاب نحو فقلت له : (لا وقت عندى لأن أبتدىء وإنما عندى زمن لأن أنتهى) ثم ناولته قصة من تأليف (إسكندر ديماس) وقلت له : أنا أقرأ وأنت تصليح . . سافرت بعد ذلك إلى فرنسا وسويسرا عدة مرات في أيام العطلة وكنت أحضر دروس العطلة في كلية جنيف : .)

وقال ليعلم الجميع :

(ثم إن الذى زادنى تعلقاً بتعلم لغة أجنبية هو أنى وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أنه على شىء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقدر على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا إذا كان يعرف لغة أوربية . كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع الأوربيين فى جميع أقطار الأرض ؟ وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم) ؟

بهذا أتقن الفرنسية وترجم إليها ومنها . ورنى فى أواخر حياته يملئ بحثاً بالفرنسية نشره (دى جرفيل) فى كتابه عن مصر الحديثة (سنة ١٩٠٥) وناقش فى الفقه المقارن ، وهو الفقيه الشرعى الذى لا قرين له . واستيقن - بالعقيدة وبالاختبار الفعلى - امتياز شريعة وضعها الخالق على شرائع من وضع البشر ، فيها الصواب والخطأ ، فازداد تثبتاً وتسديداً .

وتناقل المجتهدون طريقته فى تعلم اللغة الأجنبية على نحو ماروى الرئيس محمد أنور السادات فى كتابه (البحث عن الذات) أنه قرأ أن الشيخ محمد عبده تعلم الفرنسية بقراءة قصة فرنسية مع معلمه فصنع الرئيس السادات ذلك مع معلمه حتى إذا انتهى من قراءة قصة ترجمت إلى الألمانية ، اكتشف أنه يحيط بها قدر ما يحيط المعلم .

وليس بعيداً أن يكون قبول أولى الأمر تعيين الشيخ فى القضاء « سياسة » لإبعاده من « السياسة » . والقضاء هو القفص الذهبى الذى تغض الأصوات بين جدرانها . ومن ثم لم نسمع فى السياسة المحلية صوتاً لواحد من السياسيين العالمين الذين عملوا فيه إلا بعد أن تركوه . وحسبنا الأمثال من مصر : سعد ومحمد فريد ورشدى وثروت . ومن آثار ذلك انقطع الشيخ عن السياسة كما يفهمها الحكام فى ذلك الزمان . وهى الاحتساب أو الانتساب أو المداينة أو المشاركة للخديو أو الممثل البريطانى . ووفقه الله ليعمل تحت مظلة القضاء أعظم الأعمال فى تاريخه : ١ - تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية ، ٢ - إصلاح الأزهر ، ٣ - إصلاح القضاء الشرعى .

الجمعية الخيرية الإسلامية

كان أول مقال كتبه الشيخ فى الوقائع المصرية سنة ١٨٨٠ خاصاً بالجمعيات الخيرية . استفتحه بقوله (. . .) . وبيعتنا على الثقة بحسن مستقبلنا يانراه من إقدام بعض أبناء قطرنا على الأعمال الخيرية . وجدهم ونشاطهم فى تأليف الكلمة وضم الشمل واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقديمها وأخذهم بالوسائل الحقيقية التى تؤدى إلى ذلك وإن سبقنا إلى ذلك الممالك المتقدمة وبلغوا بها آمالهم من الثروة

والقوة وكمال السطوة . وهى إنشاء الجمعيات الخيرية)

وفى السنوات اللاحقة شارك الشيخ فى أعمال جمعيتين نموذجيتين فى الشام وباريس . وفى ندى اجتماعى (صالون) لم يستقص المؤرخون خصائصه . وأهمها أن الأميرة نازلى فاضل من فرع فى أسرة محمد على غير فرع إسماعيل الذى استأثر بوراثته العرش - دون إخوته - وإذا درب محمد عبده فيه سعد وقاسم على الانطلاق فى الآفاق ، فهو يبلغ بهم ذروة الحرية والاستقلال اللذين تكفلها لهم وظيفتهم ، ويحتذى استقلالهم عن الخديوكل من أخذ أخذهم من النظراء فى القضاء ، حيث برز اثنان صنوان كما كانا يسميان هما حسن عاصم وعلى فخرى . وسنرى الخمسة خصوصاً أشداء للملوك من أسرة محمد على .

هكذا اجتمع سعد وقاسم وحسن عاصم وعلى فخرى على الاعتراف من معارف «الإمام» . وسعد وقاسم صديقان مذكوران قاسم محامياً فى لجنة «قضايا الحكومة» يترافع فى الجلسات ويسفر فى الصلح بين القاضى التركى فى بنها وبين سعد إذ أسخط القاضى قول سعد «أطلب البراءة» لا «أتمس البراءة» وأفهمه قاسم أن اللغة فيها القولان . وقبل التركى فتوى محامى الحكومة . وسيعين سعد وقاسم فى قضاء الاستئناف معاً سنة ١٨٩٢ .

وفى الجلسات كذلك أغرم قاسم والهللأوى كل منهما بالآخر :

أما حسن عاصم وعلى فخرى فزميلان من عهد التلمذة الباكورة فى أسىوط ، إلى بعثتهما فى باريس وعودتهما معاً فى سنة ١٨٨٤ ليصيرا علمين يشار إليهما بالبنان . فى عامى ١٨٩٢ و ١٨٩٣ أخرجت «لجنة إصلاح القضاء» التى كانا روحها كما يقول هللأوى بك ، نصف عدد القضاة ليحل محلهم قضاة القرن العشرين .

ومن الطبيعى أن يكون محمد عبده أقرب قومه إلى روح هذا الإصلاح . فى عام ١٨٩٢ أسس هؤلاء الخمسة وآخرون - سينضم إليهم الهللأوى وقليلون - «الجمعية الخيرية الإسلامية» ومن أهدافها ماكتبه الشيخ سنة ١٨٨٠ (تأليف الكلمة وضم الشمل واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقديمها) ويضيفون إليها رأس مال قدره ألف جنيه كانت مخصصة فى محافظة القاهرة لجمعية إسلامية . وسنرى الرجال الستة أركاناً قوية لصرح العدالة والحرية ، وفيهم أربعة زعماء فى القانون والقضاء والمحاماة والإصلاح الاجتماعى ، والخامس والسادس من أترابهم .

أما (سعد والهللأوى) فدرسوا علوم الإسلام فى الأزهر ، وأما قاسم فله دراسات فيها من عهد الطلب فى باريس تتجلى فى رده الشهير على الكونت داركور . وحسن عاصم هو الذى ترجم وهو طالب بباريس محاضرة لرينان فى السوربون نال فيها من الإسلام ليرد عليه جمال الدين . وعلى فخرى

وحسن عاصم كانا كأنهما توأمان . وهذه الدراسات تطرح بين أيدينا طراز تربيته وتفكيرهم واتجاهاتهم الإسلامية .^(١)

والشيخ قد تعلم من المثل الناجح في بيروت لجمعية المقاصد ومدرستها ، والمحقق في باريس لجمعية العروة الوثقى وصحيفتها ، اقتدار «الجمعيات» إذا عملت للعلم وبالسلم ، على ما لا يقدر عليه الرجل الواحد وإن أمر أمره أو طال عمره . وكان صيرفياً يزن المواهب ويميز الصحاح من الزيوف ، وصوفياً ينكر نفسه ويذكر غيره . وهما خصيصتان أساسيتان لقيادة الرجال .

كان يتمنى في باريس أن يهبه القدر سنوات عشرة يعد فيها للدعوة «شباباً» يصنع بهم جيلاً جديداً من الدعوة . واليوم أتاحت له القاهرة رجالاً ملء الإهاب أقرب إلى الشباب وأقدر على العمل وأمثل في الأعين وأبعد من التهمة .

* * *

في هذه الأضواء ، وفي المحكمة ، حيث الحرية والعدالة اللتان تفتقدتهما الأمة ، ولدت الجمعية الخيرية الإسلامية . لتكون جماع فروع شتى للخدمة العامة ، يتألف من تجمعها بحر زاخر من الإنجازات التي صنعت مصر الحديثة ، حتى إنك لاتكاد تجد اسماً لرجل عمل لمصر عملاً بسخماً في النصف الأول من القرن العشرين - الذي يحمل على كتفيه النصف الثاني في شموخ - لم يكن عضواً في هذه الجمعية . وتستطيع أن تقرر أن عملهم في الأغراض العامة أو وظائف الحكومة هو الذي أحدث التوازن الذي قدرت به مصر على دفع الكثير من شرور الأجانب ورفع الخطير من أذى الاحتلال .

كان للأجانب (امتيازات) تحميها (المحاكم المختلطة) . وفي هذين الشرين قول نقابة المحامين المختلطة عن الامتيازات إنها (معاهدة بين الشرق والغرب تهب أبناء الغرب وضعاً قانونياً خارج الدين المسيحي للاحتفاظ لهم بأوضاعهم الخاصة) ! وقول المستشار الإنجليزي عن المحاكم إنها (أنجح مؤسسة دولية في التاريخ بعد الكنيسة) !

ومن هذا التفكير الصليبي في الوضع القانوني لمصر خارج الدين المسيحي ، كان استتراف الدم المصري والمال المصري :

جلس القنصل العام لإحدى الدول يتحدث إلى الحديو محمد سعيد فعطس مثني وثلاث فقال

(١) يقول حسن عاصم في مقدمة ترجمته (لما كاد الذب عن الدين فرضاً على الإنسان

وحب الوطن من الإيمان اجتمع جمع غفير من طلبة العلم المقيمين بفرنسا وكلفوا أخاهم العبد الفقير حسن عاصم بتعريب

الخطبة ...) . H.

الحديو (البس القبعة يا عزيزي القنصل لأنك إذا أصبت بزكام فإن حكومتك ستطالبني بتعويض) .
وحكمت إنجلترا الأجانب في مصر لتحكم قبضتها على عنقها بإفساد «القيم الذاتية» للأمة
وإذلال الأعزة وتفتيت الوحدة وتمكين المبشرين والمستعمرين من عقول الناشئة ، ثم أجلس للقضاء
الوطني مستشارين إنجليز وأوربيين - بل حاول كرومر أن يجلس في المحاكم الشرعية مستشارين من
قضاة غير شرعيين .

وأحدث أذئاب الاحتلال القطيعة بين الناس ، وتناكر الأقرباء وتنافر الأصدقاء .
وعبر محمد عبده عما آلت إليه الحال حيث قال في إحدى خطبه في الجمعية (إن العداوة بين الناس
صارت على أشدها . للأقرب فالقريب فالبعيد فالأبعد) !

وسرى (جورست) في أعقاب كرومر يحرض على إقامة مؤتمر قبلى في أسبوط في مارس سنة
١٩١١ وإقامة المؤتمر المصرى المضاد في ديسمبر سنة ١٩١١ في إبان حبس رئيس الحزب الوطنى محمد
فريد فينتقده فريد أشد انتقاد . ثم يكتب عنه في (مذكراتى بعد الهجرة) أنه [المؤتمر الوطنى الذى
جمعه محمد سعيد (رئيس الوزارة) بناء على رغبة جورست لمحاربة الأقباط وبالتالي لسعيريق بين
الأقباط والمسلمين] .

في هذا الطوفان المدمر لقيم المجتمع عملت الجمعية الخيرية الإسلامية لتأليف الكلمة وضم الشمل
 واتحاد المقصد . والشيخ هو القائل (خير أوجه وحدة الوطن الامتناع عن الخلاف والنزاع فيه) ^(١)
وهو صاحب المقال الشهير في مجلة ثمرات الفنون دفاعاً عن الوحدة الوطنية .
وليس بدعاً وإنما هو مبادرة بالإصاخة إلى صوت الوحدة أن تقرأ في سجلات السنوات الأولى
للجمعية تبرعات قدمها إليها أقباط وأخرى قدمها إنجليز !

وما قدر الشيخ على ذلك إلا باشتهاره بأنه سلم لكل رجل ، وأنه رجل وحيدة ، وزعيم أمة .

* * *

ويده الناظر في تاريخ الجمعية أشياء منها :

١ - أن ينعقد مجلس إدارتها بضعة عشر عاماً تحت «قبة السلطان المغورى» ^(٢) فذلك ربط

(١) والقائل في عدد ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ في العروة الوثقى :

(لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها للمسلمين بالذكر أحياناً ومدافعها عن حقوقهم نقصد الشقاق بينهم وبين من
يجاورهم في أوطانهم ويتفق معهم في مصالح بلادهم ويثبلكهم في المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما نحيل إليه
ولايجه دبتنا ولا نسمح به شريعتنا) .

(٢) في سنة ١٩١٤ انتقل مجلس الإدارة إلى سراى أوقفها عليها السيدة خديجة برهان مباحثها ١٦٩٤٧,٣٥ متر مربع في درب
الخاميز وحضر السلطان حسين كامل الافتتاح وكان قد تولى العرش .

للماضى بالحاضر بمعان كبيرة ، يهمننا منها هنا أن القضية الذين يمثلون آمال مصر ومستقبلها يعقدون جلساتهم لإصلاح أمتهم تحت قبة المسجد . وكأننا يخاطبون بمغزى الانعقاد هنالك من يتنادون في أيماننا هذه ببناء الإنسان المصرى والمجتمع الإسلامى قائلين : إن طريق ذلك هو المسجد .

٢ - أن الجمعية بقيت زمانا برئاسة رؤساء مؤقتين ^(١) في انتظار أن يرأسها الأمير حسين كامل - (٩ / ١٠ / ١٩١٧) لورعه واشتهاره ^(٢) يحب الفلاح ولأنه أكبر أبناء إسماعيل ، لكن الأمير أبى أن يرأسها وفي الشيخ حياة ، فرأسها الشيخ رسمياً في سنة ١٩٠٠ (١٣١٨ هـ) .

٣ - يومئذ ظهر أن الأعضاء كانوا يتزايدون من ٢٢ عضواً سنة ١٨٩٢ إلى ٦٨٠ عضواً سنة ١٩٠٠ كما زاد تلاميذ المدارس إلى ٧٦٦ تلميذاً وهو رقم ذوبال أيام ذاك .

وسيرأسها الأمير بعد وفاة الشيخ سنة ١٩٠٥ ويستبقى رئاستها مع رئاسته لمجلس شورى القوانين سنة ١٩٠٩ حتى يلى العرش سنة ١٩١٤ - وكان يقول عن الإمام « أستاذى الذى تشرف علينا روحه الآن ولولاه لم أكن أنا مسلماً » وفي ٢٩ / ١ / ١٩١٥ كتب إلى وكيل الجمعية يقول « إن ارتقائى عرش مصر لا يحجب الجمعية ولا يحجبكم عنى طرفة عين » .

٤ - أن الشيخ الرئيس تثقل موازينه عاماً بعد عام ، لدى الرأى العام وأولى الأمر من العلماء والأمراء والحكام .

ولئن كان تكريماً للشيخ الرئيس أن تتوسط لأجله أميرة من بيت محمد على سنة ١٨٨٨ ، وأن يبايع له في نهاية القرن أخ للخديو الذى ثار عليه ، هو عم للخديو الجالس على العرش ، فهاتان بيعتان متواترتان من أسرة محمد على . أما البيعة العامة فقد تواصلت بها مشاعر الأمة ، وكان سعد زغلول سباقاً بتسجيلها في كتاباته إليه في بيروت في فاتحة سنة ١٨٨٣ . وسيندرج تحت راياتها الخديو نفسه والإنجليز والجميع .

٥ - أن مكانة الجمعية وأغراضها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة مؤسسيها وسيرهم ، تفيد منهم الكرامة والخبرة والازدهار ، ويفيدون منها تحقيق آمالهم لأمتهم واجتماع كلمتهم وتنفيذ خططهم ، حتى تكاد سيرة الجمعية منذ إنشائها أن تكون سيرة المؤسسين .

(١) محافظ القاهرة إبراهيم شوق باشا فعثان ماهر باشا فالسيوف باشا شر تجار القاهرة .

(٢) يقول له حافظ إبراهيم إذ رأس مجلس الشورى :

حسين	حسين	أنت	ها	فنبه	رجالاً	عن	طلاب	الحق	ناموا
أفض	في	قاعة	الشورى	وثاماً	لقد	أودى	بناوياً	الخصام	
فلا	تثقوا	بوعد	القوم	يوماً	فإن	سحاب	ساستهم	جهام	
وإن	لم	يدرك	الدستور	مصرأ	فما	لحياتها	أبندأ	قوام	

ويحق لنا أن نورد كلمات في نجائهم تتضح منها حقائقهم وطرائقهم وأثرها فيهم .

حسن عاصم :

انتخب مجلس إدارة الجمعية لوكالتها حسن عاصم حتى وفاته . ولا جرم كان الرجل الثاني في الجمعية لأنه وهبها كل قلبه وكان أشبه الأشخاص بالشيخ في تفانيه في خدمتها . ومن بعدهما يتفاضل المؤسسون .

يقول الهلباوى في الكتاب الذهبي بعد أن ذكر أثر الصاحبين في إصلاح القضاء (وهانت كثيراً مهمة الإصلاح ولم يبق محل لبقاء هذين الرجلين معطلين في لجنة المراقبة فعين على فخرى مستشاراً بمحكمة الإسكندرية المختلطة وعين بعد ذلك حسن عاصم في ١٩ فبراير سنة ١٨٩٤ أفوكاتو عمومياً) ثم يقول :

(ولقد يلاحظ القارئ أن على فخرى صعد به الحظ إلى ترقية سبق بها حسن عاصم ولكنها ليست ملاحظة جديدة فإن على فخرى طالما تهكم بها في وجه صديقه وفي وجهنا جميعاً في دعاة حلوة وهو يقول : (ادفع ثمن صلابتك ياسعادة البك) . كان حسن عاصم يشعر بأن قناعته بأداء عمله في وظيفته تقصير منه في حق أمته . . لذلك كانت داره متدى لأصحاب الرأي وأحرار الفكر . . ومن هذا النادي تكونت (جمعية إحياء اللغة العربية) كان هو رئيسها وكان المرحوم عبد الخالق ثروت سكرتيراً لها زمناً طويلاً) .

ورأيت جواسيس الإنجليز اجتماع الشباب حوله .

بعد عامين من قيام الجمعية ظهرت حاجة الخديو للمصريين ليحموه ويسددوه . فدت الجسور بين الشيخ محمد عبده وبينه واستجاب لاقتراحه بتعيين مجلس إدارة للازهر من شيوخ اختارهم للعمل معه ، وصدر قراره بتعيينهم في ١٥ مارس سنة ١٨٩٥ . ولا غرو - أن يتنبه الخديو إلى وكيل الجمعية فيعينه في قصره بتاريخ ١٤ ديسمبر من العام ذاته .

وكان طبعياً أن تلقى وطنية هذا « المصري العظيم » خصومة من الأمراء واللورد كرومر وقائد الجيش البريطاني ودول أوروبا مجتمعة . . وأخيراً من الخديو ذاته !

جاء في الكتاب الذهبي بقلم هلباوى بك (كان هذا الرجل مخلوقاً لوضع النظام وتطبيقه . فلما أُلقيت إليه مقاليد التشريعات لم يجد قانوناً ولا نظاماً للأمراء ولا لأفراد العائلة الخديوية ولا نظاماً للتشريعات ، فاستصدر إرادة سنية بتحديد ذلك كله . وكان من نتيجة هذا القانون أن خسر كثير من طبقات العائلة المالكة لقب الإمارة الذي كانوا يتمتعون به فعلاً وأن كسب حسن عاصم سخط هؤلاء جميعاً .

وفي يوم من أيام التشريفات الكبرى دخلت بغتة عربة بها اللورد كرومر وقمعه قائد الجيش الإنجليزي تحف بها تنيكبة من الفرسان ووقفت أمام سلم الباب الخصوصي للخديو . بهبط حسن باشا السلام مسرعاً . لا ليستقبلها ولكن ليأمر السائق بالرجوع فوراً والوقوف أمام باب التشريفات العمومي . فعادت بعد شيء من الجدل وبقي الناس يتناقلون هذه الحادثة زمناً طويلاً .

وبعد قليل أقيمت « حفلة راقصة » بسرأي رأس التين بالإسكندرية كانت الدعوة إليها مقصورة على المقيمين بالإسكندرية . وعندما توافد المدعوون إليها ظهر من بينهم قنصل جنرال النمسا والمجر وكان عسيد القناصل في عهده ومقامه بالقاهرة . . وكانت الدعوة خاصة بقنصل النمسا بالإسكندرية . فاعترضه حسن باشا وطلب إليه العود من حيث أتى . . قال القنصل الجنرال : إن الدعوة موجهة لوكيلي في الإسكندرية فأرى أن يخرج هو وأن أبقى أنا خصوصاً وقد جئت فعلاً ولا يليق أن أخرج أمام هذه الجموع . . قال حسن باشا إن الدعوة شخصية لا تقبل الإجابة . . فخرج .

وفي غداة اليوم حضر اللورد كرومر إلى السراي وبلغ الخديو شكوى القنصل الجنرال وكان في أثناء حديثه يرمى إلى حل المسألة بإقالة حسن عاصم . وخرج موعوداً من الخديو أن ينظر في الأمر . فلما علم حسن باشا بذلك عرض على سمو الخديو أن يعهد إليه هو في مفاوضة اللورد في هذا الموضوع . وانتهى من هذه المفاوضة برضاء اللورد وسحب اعتراضه (١) .

والتصلون بهذا العهد وبحسن باشا مايزالون في عجب من هذه النتيجة التي وصل إليها حسن عاصم ومن الطريقة التي اتخذها لمقابلة اللورد . بل من الأسلوب الذي يكون قد استعمله في مفاوضته حتى حمله على نسيان هذه الحادثة وحادث عربة - هو - في سراي عابدين)

بقي حسن عاصم رئيساً للديوان الخديوي تسع سنين ونيقاً حتى أحاله الخديو للمعاش في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٠٤ وهو في السادسة والأربعين) .

قال هلباوى بك بعد أكثر من ربع قرن في المرجع السابق الإشارة إليه (ولعل السبب في هذا أن رئيس الديوان يعتبر قانوناً عضواً في مجلس الأوقاف الأعلى فحسن باشا كان لذلك عضواً فيه وربما كان له رأى في بعض المسائل يكون قد حسب عليه) .

وهذا التلميح للسبب بعد مرور ربع قرن ، يقابله تلميح مشابه له من هلباوى بك ، قبل مرور عام على حدوثه عند وفاة محمد عبده (٢) - إذ كان هو الذي أبدى رأيه بعرض الموضوع على مهندس

(١) في إحدى مناسبات الحديث عن شجاعة حسن عاصم وتعرضه للقنصل ذكر هلباوى بك أنه كان عندئذ يدفع صدقات شهرية ٣٠ جنياً ومرتبه ٦٠ جنياً ومعاشه إذا فصل ٣٠ جنياً . . .

(٢) أنظر الباب الخامس . حيث إشارة لمشروع زرقوداكي والخديو للتجارب على استبدال ١١٢ فدانا أرض بناء على شاطئ النيل منها الآن مئات الملايين من الجنيهات مقابل ١٢٤٧ فدانا مساة تفتيش مشهر ثمنها الآن لايساوى جزء من مائة من الأرض الأولى .

خبير فوافقه حسن عاصم ووافقها مجلس الأوقاف وأظهر تقرير الخبير الغش الخديوى ، فحفظ طلب الاستبدال .

وكان الهلباوى فى بروكسل عند وفاة الإمام ، فأبرق مغزياً . والذين يقرءون السطور ومايينها يدركون الجسارة النادرة فى قوله عن حادث الاستبدال (. . هل نعزى . . أم نعزى . . أم نعزى مصلحة الأوقاف . . والناس تعلم أنه فى المسائل الكبرى التى لا بد أن يدونها التاريخ لهذه المصلحة ، فى عهدها الأخير ، كان الشيخ من أكبر المدافعين والمحافظين على كيان هذه المصلحة - وسبب هذه المصلحة أضاع الشيخ وضحى بكثير من منافعه الشخصية وزاد فى هياج أعدائه ^(١)) .

* * *

إصلاح التعليم :

يقول هلباوى بك فى المرجع السابق الإشارة إليه : (كان حسن عاصم يجمع مع هذا كله عملاً ضخماً فى الجمعية الخيرية الإسلامية فهو منشئها ووكيلها وواضع قانونها ومدير التعليم من يوم نشأتها سنة ١٨٩٢ إلى يوم وفاته سنة ١٩٠٧ . خمسة عشر عاماً كاملة لم ينعقد مجلس إدارتها إلا وكان هو أول حاضر فيه وأول منبه للأعضاء لحضوره ، ولم ينعقد لجنة إلا لبحث مشروع قدمه هو ولا فتحت مدرسة إلا كان رأسه هو الذى أوحى بإنشائها) .

يقول للإمام بعد أن وزع آلاف الجنيئات التى جمعها لضحايا حريق ميت غمر . [لو أعطيتنى هذا المال لأجل التعليم ؟] ويرد عليه الإمام [ما جُمع لشيء وحب صرفه فيه . إننا نفترض الحوادث لنعلم الناس البذل فى سبيل البر . فإذا تعودوا البذل فى بعضها هان عليهم البذل فى سائرهما] .

ولما فتحت الجمعية الخيرية مدرستها فى المحلة الكبرى سنة ١٩٠٤ خطب رئيس الجمعية فى حفلة افتتاحها ثم خطب الهلباوى فقال : (دخلت الجمعية منذ اثنى عشر عاماً عند تأسيسها ولم أخطب لأنها جمعية عمل لا قول . . .)

كان بين الأغراض الأساسية لإنشاء المدارس وإدارتها .

- ١ - العناية بالتربية الدينية ومقاومة مدارس التبشير التى نشرها المبشرون .
 - ٢ - العناية باللغة العربية وتصحيح عيوب التعليم الذى فرضه الإنجليز فى مدارس الحكومة .
- لذلك نقرأ فى التقارير السنوية المقدمة للجمعية ما فى الامتحانات والتعليم من قرآن وحديث وسيرة

(١) يقول هلباوى بك سنة ١٩٣٣ .

أعتقد أن مصرفى الستين عاماً الماضية أنجبت رجالاً آمن تفاخر بهم الأمم ولكنى مع ذلك مازلت أعتقد أن حسن عاصم ليس له نظير فى كل رجالنا هؤلاء .

وأدب - وانضافت للمرحلة الابتدائية سنة إعدادية . وكان على التلاميذ حفظ ثلاثة الأجزاء الأخيرة من القرآن وأكبر قدر من الحديث والسيرة والشعر والأدب العربي والأناشيد الوطنية . كما يؤدون الصلاة عند أذان الظهر . وكان التعليم بالمجان . كثرت فيه الحوافز الأدبية والجوائز المالية على حفظ دروس الدين واللغة^(١) .

وكان طبيعياً أن يكون حسن عاصم طول حياته مديراً للتعليم ، ثم يخلفه بعد موته عبد الخالق ثروت باشا ، فيظل في مركزه وهو في الوزارة . ومنذئذ ترقى للوظيفة أكفأ المدرسين المرحوم محمد خلاف (عضو لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، ثم خلفه آخرون . وفي الثلاثينات آلت المدارس إلى وزارة المعارف . وأقامت الجمعية مستشفاهما الشهير على ضفاف النيل وهو الآن أكبر المستشفيات غير الحكومية في أفريقية . يقدر بعشرات الملايين .

أما على فخرى فسيبق زميله إلى الموت بعام سنة ١٩٠٦ ويؤنبه الزعيم مصطفى كامل في صحيفة اللواء بما يعلن للملا أن الفقيد كان يخرج من العزلة الفاخرة للقضاة ليشد عضد الزعيم الشاب . قال عنه رحمهما الله : (إن الفقيد كان أخصاً لنا نسترشد برأيه ، ونعتمد على فكره ، ونعتر بوجوده ، ونفخر بعلمه وفضله ووطنيته وصحبته) وقال : (إن الفقيد كان مؤهلاً بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتداره لأن يكون من أكبر قادة الأمم وباعثي روح الحياة والنهوض فيها) .

أما الزعيم محمد فريد فأورد في مذكراته أن على فخرى وحسن عاصم كانا يجمعان التبرعات للشيخ على يوسف (صاحب المؤيد) حتى صار أبرز صحفي في مصر .

ويعتبر المؤرخ عبد الرحمن الرافعي - وكان من رؤساء الحزب الوطني - أن أصدقاء مصطفى كامل الأقربين هم محمد فريد ولطيف سليم وعلى فخرى .
والثلاثة أصدقاء محمد عبده وأعضاء في الجمعية الخيرية الإسلامية .

* * *

وأما قاسم أمين فاسمه أكثر جريانا على الألسنة لدعوته الاجتماعية ، وقد اشتغل بها مذ كان في بعثته بفرنسا . بدأ حياته في تعيينات القضاء في ٢٦ يولية سنة ١٨٩٢ مع سعد ، وارتبط الرجلان والأسرتان والعقليتان حتى نراهما يرفضان رفع مرتبهما من ٧٢٠ جنيهاً في السنة إلى ١٠٠٠ جنيه لأن القانون الذي قرر ذلك اشترط للانتفاع به أن يعلن المستشار موافقته عليه ، وكان فيه نص يرفضانه لما فيه من تحويل الحكومة - لا جمعية المستشارين - اختيار مستشاري محاكم الجنايات . فبقيا سنوات يقبضان ثلثي المرتب حتى أصدرت الوزارة قانوناً يغني عن تقديم طلب !

(١) كانت الحوافز تحوي معالي وطنية مثل إعطاء أسهم من الإصدار الأول لبنك مصر .

دخل قاسم عضوية الجمعية وهو صاحب « دعوة » وكان مصداق نجاحها إنشاء الجمعية مدارس لتعليم البنات وإجماع أعضائها على تحرير المرأة واقتناعهم بعدم تعدد الزوجات إلا للضرورة . قال هلباوى بك فى الكتاب الذهبى (ولقد كانت حاجة مصر فى ذلك العصر إلى تحرير المرأة وتعليمها مسألة المسائل . وعمل قاسم فى تحرير المرأة سيضعه فى التاريخ موضع « المعلم الأول » فإن إليه وحده فى هذه الأمة فضل هذه المحاولة التى توجت بعد عشرين سنة من جهاده بالنجاح التام الذى تشهده اليوم . .)

والهلباوى بك يقصد نجاح السيدة هدى شعراوى رئيسة جمعية « الاتحاد النسائى » الذى كان مستشاره كما كان مستشار الجمعية الخيرية منذ نشأتها حتى وفاته سنة ١٩٤٠ . وحسبك - فى شأن قاسم والجمعية الخيرية - موقف يسبق به أمته بنصف قرن فى إصلاح آخر . فى صدد الوقف (١) .

قال هلباوى بك (عرض رأى فى الجمعية الخيرية الإسلامية لوقف كل ماتملك على الوجوه الخاصة بأغراض الجمعية . ولما كان قاسم يرى أن الوقف كثيراً ما يعطل على أصحاب الشأن فيه التصرف بما يقضى به الحاجة والظروف التى لا يمكن الإحاطة بها عارض معارضة شديدة . وكانت الأغلبية ترى غير ذلك . فبقى قاسم يصر على رأيه قائلاً إن هذه المسألة من المسائل الأساسية التى لا يمكننى أن أخضع فيها لحكم الأغلبية . بل واجبى فى هذه الحالة يقضى على بالاستقالة من خدمتها . فراجع الجميع وسلموا برأيه . ولقد مات قاسم واتقينا خطر استقالته وبقيت الجمعية من سنة ١٩٠٨ ولم يفكر أحد من أعضائها إلى اليوم فى الخروج على رأيه) (٢) .

وإذ كان من حق الأجيال أن تحيط بواقعة هى فى حقيقتها ملحمة فقد رجعنا إلى محاضر الجلسات فبهتتنا دروس ضخمة ، فى هذا الموقف الواحد ، من سعد وقاسم وحسن عاصم ، فى مواجهة لطيف

(١) كان قاسم ضد نظام الوقف ، وهو موقف أخذت به مصر بعد ثورة سنة ١٩٥٢ . . . قضت دائرة قاسم أمين ومستر ويلمور رويوسف شوق فى محكمة الاستئناف بتاريخ ١٩٠٠/٢/٢٠ قضاء جريئاً فى القانون يجوز تملك الوقف بوضع اليد بناء على سبب صحيح بمضى خمس سنين ومن غير سبب صحيح بمضى خمسة عشر سنة وبتاريخ ١٩٠٠/٣/١٥ قضت دائرة سعد زغلول ودى هلس وهالتون ضد هذا الرأى .

فقد كان هؤلاء العظماء يختلفون فى الآراء وإن كانوا يتلاقون صباح مساء . وسرى الأستاذ الإمام بعد أن ولى وظيفة الإفتاء يعترض على حكمين بالإعدام لدائرتى قاسم وسعد . . .

(٢) يقول هلباوى بك [كان يفكر ونحن نكتب . كان يشير ونحن نعلن . كذلك كان شأن قاسم بين الشيخ عبده وسعد زغلول ولطيف سليم وعلوى باشا وإبراهيم بك ومصطفى وحسن عاصم وعلى فخرى . . . أما فيما يتعلق بحياته القضائية فقد كان قاسم (المثل الأعلى) لا يجب أن يكون عليه القاضى علماً ودراية وسمواً وجلالاً] .

سليم وعثمان ماهر ، وقد أجمع عليه الأعضاء في الجلسة ذاتها وترتب عليه اعتبار الرئيس والوكيل الأول منفصلين ١

انعقدت الجلسة برئاسة عثمان ماهر باشا وبحضور الوكيلين لطيف باشا سليم وحسن باشا عاصم وبقية الأعضاء في ٩ رجب سنة ١٣١٦ - ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٨ وفي المحضر مايلي :

(سعادة الرئيس :

إن موضوع المداولة في هذه الجلسة هو النظر في مسألة إيقاف أطيان الجمعية . . تلا كاتب السر تقرير اللجنة وهو يتضمن صلاحية إيقاف هذه الأطيان لتكون محفوظة من الطوارئ . .

حضرة سعد بك زغلول :

سأل عن القصد من كلمة « الطوارئ » فأجابه محمد راسم بك^(١) عن القصد منها .

حضرة قاسم بك أمين :

إني أرى أن إيقاف الأطيان يقيد الجمعية بقيود ليست من صالحها ويجعل الأطيان معرضة للطوارئ المستقبلية أكثر من بقائها ملكاً حراً للجمعية ، وإني أعرض على المجلس الأوجه التي تؤيد رأيي وشرع في إبداء هذه الأوجه .

سعادة لطيف باشا سليم :

إن القصد النظر في تقرير اللجنة ومعرفة رأي المجلس إن كان بالإيقاف من عدمه وحينئذ لا يرى موجباً للتوسع في المسألة .

حضرة سعد بك زغلول :

إن إعطاء الرأي لا يكون إلا بعد سماع أفكار الأعضاء والوقوف على جميع الأوجه الموصلة للتنوير في المسألة .

حضرة قاسم بك أمين :

أعترض على سعادة لطيف باشا في الحجر على إبداء الأفكار . وقال إنه لافائدة من استدعاء الأعضاء وانعقاد المجلس إذا كان ثم حجر . وما قصد كل منا إلا الصالح العام للجمعية .

(١) المستشار الذي سيتوفى الإمام في ضيافته في الإسكندرية ١٩٠٥ .

سعادة لطيف باشا :

إن القصد ليس الحجر بل الاختصار .

سعادة الرئيس :

إذن لحضرة قاسم بك في إبداء مآلديه من الأوجه في ذلك فأخذ في إبدائها ، وبعد أن شرح جملة أوجه قال سعادة الرئيس : إن القصد هو معرفة آراء المجلس في الموضوع الأصلي . فأجاب حضرة قاسم بك إنه لا داعي حيثثد لوجودنا إذا كنا نمنع من إبداء مآلدينا من الأقوال . فصرح له سعادة الرئيس بتميم أقواله . فامتنع . فانسحب سعادة الرئيس من الجلسة . ثم تبعه سعادة لطيف باشا . استمرت الجلسة برئاسة سعادة حسن باشا عاصم الوكيل الثاني وكلف حضرة قاسم بك بتميم أقواله فأتمها . ثم كتبها بصفة تقرير . وأرفق مع تقرير اللجنة . بعد سماع الأوجه التي أبدأها حضرة قاسم بك أخذت الآراء فتقرر بالإجماع صرف النظر عن الإيقاف . .

ثم رأى حضرات الأعضاء أن يتوجه وفد منهم لزيارة سعادة الرئيس وإزالة ما يكون في خاطره إذا كان ثم شيء) إمضاء حسن عاصم .

وتتابعت الجلسات برئاسة حسن عاصم حتى كانت جلسة ١٦ ذى الحجة سنة ١٣١٦ - ٢٦ أبريل سنة ١٨٩٩ - بقية الغورى - وفي البند الرابع جاء مايلي :

(رابعا - قال سعادة الوكيل إن حضرة راسم بك تكلم مع سعادة عثمان باشا ماهر حسبما قرره المجلس بالجلسة الماضية فلم يقبل . فقرر المجلس بأغلبية الآراء مع الأسف قبول استعفاء سعادته من رئاسة الجمعية وقبول استعفاء سعادة لطيف باشا سليم من وظيفة الوكيل - وتحرير كتاب أسف وشكر للأول . وإشعار بسيط للثاني . وعلى ذلك يعتبران منفصلين من عضوية المجلس)

فلا تتساءل بعد ذلك كيف تخرج في الجمعية الخيرية عظماء مصر في القرن العشرين . وقاسم - كما يقول هلباوى بك - هو الوحيد من طبقة الذى مشى في جنازة عبده الحامولى سنة ١٩٠١ باكورة المطربين في العصر الحديث .

ويضيف هلباوى بك (أما أثره في الجامعة فلم يكن أقل جلالا فقد قام بالدعوة إلى إنشاء هذه الجامعة . والجامعة ليست إلا أثراً من آثاره والمجهود الذى بذله في سبيلها ليس هنا مقام تفصيله) . وجملة ما لم يفصله هلباوى بك يتعلق بمجد آخر للإمام وصحبه في الجمعية إذ شرعت في إنشاء جامعة أهلية . وندب الإمام المنشاوى باشا ليقف عليها وفقاً فتقدم إلى مجلس

الوزراء لشراء عشرة آلاف فدان من أرض الحكومة ليقوم بوقفها . لكن المنية عاجلته ورئيس الجمعية سنة ١٩٠٥ . فتولى سعد أمانة لجنة إنشاء الجامعة حتى سنة ١٩٠٦ حينما عين وزيراً للمعارف . فلما تركها آلت أمانتها إلى قاسم حتى وفاته سنة ١٩٠٨ . وساعده الأمير (الملك) أحمد فؤاد فوقفت أخته الوقف الذى كان منتظراً فقامت الجامعة سنة ١٩٠٨ وأوفدت بعثتها الأولى سنة ١٩٠٨ وفيها محمود عزمى ومنصور فهمى وتوفيق الساوى وسيد كامل وسبعة آخرون وكانت رسالة منصور فهمى فى السوربون عن (المرأة فى الإسلام) وكان تعيين طه حسين شرطاً فى عقد أيلولة الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ للجامعة الحالية (جامعة القاهرة) .

أما الهلباوى فكان أشهر الجميع عند الجماهير حتى ملأ اسم سعد أسماعها فى الثورة سنة ١٩١٩ . فالهلباوى هو النقيب الأول للمحامين ومحامى الحريات والقضايا القومية ضد الإنجليز والخديو والملك فؤاد والدكتاتورية البرلمانية أو الحكومية . وهو أمير للبلاغة القضائية يخف الناس لسماع مرافعاته فى كل أنحاء البلاد أكثر من نصف قرن . والتاريخ لا يعرف محامياً مثله تفرد فى القمة جيلين كاملين . ففى سنة ١٩١٠ طلب إليه الوردانى - وهو خصمه السياسى - أن يترافع عنه فى مقتل ناظر النظار . وفى سنة ١٩٢٥ طلب إليه شفيق منصور أن يدافع عنه فى مقتل السردار . وشكر له سعد - وهما خصمان سياسيان - دفاعه عن الحكم الوطنى . وفى القضيتين كان رئيسا للجلستين إنجليزين : دليراوغلو وكركشو . فأسمعها اتهام مصر للإنجليز مدوياً بجرائمهم وإفسادهم فى البلاد .

وأما سعد فسيرد حديثه بعد ، مع أربعة من الجيل التالى من أعضاء الجمعية رأسوا الوزارة واحداً بعد آخر : حسين رشدى - عدلى يكن - عبد الخالق ثروت - محمد محمود^(١) .

وكان حسين رشدى أولهم ولاية للرياسة فاختار للوزارة عدلى وثروت . ثم صار قائم مقام الخديو بعد خلعه سنة ١٩١٤ حتى ولى العرش رئيس الجمعية السلطان حسين كامل - وهو أورع من ولى العرش من أسرة محمد على - فاجتمع رئيس الجمعية وثلاثة من أعضاء مجلس إدارتها على عرش مصر وحكومتها .

وحسين رشدى باشا (١٩٢٨) هو رئيس اللجنة التى وضعت لمصر دستوراً على أحدث المبادئ العصرية ، وكان وكيل اللجنة أحمد حشمت . وفيها الهلباوى وآخرون . من أعضاء الجمعية .
مدرسة الزعماء :

وفى عضوية الجمعية غير هؤلاء أسماء لم يجتمع فى التاريخ نظائر لها فى جمعية مصرية . هناك محمد فريد بك من سنة ١٨٩٥ والباشوات لطيف سليم وأحمد فتحى زغلول طليعة المؤلفين

(١) فى القاهرة شوارع خمسة كبيرة بأسمائهم .

فى القانون وأحمد حشمت وعلوى كبير أطباء الحكومة ، والمنشاوى (المحسن الكبير) ، ومحمود سليمان وابنه محمد محمود آخر رؤساء الوزارات من تلاميذ الإمام وإدريس راغب وصابر صبرى ، وحسن عبد الرازق ولطفى السيد ومحمد يوسف بك نقب المحامين وتلميذ سعد فى مكتبه وعالم العربية الكبير حفنى ناصف بك (والد ملك حفنى ناصف) «باحثة البادية» أولى المطالبات بحقوق المرأة .

وستقرأ فى مجلس الإدارة أسماء محمد طلعت حرب باشا يظل سكرتيراً عاماً فوكيلاً حتى يموت . والدكتور على إبراهيم باشا رئيساً للجنة المعونات وفى جوار اسمه (الجراح الشهير) وعلى شعراوى باشا ثالث الثلاثة الذين طلبوا استقلال مصر فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وآخرين سنسمع أنباءهم .

وحسبنا هنا لفت النظر إلى أمور . منها :

- ١ - أن الشيخ الرئيس وسعد زغلول وقاسم وحسن عاصم وعلى فخرى وإبراهيم الهلباوى أسماء ليس لأصحابها نظراء فى تاريخ مصر .
- ٢ - أن الزعامات الأخرى كانت تفتقدها مصر كل الافتقاد فحشمت وزير المعارف الذى نشر التعليم الابتدائى - كما يسمى الآن - فى ريف مصر وصعيدها فملأها بالنور وقد اختلف مع الانجليز من أجل الدفاع عن اللغة العربية مثلاً اختلف معهم سعد زغلول . ولطفى السيد باشا أب للفلسفة وأول مدير للجامعة ورئيس لمجمع اللغة وللجمعية الخيرية وأستاذ مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل ومحمود عزمى وطه حسين ومنصور فهمى . أما على إبراهيم باشا فأبو الجراحة الحديثة .
- والثلاثة الآخرون مديرون للجامعة المصرية . وطلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى^(١) . ومحمد فريد

(١) كان الأستاذ الإمام فى الفترة الأخيرة من حياته يلقي دروس تفسير القرآن فى الرواق العباسى كما سئى بعد . وكان من عمد تفسيره تفسير (الجلالين) وأولها (الجلال المحلى) نسبة للمحلة الكبرى وكان يعمل فى صناعة الحرير . واشتهر الجلال المحلى بصناعة الحرير من قديم أو اشتهاى المحلة بتلك هو الذى جعل الإمام بخطب الجمع المحتشد لسماحه من أهل المحلة عند افتتاح مدرسة الجمعية فيها فى سنة ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٥ م يعلن بصفته رئيساً للجمعية أن (لها الرجاء بهمة وجهاء المحلة وأهل الغيرة من أغنيائها فى تأسيس قسم صناعى فى هذه المدرسة فإن المحلة بلدة كانت معروفة بالصناعة . وقد وعد صاحب السعادة أحمد باشا المنشاوى بأنه مستعد لمساعدة الجمعية على إنشاء القسم الصناعى . . . وقد علمت أن أهل المحلة ثلاثون ألفاً أو يزيدون وليس فيها إلا مدرسة للقبط وأخرى للأمريكان وأننى قد رأيت فى بعض سياحتى فى البلاد الأجنبية مدينة عدد سكانها ١٦ ألف نسمة . وقد أنشأ الأهالى فيها مدرسة كلية (جامعة) تعلم فيها جميع العلوم العالية . . . فترجوا أن . . . ترتقى مدرستنا هذه ويكون فيها قسم صناعى . وأن يكون لنا فى القاهرة مدرسة كلية (جامعة) . . .

وسيستعين الإمام بالمنشاوى باشا ويلبى فى العام ذاته (١٠ شوال سنة ١٣٢٢) لإنشاء جامعة القاهرة . ثم يموت الرجلان فى نفس العام فيتابع سعد وقاسم وصية الإمام فى صدد الجامعة .

أما وصيته فى صدد الصناعة بالمحلة فينفذها طلعت حرب وينشئ فيها شركة المحلة للغزل والنسيج لتصبح كبرى الشركات لصناعة النسيج فى القارة الأفريقية وأم الشركات الصناعية فى مصر . وبها أصبحت المحلة إحدى عواصم الصناعة العالمية للنسيج .

رئيس الحزب الوطنى الذى ملأ مكان مصطفى كامل باقتدار بعد إنشاء الحزب الوطنى بشهر وبعض الشهر^(١) .

٣ - أن كلا من سعد وعدلى وثروت ومحمد محمود كان رئيس حكومة برلمانية له اختصاصات أكبر من اختصاصات الملك - فالملك يسود ولا يحكم - وأن كلا منهم فاوض إنجلترا باسم مصر . وأنهم فرادى ومجتمعين أحدثوا نهضة النصف الأول من هذا القرن . واستفتح سعد عصر المنجزات الإيجابية لبلاده سنة ١٩١٩ وجاء فى أثره عدلى سنة ١٩٢١ ثم ثروت فظفر لمصر بالاستقلال سنة ١٩٢٢ . وصير السلطان ملكاً . وقدم لمصر دستوراً أعلنه الملك راغماً سنة ١٩٢٣ . وسقاه العلقم سعد وعدلى وثروت ومحمد محمود دفاعاً عنه . حتى إذا ضعف خلفاؤهم عن صيانتها قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

٤ - إلى جوار رؤساء الحكومات الخمسة سترى رؤساء خمسة لأحزاب أربعة تعلموا العمل العام فى عضوية الجمعية : محمود سليمان باشا رئيس حزب الأمة سنة ١٩٠٧ ومحمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى سنة ١٩٠٨ . وسعد رئيس الوفد المصرى سنة ١٩١٩ . حيث محمود سليمان يمثل الوفد بالقاهرة رئيساً للجنة المركزية وابنه محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين سنة ١٩٢٥ وعدلى يكن الرئيس الأول للحزب سنة ١٩٢٢ - ١٩٢٤ .

وفى سنة ١٩٠٣ كان فى مجلس إدارة الجمعية : محمد عبده رئيساً وعدلى يكن وكيلاً وسعد زغلول ومحمد فريد أعضاء !

بل كانت جلسة ١٤ يونيه سنة ١٩٠٥ آخر جلسة رأسها الإمام . وفيها تخلف درويش بك سيد أحمد أمين سر الجمعية فتولى أعمال الأمانة محمد بك فريد . ومن قبل ذلك تخلف درويش بك عن جلسة ٨ أبريل سنة ١٩٠٠ فقام بأعماله وكيل الجمعية حسن باشا عاصم وهو رئيس الديوان الخديوى .

٥ - أن أموال الباشوات المنشاوى ومحمود سليمان وإدريس راغب وحسن عبد الرازق وعلى شعراوى قد حملت أعباء النشاط العام للجمعية إلى جوار الأوقاف فى الدلتا والصعيد والعواصم فى القاهرة والإسكندرية والأقاليم والتبرعات التى لا تتوقف .

٦ - أن المصريين عامة تلقوا على أيدى الشيخ الرئيس وتلاميذه دروساً فى العمل الجماعى المنجح - وكانت تجارب الشباب الذين شببتهم صروف الزمان وعلمتهم الحكمة ، بشرىات فجر طالع

(١) أسلفنا الكلام عن والده فريد باشا - استقال محمد فريد من وظيفة وكيل نيابة الاستئناف إذ نكلت به الحكومة عندما اتنى على حكم البراءة فى قضية صحفية ترفع فيها الهلباوى عن التهم بإفشاء أسرار الجيش المصرى فى السودان . وعمل بالحمامة سنة ١٨٩٧ ثم اعتزلها ليعمل فى الجهاد الوطنى مع مصطفى كامل . فباع ممتلكاته وكانت كبيرة وقضى حياته مريضاً شريداً فى أوربا يجاهد كرئيس للحزب الوطنى فهو يعتبر أكثر الزعماء فى التفضيحات المادية من أجل مصر .

برجال جدد ، سعوا إلى الجمعية الخيرية أو سعت هي إليهم مقدرة لهم ومقدرين لها ، فكانوا في الحالتين شهادات صدق لإدراك الرئيس وفراسته . وكأنما كشف الله له لوح المستقبل . فكل واحد من المؤسسين الأولين كان أمة في رجل . أما من جاءوا بعدهم فأقرب مواطنهم شياً بهم ، في تحمل تبعات المقاومة الصامتة للعدو . والتحلى بالنظر البعيد والفكر المبدع ، والخلق الذي يجمع على الإشادة به العدو والصديق .

٧- وفي زمالة الجمعية دروس في السلوك السيامي روى بعضها فريد بك :

(أ) في ١٩٠٨/١١/٣ تألب عليه عمال (اللواء) وكان الخديو ورائهم فسارع فريد إلى لطفى السيد مدير « الجريدة » فطبعت اللواء في مطبعة « الجريدة » وهي لسان حزب الأمة الذي يخاصمه الحزب الوطنى بعنف ملحوظ .

(ب) وفي سنة ١٩١٢ تقدم فريد بك مرشحاً لمجلس إدارة الجمعية لتجديد انتخابه ، وكان رئيس الجمعية الأمير حسين كامل يعارض انتخابه لخلافه الخطير مع الخديو . فأيد الهلباوى ولطفى السيد وحسن عبدالرازق (الصغير) انتخاب فريد ونجح بأغلبية كبيرة . . وقبل الأمير أن ينهزم رأيه أمام أعضاء الجمعية العظماء .

(ح) وعندما يشير فريد إلى هؤلاء بالتقدير يذكر أن حسن باشا كان محامياً في مكتبه . فهذا ابن للوكيل السابق لحزب الأمة يتلقى تمرينه في المحاماة في مكتب رئيس الحزب الوطنى . . والحزبان خصمان لدودان !

كانت « سيادة القانون » ضماناً من الغدر الذى تهب رياحه من قصر الخديو وأماناً أرخى حبله الإنجليز للأمة لتتحرك في إطار سياسة خارجية واقتصادية وداخلية وتعليمية تجرى مقاديرها بأيديهم . وكان حقاً للأمة على هذه النخبة البارعة من بنها أن يتحركوا ، أفراداً أو مثاليين أو جماعات ، في نطاق يضيق أو يتسع أو يعظم قدر ما يبدعون من طرائق حسنة في التعامل مع الإنجليز أو القصر ، أو من إنجازات عظيمة تبقى بها الجمعية الخيرية الإسلامية عظيمة .

مع ذلك لم يترك الوشاة الجمعية الخيرية دون وقعة بينها وبين الإنجليز . فدسوا عليها لدى اللورد كرومر أن أموالها تستعمل في شراء أسلحة للثائرين في السودان . وفتشت مكاتب الجمعية وأوراقها . وأسفرت الحقائق . وقابل الشيخ الرئيس اللورد كرومر . وانتهت الواقعة بتقديم معونة للجمعية . وهي لغة في الاعتذار .

إليك بعض وقائع من عملها العادى إلى جوار أجهزة التعليم المنبثة فى القاهرة والأقاليم :

١ - احترقت مدينة ميت غمر سنة ١٩٠٢ فوجه الشيخ الرئيس نداء إلى مصر كلها وكتب فى صحيفة المؤيد مقالا جاء فيه (فإذا لهب الحريق يأكل قلبى أكله لحوم أولئك المساكين سكان ميت غمر - ويصهر من فؤادى ما يصهره من لحومهم . . أرقت تلك الليلة ولم تغمض عينى إلا قليلا وكيف ينام من يتقلب فى نعيم الله وله هذا العدد الجم من إخوة وأخوات يتقلبون فى الشدة والبأساء) .

وصدق الشيخ الرئيس ، فلم يطق البقاء بداره أو بمقره أو بالقاهرة كلها ، بل راح بطوف البلاد مع صحبه ثلاثين يوماً يجمع التبرعات وهو فى الواقع يجمع أعيان البلاد على رأى عام .

وطالب حافظ إبراهيم بنصيبه ، فهزته القارعة ، وأسعده النطق ، فأنشد فيها روائعه (١) .

واستجابت مصر كلها لنداء الإمام بل واستجاب المنشاوى باشا فى سجنه (٢) لشعر حافظ :

أيهذا السجين لا يمنع السجن كريماً من أن يقيل العشارا
مر بألف وإن شئت زدها وأجرهم كما أجرت النصارى

(١) يقول حافظ :

سائلوا الليل عنهم والنهار كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيغهم فقد الأم وكيف اصطلى مع القوم ناراً
ويقارن بينهم وبين عرس الأمير حيدر فاضل سنة ١٩٠٢ .

قد شهدنا بالأمس فى مصر عرساً ملأ العين والفؤاد انبهارا
سال فيه النصار حتى حسبنا أن ذاك الفناء يجرى نضارا
يكتسون السرور طوراً وطوراً فى يد الكأس يخلعون الوقارا

(٢) كان أحمد المنشاوى باشا فى السجن لقضية نورد تلخيصها نقلاً عن مذكرات الهلباوى التى نقلنا عنها فى كتاب (المحامون وسيادة القانون) لذى الهلباوى وحسن عاصم والمنشاوى والخديو فى قضية .

(كان من الأغراض الحقية للقضية الأخيرة وضع حد لتدخل الخديو شخصياً فى إدارة الحكم فاتهم . . مأمور مركز طنطا بأنه حمل بعض المتهمين بسرقة مواشى للخاصة الخديوية إلى بلدة المنشاوى باشا حيث جلدوا فقدم المنشاوى والمأمور محبوسين لمحكمة الجنايات . وعهد إلى الحسينى بالدفاع عن الباشا وإلى الهلباوى بالدفاع عن المأمور وأشفق حسن باشا عاصم سر تشريفاتى الخديو على صديقه من تلك القصة الضيزى إذ يتولى الدفاع فى هذه القضية وفى قضية التلغرافات التى استقال بسببها الزعيم محمد فريد من وظيفته (وكيل النيابة) وفى قضية الخازندار عن أسوأ المتهمين مصيراً . لكنه كعادته كان بطل المرافعة إذ أثبت كما قال : أن « المأمور كان عبد المأمور » وهنأه فى الجلسة رئيس النيابة أحمد طلعت بك الذى صار وزيراً فرئيساً لمحكمة الاستئناف .

ولما برئ موكله لم تصله كلمة شكر ولا قيمة الأتعاب فذهب إلى الإسكندرية ليقابل الخديو بعد صلاة الجمعة فلم يقابله ، كعادته ، وضرب له موعداً بعد الظهر فى القطار بمحطة سيدى جابر فتأخر عن الميعاد خمس دقائق حتى إذا أقبل لاهمه الخديو لتأخره فأجابه « لكننا انتظرنا سموكم ثلاث ساعات فى الظهر » فتبسم الخديو وراح يلومه على مرافقته إذ حمل على الخاصة الخديوية . فرد الباشوات الحاضرون بأنهم سمعوا وقرأوا فى الصحف أن مرافقته لم تكن شرفاً له فحسب بل كانت تشريفاً للمحاماة وقدورت أتعابه بثلاثمائة جنيه أرسلت إليه . لم يفقد الهلباوى استقلاله حتى مع مولاه لأنه لم يكن يمثل الولاء ولا الوظيفة وإنما كان يمثل المحاماة مهنة النضال والاستقلال . .) .

(يقصد إجارته للأجانب أيام الثورة العراقية) .

٢ - من قبل ذلك أجلى الإنجليز جيش مصر عن السودان وأفريقيا . بهزائم افتعلوها ليحتلوها بعد أن احتلوا مصر ، وخسرت مصر ثمانين ألفاً من الجنود وتعاضمت خسائر الميزانية واختفى الذين يغيثون أسر الشهداء فرقين من بطش الإنجليز . فندب الشيخ لذلك نفسه وأهاب بالناس فلبوا . وكان بعيد النظر إذا ألف لجنة جمع التبرعات من زملاء في القضاء ومن كبار الأغنياء^(١) للجهات الرسمية فيهم أمانة ، وللمتبرعين طمأنينة ، وشجع نجاح اللجنة في عملها قيام جهات أخرى لتساعد المنكوبين ..

هذان المثالان من المواقف العامة ينبئان عن مسلك الجمعية في المواقف الخاصة . فهي تمد يدها للأفراد عموماً والأسر خصوصاً لتفريق مال الله فيمن يستحقونه مع توسيع أسباب الإنفاق أو الاستحقاق ، بمد يد العون لكل ذي حاجة شخصية ، أو كارثة عائلية ، كالمرض ، أو نفقات التعليم ، أو العجز عن التعليم العالي .

وافتت في جمع المال فلها مهرجانات سنوية تشارك فيها الأمة ، وصلات من الأغنياء والأمراء ، والناس كافة . وعليها واجبات في الأعياد والمناسبات . لاتستحي من العطاء القليل لأن الحرمان أقل منه . ولا تتردد في السخاء الوفير على الأمة لأنه لا إسراف في الخير .

وفي ليلة من ليالى رمضان جلس الأعضاء يقررون منح عيد الفطر أسرة أسرة : وأدركوا في آخر الليل أنهم يتصاعدون بالعطاء دون شعور . فزين لهم عملهم درويش بك سيد أحمد قال (لاتحسبوا فالله يرزق من يشاء بغير حساب) .

إصلاح الأزهر

ولى الخديوى عباس حلمى العرش في ١٨٩٢/١/٨ بموت أبيه . وكان فيه فوران فتي في الثامنة عشرة . لم يثقب الفزع من الثوار قلبه . وكانت لجيوش الاحتلال سماعاتها ونظاراتها في قصره . . حتى ليجرى بعض مقابلاته في المسجد المقام بجوار قصر القبة .

ولقد حاول بعد أيام من ولايته إثبات وجوده فأقال وزارة تسبح في بحر الخضوع للإنجليز وعين أخرى برياسة حسين فخري . فأبى كرومر إلا أن يعود مصطفى فهمى من فوره ! . وأوشكت الأزمة تطيح بالخديو لولا أن ألف رياض وزارة بعد أيام في ١٨٩٢/١/١٩ ليحل محله نوبار بعد عامين فيبقى

(١) كان السيوفى باشا رئيس الجمعية لكن محمد عبده كان رئيس اللجنة وفتحى زغلول سكرتيرها أما أمين الصندوق فالسيوفى

عاماً يعود بعده مصطفى فهمى نفسه ليجم على صدر مصر ثلاثة عشر عاماً نجسات ، رئيساً لأطول
الوزارات عمراً فى تاريخ مصر .

وفى أوائل سنة ١٨٩٤ كان الخديو عند حدود مصر الجنوبية فاستعرض الجيش وأبدى بعض
الملاحظات فاستقال القائد الإنجليزي كتشنر إلا أن يعتذر الخديو علناً فاعتذر بل وجه الشناء لقواد الفرق الإنجليز .
وكان طبيعياً عندئذ أن يمد الخديو بالأسباب إلى مواقع الأمل فى بلاده . وأن يستطيع محمد ماهر
باشا وكيل وزارة الحرية الذى كان يصحب الخديو يوم حادث الحدود أن يجعل محمد عبده فى أواخر
سنة ١٨٩٤ وجهاً مألوفاً للخديو . وسرى مصطفى كامل يبدأ علاقته بالخديو سنة ١٨٩٨ وهما فى
الرابعة والعشرين من العمر .

يقول أحمد شفيق باشا - وكان من عمال الخديو (ترجع حركة الإصلاح الحديثة فى الأزهر إلى
أواخر سنة ١٨٩٤ لما رأى (محمد عبده) من عباس جرأته وجهاده للأخذ بناصرية الحكم والحد من
تدخل الإنجليز ، مال إليه وتقرب منه بواسطة محمد ماهر باشا فاستقبله عباس بترحاب وعطف ومال
إليه أيضاً لما أنسه فيه من صدق الوطنية وأصالة الرأى ، وتقابلا مراراً بصفة غير رسمية فى عابدين
والقبة والمنتزه (قصور الخديو فى القاهرة والإسكندرية) فيما يمكن عمله من خدمة الوطن وتحقيق
أمانه . فاقترح الشيخ عليه أن هناك ثلاث نواح لا تزال بعيدة عن تدخل الإنجليز ولا يعارضون فى
العمل لإصلاحها لأنها دينية محضة وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وأشار على سموه أن
يبدأ بإصلاح الأزهر واتفقا على أن يقدم الشيخ إلى سموه مذكراته عن وجوه الإصلاح) .

وفى غضون أشهر صدر ذكريتو بإنشاء «مجلس إدارة الأزهر» فى ١٥ مارس سنة ١٨٩٥ بعد تقرير
قصمه الشيخ كمر فيه طريقته أيام اقترح على رياض باشا إنشاء (مجلس) للمعارف حتى لا يمس
شخص وزيرها . وفى ٧ رجب ١٣١٢ اختير «مجلس الإدارة» منه ومن الشيوخ عبد الكريم سلمان
زميله فى الوقائع ، وسليم البشرى (مالكى) وحسن المرصنى (شافعى) ويوسف النابلسى (حنبل) ثم
استقال شيخ الأزهر وتولى المشيخة الشيخ حسونة النواوى .

وانطلقت عجلة الإصلاح فى الأزهر يديرها مستشار عامل فى محكة الاستئناف حريص على
إصلاحه بأيدى رجاله العاملين فيه .

كان الشيخ منشئاً للنظم ، مدركاً للأولويات . فاستصدر قانوناً بالإصلاح سنة ١٨٩٦ جعل
للأزهر أطباء وصيدلية ، وألزم مصلحة الصحة برعاية الظروف الصحية فيه وفى مساكن التلاميذ .
ولجئهم القانون للشيوخ فزادت مرتباتهم وثبتت ، بعد إذ كانت تزيد وتنقص أولاتهم أبداً

. حسب ما يتحصل من ريع الأوقاف . ووضع « نظام » لاستحقاق الدرجات وكسوة التشريفات . وأصبح التلاميذ يحضرون الدروس بعد إذ كانوا لا يحضرون . . ويدخلون الامتحان بعد إذ لم يكونوا يدخلون ، أو يدخلون حين يشاءون ! بل كان منهم من يقيد اسمه ليصيب نصيباً في كشف الجراية ولا يواصل التعليم .

والتفت الشيخ إلى المستشار المالى للحكومة - وهو الإنجليزى المنقبض اليد على الأزهر - ليعالنه بأن الأزهر مدرسة كمدارس الحكومة ، عليها أن تنفق عليه ، ومسجد كالمساجد ، هو أولى بأموال الخيرات من سائرهما . ووعاظه أنفع للأمة ، ومعلموه يخرجون المعلمين والقضاة الشرعيين . وهو يعد مدرسة الشريعة . فحقوقه في ميزانية الدولة لاتقبل الجدل .

وانتقل الإصلاح إلى العلوم ودروس الحساب والجبر والمقابلة والتاريخ والجغرافيا فعرفت الكتب النافعة طريقها إلى عقول الناشئة وارتفع مستوى الدروس . . وأصبح مجلس الإدارة يتعقد بنظام في الرواق العباسى بالأزهر ليقر اقتراحات الشيخ المستشار .

وفى سنة ١٨٩٩ عين الشيخ مفتياً للديار فصار قطعة من نفس الأزهر ، وعلا - وه - الأزهر البهاء ، يوم راح يلقى فيه أعظم دروسه وبين يديه التلاميذ والعلماء والرجال العظماء . وبورك للأزهر وللمجلس الإدارة فكان الشيخان حسونة النواوى وسليم البشرى من أعظم شيوخه لما وليا المشيخة .

وبورك للتلاميذ فأصبح متوسط عدد المتقدمين للامتحان سنوياً ٩٣ بعد أن كان من ٣ إلى ستة . وأصبح الناجحون ثلث المتقدمين .

وكانت عين الشيخ على الطلاب - دائماً - فهم الهدف الأعلى من كل ذلك فتقررت الحوافز للمجدين ، وقواعد للتدريس والامتحان والإجازات .

وألحق المعهد الأحمدي ومعهدا دمياط ودسوق بالأزهر وفى سنة ١٩٠٣ ألحق معهد الإسكندرية .

وكان من آثار القانون الجديد قصر غلة الأوقاف المخصصة للتدريس على المدرسين بعد أن كان أبناء الموتى منهم يحلون محلهم دون نظر لمصلحة المدرسين الحقيقيين المستحقين . فأمسى معاش الأبناء مسئولية على الشيخ يؤديها من ماله الخاص ومال أصحابه مع أن من آباءهم من كانوا خصوماً له . وجاء الشيخ بكتب جديدة لتدريسها فى الأزهر وفى طليعتها دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني (٤٧١) ، وعرفت العقول الشابة كتب (الوسيلة الأدبية) و(الكلم الثمان) للشيخ حسين المرصنى والكامل للمبرد والحامسة لأبى تمام ، وتحطم حاجز الخوف من أى جديد فيه منفعة .

ودرست رسالة التوحيد لمحمد عبده في الأزهر.

وظل الشيخ يبحث للأزهر عن الكتب ويحققها ويوصي بها . خذ مثلاً لذلك قوله عن عرض كتاب البصائر النصيرية في المنطق على أعضاء مجلس الإدارة لتدريسه أنهم (رأوا أنه من أفضل ما يهدى إلى الجامع الأزهر الشريف ليكون من الكتب التي تدرس فيه . . فاستخرت الله تعالى في وضع بعض التعاليق على مآرائته محتاجاً إلى ذلك) .

وقوى ساعد جمعية إحياء التراث العربى - والشيخ رئيسها - فكان للشيخ الشنقيطى أن يظهر المخطوطات ذوات الشأن .^(١)

ونظمت مكتبة الأزهر . ولم يبق شيء لم يعطه الشيخ للأزهر إلا نفسه ، ولسوف يعطيها . وفى هذه الأثناء طلب إليه الخديو أن يكتب عن الحوادث العرابية وأسبابها . فكتب شهادة عيان بفساد حكم إسماعيل وتوفيق وقيام الثورة العرابية وأسباب هزائمها .

إصلاح القضاء الشرعى

في ٣ يولية سنة ١٨٩٩ عين الشيخ المستشار مفتياً للديار المصرية فألهمته السماء أن يضيف إلى مسئولية الإفتاء مسئولية إصلاح القضاء الشرعى وقوانينه - وكان قد أفضى بذلك للخديو من خمس سنين - فقصد إلى وزير الحقانية ، واتفقا على أن يقوم بتفتيش المحاكم الشرعية في إبان إجازة الصيف . فصنع . . . وقدم تقريره الأشهر في ٥ نوفمبر من العام ذاته .

وهذا التقرير - بموضوعه - أدخل في باب القضاء في حياة مستشار يذيل به سنواته الإحدى عشرة (يولية ١٨٨٨ - يولية ١٨٩٩) في القضاء المدنى ، الذى يرعاه الجميع ، ولا يرعى القضاء الشرعى سواه ، وقد لاحت له الفرصة . وهو أكبر أهل عصره إدراكاً بمكانة الشريعة التى صنعت أمة الإسلام ، وأعلى عيناً بذلك ، بعد العمل الطويل الجليل في تطبيق الشرائع الأجنبية . وفى جواره جماعة من رجال القانون العالمين يتصدرهم سعد ، مجمعون على إصلاح الأمة . والشريعة تقيم الأمة على أساس الأسرة ، لا الفرد . وبهذا ينماز المجتمع الإسلامى بالتماسك من مجتمعات أوربا التى عراها التفكك وتتجه أنفوس المسلمين فى إصلاح حالهم صوب قوانين الأسرة . وهى الغذاء اليومى للعمل القضائى فى المحاكم الشرعية .

قال الإمام فى التقرير (فرأيت من الواجب على أن أكون على بصيرة من الأمر العظيم الذى سادعى إلى البحث فيه . . ورأت نظارة الحقانية مآريت فسألتنى^(١) أن أمر على المحاكم مدة الصيف

(١) يتم هذا التعبير عن أنه يسمو بوظيفة المفتى عن أن تلقى تكليفاً . بل الوزارة تسأله وترجوه .

الماضي وأنظر في أعمالها وأقدم لها نتيجة ما تيسر لي من البحث في أحوالها . . . فظفت على كثير من محاكم الوحد البحري) .

وتابعت أبواب ثلاثون للتقرير في ثلاثة وثمانين صفحة كبيرة جدية بأعلى درجات التقدير العلمي في الشريعة والقضاء ، حيث تضع محمد عبده بين أعظم قضاة الإسلام بجدارة ، ثم تجعله - وحده - يجعل هيئات بتمامها من العلماء والقضاة والمشرعين يواجه المسلمون بها حاجات عصرهم . وليس عجيباً - أن يكون هذا العمل الضخم في حياة الأمة عملاً عادياً في حياة رجل . وأن ينجزه في أربعة أشهر . . فهذا الرجل إمام .

بادرت الحكومة فطلبت إليه إعداد قانون بالإصلاح من واقع التقرير فصنع . وقدم قانوناً من أحد عشر مادة أعلن تأييدها شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري بخطاب مؤرخ ٦ ربيع الأول سنة ١٣١٩ (١٩٠١) . وأدخلت الحكومة فحوى هذه المواد جميعها في إصلاحاتها المتوالية للمحاكم الشرعية وقانوني ٢٥ سنة ١٩٢٠ ، ٢٥ سنة ١٩٢٩ - إليك مثالين من مادتين من مواد المشروع :

المادة العاشرة : إذا اشتد النزاع بين الزوجين ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها من كتاب الله تعالى رفع الأمر إلى قاضي المركز . . وعليه عند ذلك أن يعين حكيم عدلين أحدهما من أقارب الزوج والثاني من أقارب الزوجة ، والأفضل أن يكونا جارين . فإن تعذر العدول من الأقارب فإنه يعينهما من الأجانب وأن يبعث بهما إلى الزوجين ، فإن أصلحهما فيها ، وإلا حكما بالطلاق ورفع الأمر إليه . وعليه أن يقضى بما حكما به ويقع التطلاق في هذه الحالة طلاق واحدة بائنة ولا يجوز للحكمين الزيادة عليها .

المادة الحادية عشرة : للزوجة أن تطلب من القاضي التطلاق على الزوج إذا كان يصلها منه ضرر والضرر هو ما لا يجوز شرعاً كالهجر بغير سبب شرعي والضرب والسب بدون سبب شرعي وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية .

* * *

أعلن الشيخ في التقرير أنه يقدم بحثاً (في العلل التي عم الكلام فيها وما يجب أن يوضع لها من الدواء مع الحرص على قواعد الشرع وأصوله ومراعاة مصالح العامة والآخذين بأحكام الشريعة المطهرة في عقائدهم ومعاملاتهم وإزالة ما عمت منه شكواهم مما ينسب إلى عمال المحكمة أو العوائد المتبعة في سير أعمالها) .

وبين مدى الإصلاح فقال : (تدخل المحكمة الشرعية بين الرجل وزوجه والوالد وولده والأخ وأخيه والوصي ومحجوره . وما من حق من حقوق القرابة القريبة والبعيدة إلا ولها سلطان السيطرة عليه

والقضاء فيه وإنها تنظر من ذلك في أدق الشئون وأخفاها ويسمع قاضيا ما لا يسمح لأحد سواه أن - يسمعه سوى ما يكون من الزوج لزوجته أو الزوجة لزوجها .
وللشريعة الإسلامية في ذلك دقائق لايسهل الالتفات إليها إلا على من أحاط علما بكليات أحكامها . .

ولما تعلق مصالحي البيوت في أدق روابطها بالمحاكم الشرعية كما هو الواقع اليوم تبين مقدار حاجة الأمة في صلاح هذه المحاكم وظهر أن منزلتها من بناء الحكومة المصرية منزلة الركن الذي لو ضعف ظهر أثر ضعفه في البنية بتمامها)

يبدأ الإمام التقرير بدور القضاء . فيتحدث عن واقع الحال :
(إذا ذهبت إلى ديوان مديرية وأردت أن تعرف محل المحكمة الشرعية في ذلك الديوان فابحث عن أردأ مكان فيه تجده هو مكان المحكمة الشرعية) .
وفي « باب القضاة » لايفوته أن يوصي بإطلاق الاختيار وهو الحنفى المذهب .
(وإنى أحب أن أصرح بأمر ربما يغضب له بعض أهل الأثرة من أهل العلم الحنفية وهو أننا مسلمون .

وليس الزمن زمن تعصب للمذهب دون مذهب . . ومن درس فقه الشافعية أو المالكية لا يعسر عليه فقه أبى حنيفة . فإن الأصول متقاربة والاختلاف في الفروع مذكور في كتب الفريقين . وحصر التعيين في الحنفية يضيق دائرة الانتخاب ويلجئ إلى تعيين الضعفاء في العلم والعزيمة . فلم لا يطلق الانتخاب من هذا القيد^(١))

ويقول في الشهادة والأدلة (يوجد في بعض كتب الفقه أمور عدت مسقطات للشهادة كحلق اللحية والعمل في بعض الوظائف لمعونة الحكام ونحو ذلك . وقد علل ذلك الفقهاء بأن حلق اللحية مسقط للمروءة ومعاونة الظلمة فسق . وحكم أحد المفتين برد شهادة رجلين لحلق لحيتهما ، ولم يراع في ذلك أن الأمر الأول قد ذهب زمنه لأن المدير ووكيل المديرية ومأمور المركز وهم معدودون من أهل الصلاح والمروءة جميعهم في تلك المديرية يحلقون اللحية . ولا أرتفع إلى أعلى من ذلك . وأما الثاني فقد صرحت أمهات الكتب بقبول شهادة الفاسق . وبعضهم قيده بذوى المروءة وبعضهم أطلق . وبنوا على هذا جواز تولية القاضي الفاسق خصوصاً من كان فسقه بعمل لايتعلق بالشهادة كالشرب

(١) علقت صحيفة المؤيد أشهر الصحف في ذلك العصر - وصاحبها الشيخ على يوسف (باشا) - بأن الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان أحد قضاة المحكمة الشرعية العليا من أمهر القضاة وهو شافعى المذهب .

والقذف ونحوهما . فلو أخذنا بما ألفه المقصرون في فهم الشريعة حصرنا قبول الشهادة فيما يصدر من رعاع الناس ومجهولى الحال الذين لاتعرف أهليتهم للثقة بمقالمهم . وكثير من طويلى اللحن الظاهرين بلباس الصلاح إنما يقتاتون بالكذب . وكثير من غيرهم يتزهون أن يكذبوا مرة في حياتهم . . أما بقية الأدلة فلا يزال القضاة يتخبطون في أحكام الإقرار وقبول الشهادة عليه . والأدلة الخطية مهمة بالمرّة لا يعدها القضاة إلا مؤيدة بالشهادات . .

وعار على قوم يأخذون الأحكام من الكتب ويجلسون للحكم بدلائل الخط لاسواها أن يأبوا اعتبار الخط دليلاً متى . . لم توجد شبهة التزوير) . . .

اقترح لجنة لاستخراج قانون للمعاملات من الشريعة

يقول التقرير : (ماعليه العمل من أقوال العلماء في الأحكام الشرعية مذكور في الكتب مخلوطاً بالخلاف والبحث وطرق الترجيح . ومن رفعت إليه واقعة شرعية قد يصعب عليه الحكم فيها إلا بعد مراجعته بعض المؤلفات الطويلة وربما احتاج إلى مراجعة عدة منها في أبواب مختلفة . وكثير من القضاة لاطاقة لهم باستخراج الأحكام من هذه المطولات . وفي الحق إن ذلك غير ميسور إلا للقليل ممن يصح توليته القضاء اللهم إلا بعد إصلاح طريقة تعليم الفقه في الجامع الأزهر وإعادة إلى ما كان عليه السلف . وذلك أمر بعيد المنال الآن .

نعم يجب أن يكون مقتدرأ على البحث والمراجعة في المشكلات . أما في كل حكم فذلك من العسر بمكان . وقد كثر الخطأ في أحكام الأوقاف والطلاق والمهور والوصايا وغير ذلك لهذا السبب . ثم إنه توجد شئون للمسلمين تقضى الضرورة بالنظر فيها وبيان الأحكام التي ترفع الضرر وتقرر العدل ولا تخالف الشرع . بل هي من قوامه كأحكام الغائب والمفقود الذي ترك مالا وهل يمكن إقامة وصى يخاصم له ويحفظ ماله ويدفع الخصوم عنه وتنفيذ الأحكام عليه بالنيابة عنه ، وهي من المسائل الخلافية في المذاهب . والوقائع فيها كثيرة ورجال المحاكم فيها مضطربون . وكالزوجة يتركها زوجها بلا منفق أو يغيب عنها الغيبة الطويلة وتنقطع أخباره . أو يكون معروف المقر ولا يمكن الوصول إليه لو حكم عليه بالنفقة . أو كان من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة أو السجن لمدة طويلة وتخشى على نفسها الفتنة أولاً تجد ماتنقى منه ولا من تستدين منه على حساب الزوج . ومثلها التي يكون زوجها حاضراً ولكنه لاينفق عليها وهي مضطرة لما تنفق منه ، وكذلك التي يضارها زوجها في العشرة . فجميع ذلك مما عمت به البلوى وكثرت فيه الشكوى من جميع أنحاء البلاد ، وكثير من النساء يبحن

أنفسهن افتتاناً أو اضطراراً للقوت لأنهن لم يجدن السبيل إلى دفع الضرورة أو المخلص من الفتنة في المحاكم الشرعية على حالتها التي هي عليها الآن .

أليس من الواجب أن نفرع إلى الشريعة الإسلامية المطهرة لنجد فيها الوسيلة إلى وقاية الأعراض والأنفس مع أن المحافظة عليها من أهم مقاصد الدين الإسلامى والشريعة السمحة ولا تعدم في نصوصها وسيلة إلى أهم ما جاءت له . .

كل ذلك يجب أن يوضع بين يدي (لجنة من العلماء) ليستخرجوا من الأحكام الشرعية ما فيه شفاء لعل الأمة في جميع أبواب المعاملات خصوصاً ما لا يمكن النظر فيه لغير المحاكم الشرعية ، من الأحوال الشخصية والأوقاف ، ويكون ما يستخرجونه كتاباً شاملاً لكل ما تمس إليه الحاجة في تلك الأبواب ويضم إلى ما يستخلص في أبواب المرافعات الشرعية ويصدر الأمر بأن يكون عمل القضاة عليه . فإذا غمض عليهم أمر راجعوا فيه من يكون في وظيفة إفتاء الحقانية أو الديار المصرية - وعليه أن ينظر بنفسه أو مع لجنة العلماء حسب الحاجة) .

* * *

والشيخ بهذا يصحح الفساد الذى عجز نابليون عن إلحاقه بالأمة ، وقدر عليه الإنجليز . لقد احتل القاهرة في ٢٢ يوليو سنة ١٧٩٨ وألف ديوانها في ٢٥ يوليو وكان أول المواضيع التي عرضها على الديوان أربعة . منها اثنان عن نظام القضاء والشريعة . ورقض الديوان في أول جلسة (١١/١٠/١٧٩٨) إحداث أى تغيير ، وفي سنة ١٨٧٥ أحدث نوبار التغيير المطلوب في الأمرين . فجاء بقانون نابليون ومحاكم مختلطة أغلبية أعضائها أوريين ، وفي سنة ١٨٨٣ فرض الإنجليز - بعد عام من احتلال البلاد - قانون نابليون على المحاكم الوطنية ! !

والشيخ يعيد للأذهان وجوب تنفيذ قرار الوزارة الدستورية التي رأسها شريف باشا سنة ١٨٨١ بوضع قانون للمعاملات من الشريعة أحيل وضعه على قدرى باشا (١٨٨٦) ^(١) فوضع كتاب مرشد الحيران ، واختفى الكتاب بعد الاحتلال البريطانى فأمر على مبارك بطبعه فطبع ووزع على التلاميذ لينقله إلى الأجيال المقبلة شباب غلب آباؤهم على شريعتهم !

* * *

وفي سنة ١٩١٥ تألقت لجنة يرأسها وزير العدل لتنفيذ التقرير فيما يتعلق بالمحاكم الشرعية ، وفي سنة ١٩٢٠ صدر القانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠ وفيه بعض الأحكام من مذهب مالك وفي سنة ١٩٢٦م

(١) ناظر الحقانية عندئذ وأحد خريجي مدرسة الألسن . وقد صارت مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٦ . قيل ترجم خريجوها ألف كتاب إلى العربية .

تألفت لجنة اقترحت إصلاحات منها تقييد الزواج بأكثر من واحدة فلم يقبل اقتراحها وإنما صدر القانون ٢٥ لسنة ١٩٢٩ على هدى مقترحات الشيخ للأخذ من أكثر من مذهب . وكان تقريره الطلاق للضرر فتحاً مبيناً على المسلمين^(١) .

وفي سنة ١٩٤٧ طالبت لجنة من محكمة النقض ومن الأزهر تقنين قانون مدنى من الشريعة . وفي سنة ١٩٦٦ تألفت لجنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية لتجلية مبادئ الشريعة لتكون مصدراً للتقنين وأعدت اللجنة مشروع قانون للمعاملات من الشريعة . وفي سنة ١٩٧١ صدر الدستور وفي مادته الثانية (الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية والشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع)

وفي سنة ١٩٧٥ تألفت لجنة من رجال القضاء والأزهر والجامعات لمراجعة القوانين وفقاً للمنهج الإسلامى .

وفي يناير سنة ١٩٧٨ صدر قرار من وزراء العدل العرب فى مؤتمر الرباط بوجوب جعل الشريعة الإسلامية مصدراً رئيسياً أو وحيداً للتشريع . وفى آخر العام ألف مجلس الشعب المصرى لجاناً للغرض ذاته .

* * *

ومن حق تقرير إصلاح المحاكم الشرعية أن يشاد بمواجهة الإمام فيه مخاطر تعدد الزوجات فمن ذلك قوله (إني أرفع صوتى بالشكوى مما يجمع الفقراء من الزوجات فى عصمة واحدة فإن الكثير منهم عنده أربع من الزوجات أو ثلاثة أو اثنتان وهو لا يستطيع الإنفاق عليهن . . فأرى لصالحها أن يلزم كل مآذون أن يسأل قبل عقد زواج أى رجل غير معروف بالثروة هل له زوجة أخرى ، فإن كان له فما هى الطريقة فى الإنفاق على زوجاته وأولاده ويثبت جميع ذلك فى ورقة العقد ، ثم يجب أن يحدد حد معين للثروة لمن يتزوج بأكثر من واحدة . . ذلك أدعى إلى تضيق دائرة الضرر . ولاشئ من أصول الشريعة يأتى ذلك . بل هو من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا أحتق به من القادر عليه والحاكم هو أقدر الناس . ومن المعلوم فى أحكام الشريعة أنه متى تحقق أن الزوج لا يستطيع الإنفاق على زوجته وأن الزواج يفسد أمر معيشتة ويلجئه للخروج عن الحدود التى حدها الله له حرم عليه الزواج بلا خلاف . .)^(٢) .

(١) يراجع مراحل فرض القانون الفرنسى الأصل على مصر فى مؤلفنا (نحو تقنين مدنى للمعاملات من الشريعة الإسلامية طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٤ .

(٢) تراجع مقتطفات من مقاله فى العدد ص ١١٨ إلى ص ١٢١ .

ولما عرض إصلاح القضاء الشرعى على مجلس شورى القوانين وقد صار الإمام عضوا فيه ، أجازته المجلس وكان يعارضه القاضى التركى قائلا : (إن الشرع لا يحتاج إلى إصلاح) ، وحججه الأستاذ الإمام بما صنعه الأتراك أنفسهم فقال : (أما كون الشرع نفسه لا يحتاج إلى إصلاح فسلم . لكنه فى مكتبته التى فى أيدي الناس بعيد عن أفهام الخصوم . . ولا نطلب إلا عملاً سبقتنا إلى مثله الدولة العثمانية فى كتاب المجلة ، التى عليها العمل فى محاكمها المسماة (العدلية) ، وفى المحاكم الشرعية فى أبواب المرافعات جميعها . ولم يقل أحد إن الدولة فى عملها ذلك قد خرجت على الدين . وأما مسألة امتحان القضاة فى لجنة من علماء الأزهر وانتخابهم ببلجنة من كبار العلماء فيجب بيان مافيهما هيئة المجلس لأننى من اللجنتين . .

وأما لوائح المحاكم . .

وهذا الإصلاح ينحصر عندى فى أمور خمسة :

أولها : تقوم طريقة التعليم لعمال المحاكم الشرعية من قضاة وكتبة .

ثانيها : تعديل لوائح المحاكم الشرعية على وجه يكفل انتظام سيرها .

ثالثها : الاتفاق مع جماعة من شيوخ الحنفية : (إذ المحاكم تقضى بأرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة) على إيجاد طريقة لتقريب فهم الأحكام الشرعية . :

رابعها : وضع قاعدة لتنفيذ الأحكام الشرعية .

خامسها : ترقية مرتبات عمال المحاكم الشرعية وإلحاقهم بباقي موظفى الحكومة (

النيابة العمومية والقضاء :

وللشيخ أثر عظيم فى هيكल النظام القضائى ، إذ كان الإنجليز يسوقونه ، شيئاً فشيئاً ، ليصير إنجليزى النظام ، فقرروا إلغاء النيابة العامة وإحالة عمل النائب العام ووكلائه على القضاء ، وانعقد مجلس النظر لذلك برئاسة الخديو بناء على طلب اللورد كرومر ، ورأى اللورد أن يسأل المفتى فى ذلك مع بعد الموضوع عن اختصاصه ليفيد من تأييده . لكن الإمام أجابه بقوله : (إن هذا خطأ لا يحتمل الصواب وضرر عظيم على عمل النيابة) وساق حجتيه أولاهما مسلمة وأخراهما تمس العصب الحساس للورد فتردعه قال :

١ - إن رجال النيابة الذين يلغى عملهم من أرقى رجال البلاد علماء وعقلاء ولساناً وقلماً .

٢ - وستوجه همه من تلغى وظيفته ولا يجد غيرها فى درجتها إلى الاشتغال بالسياسة فيتعبون البلاد

والمستولين عن النظام، تُعباً كبيراً).

قال اللورد كرومر : إن هذا كلام وجيه ونحن قد استشرنا كثيراً من العارفين بالقضاء والإدارة فلم نجد عندهم مثل هذه الاعتراضات بل وافقونا . وإن مجلس الوزراء سيجتمع الآن في سراي عابدين برئاسة الجناب الخديوى لتقرير هذه المسألة ولا بد لإيقاف ذلك من ذهابي بنفسى إلى عابدين بعد إيدانهم بذلك فى التليفون .

وهذا الذى قاله الإمام قالته الأمة بعد نحو نصف قرن بمناسبة إلغاء المحاكم المختلطة سنة ١٩٤٨ . إذ قننت قوانين للإجراءات الجنائية تحل قاضى التحقيق محل النيابة ثم أدركت أن نظام النيابة العامة قد قطع أبعد الأشواط فى حمايتها .

فى الدستور :

ومن حق الأستاذ الإمام أن يذكر له فى هذا المقام قوله من ثلاثة أرباع قرن ، والإنجليز يحكمون كل صغيرة وكبيرة عندما استفته فى أواخر حياته المستشرق بلنت فيما يراه من دستور لمصر فرأى :

١ - أن يقيد « الدستور » الإنجليز والخديو .

٢ - أن يطلق يد الوزارة تحت إشراف مجلس النواب .

٣ - فإذا اختلفا عينت للفصل لجنة منه ومنها ومن مستشارين من محكمة الاستئناف .

٤ - أن يقتصر الدفاع عن مصر على الجيش المصرى .

فهو يقيد سلطة الحاكم ويطلق سلطة الأمة ويخضع الوزارة للشعب فى مجلس النواب ويشرك الوزارة ونواب الشعب فى حل الخلافات ويجعل القضاء ثالثهما ويلغى سبب وجود جيش الاحتلال وهو دعوى الدفاع عن مصر .

وهو منذ عهد الوقائع والعروة الوثقى يرى « السياسة » تفاعلاً كاملاً بين أعضاء جسم الأمة وأن الرأس أحوج إلى المشورة من سائر الأعضاء وأن مناصرة الحاكم فى السلم - بالشورى - واجبة وجوبها فى الحرب - بالسلاح .

أما طريقة الشورى فباقية على الأصل من الإباحة والجواز فكل طريق تتحقق بها المناصرة مشروعة ومن ذلك أشكال المجالس المنتخبة فى العصور الحديثة .

السَّبَابُ الرَّابِعُ

شيخ الإسلام

١٨٩٩ - ١٩٠٥

١٣١٧ - ١٣٢٣

(إن في الإسلام من ضروب الهداية ما يعد من
الأصول الخاصة بالإسلام كبناء العقائد في القرآن
على البراهين العقلية وبناء الأحكام الأدبية
والعملية على قواعد المصالح والمنافع ودفع
المضار).

محمد عبده

رأيتك والأبصار حولك خشع فقلت أبو حفص بيرديك أم عليّ

بهذا التصور الديني ، وتشبيهه الإمام بعمر وعلي ، عبر حافظ ابراهيم عن الشعور العام يوم ولي
الإمام الإفتاء بعد القضاء ، وله صلة بأبي حفص (عمر) في شجرة النسب ، وعهد بعلي في تصوفه
ونهج بلاغته . وبهما معاً في الفقه والقضاء . وهما القاضيان ، والمفتيان ، وإماما الاجتهاد في الإسلام .
ولي الإمام الوظيفة بعد أن أقرت له الحكومة بحق العودة إلى وظيفة المستشار إذا أراد ، فاحتفظ
باستقلاله في الإفتاء لمجتمع صح منه العزم على إصلاحه :

لقد أ جاءت الحملة الفرنسية مع ضباطها وعلمائها نساءهم ، لتشكيل مجتمع أوربي ومجتمع علمي
(أكاديمي) في المستعمرة (مصر) . وادعى نابليون في منشور للمصريين أنه مسلم قدم ليرفع الظلم
عنهم ، ثم عاجلته مقادير أوربا فرحل مذموماً لكنه خلف وراءه ذكريات مجتمع فيه تخليط .
ثم ولي محمد علي ضباط نابليون المسرحين قيادات جيشه وأسطوله وفتح نوافذ مصر واسعة
لأصحاب الامتيازات وثبتت «مجالس التجارة» أقدامهم فتوسعت تجارتهم فتقاطروا على الأرض
الطيبة ، وفي حواشيمهم دواعي الفتنة ، من شواطئ البحر الأبيض وجزره .

وأخيراً أقبل الجيش البريطاني سنة ١٨٨٢ بالفساد الأشد ، فنفتت بضاعة شذاذ الآفاق في

الأسواق ، وانتشرت أخلاط من المهازات والمغامرات والتجارات تلتهم ثمرات كل شيء في مجتمع مسته الشياطين وصيرَه الغزاة نهبه المنتهب .

كان التاريخ الهجرى هو التاريخ فوضع بجواره التاريخ الميلادى . ثم رفع تاريخ هجرة الرسول ! وكان الميقات عربياً فصار أفرنجياً ! واهتمت الحكومة بالآثار الفرعونية ليرشح بها الأجانب إلى الخارج ! وطبقت القوانين الفرنسية على المصريين في محاكمهم فلم تقدر على جعلهم أوريين ولم تركهم على حالهم ، فصاروا كالغرباء لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وأعطى المتمصرون الفرنجة ، والمتفرنجون العرب ، معنى مردولا لقول إسماعيل « نحن لم نعد أفريقيين نحن من أوربا » فغزا الخمارون اليونانيون والمرابون اليهود أقصى الأرض في الدلتا والصعيد وتبجحوا في الريف والعواصم تحت أعلام المحاكم المختلطة فارتهنوا الملكية العقارية . وخالطوا الأسر وباعوها شهواتها ، فتكاثر المسارح والملاهي وتناثرت الخمارات على قوارع الطرقات ، وألف أصحاب الثقافة والجاه ابتذال أنفسهم وتبديد أوقاتهم على الأرصفة ، وأحل الميسر في النوادي الخاصة وعلى مستوى الأمة تحت اسم « اليانصيب » . وفعل التقليد أفاعيله فخلع رجال ونساء ثوب الحياء وأمسك الكبراء بأذيال الغزاة الطويلة ولبس الآخرون أزياءهم القصيرة أو المشيرة . وتعرى بعض على الشواطئ وتحنث كثيرون في المراقص . وفتحت للرقص مدارس . واستوردت البيوت الناعمة مريات للبنين والبنات من أوربا ! .

وأقيمت الحفلات الراقصة في قصر الخديو ، ووصفها ووصف الخمر « شاعر البلاط » أحمد شوقى بدم بارد وضمير جامد ^(١) والشعراء يتبعهم الغاؤون . والناس على دين ملوكهم . واختلط القراء بنجوم الغناء وتعاجم الناس في بيوتهم ومعاملاتهم ، وتكلموا الفرنسية ، ثم الإنجليزية ، في مدارس التبشير ثم في كل مكان . وأصبح اللحن ظرافة والركاكة طرافة .

وطاولت الرءوس العارية أو المغطاة بالقبعات في الوزارات والشركات والأوبرا والمسرح رءوساً عليها الطرايش والعمام ، وباهت الأجنبيةات بأثواب تشف أو تصف أو تكشف المفاتيح ، صواحِبَ

(١) يقول أبو نواس :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

فيقول شوقى :

حَفْ	كأسها	الحب	لهى	فضة	ذهب
رمضان	ولّى	هاتها	يا	مشتاق	إلى
حمرء	أو	صفراء	،	إن	كرميها
كالفيد	كل	مليحة	بمذاق	مشتاق	إلى

الحبرات والبراقع . والبراقع بين تركية بيضاء قصيرة أو مصرية سواد طويلة ! وأصبح وجه المجتمع كهيئة « صندوق الدنيا »

وفي هذه البيئة الوبيئة سلط جيش الاحتلال وأعوانه من غير المصريين الإرهاب والإفقار والجهل والتفرقة على أمة منهزمة . ومكّنوا لأصحاب الخرافات ليستنم الناس وينصرفوا إلى داخل أنفسهم ، يألمون ويحترون آلامهم . .

لقد قاوم المصريون الغزو الصليبي وانهزم الغزاة عنهم لأن المجتمع المصري كان أعلم وأقوى وأقوم . لكن العلم والقوة والمال - اليوم - كلها أوربية . وبعوث الحكومة والأفراد تنزى إلى إنجلترا وفرنسا لتوضع في أيديها مفاتيح التغيير والتقليد إذ تعود .

واستطرد الإنجليز من جسم الجماعة إلى لسانها يريدون أن يقتلعوه يجعل اللغة الإنجليزية لغة التعليم في المدارس . وإلى قلبها يريدون أن يقفوه بإلغاء المحاكم الشرعية ، فارتاع الرأي العام فعرضوا على مجلس الشورى مشروع قانون لتعيين مستشارين من المحاكم الأهلية في المحكمة العليا الشرعية . فاستقال الشيخ حسونة النواوى من وظيفتي المفتي وشيخ الأزهر ولم ينش الإنجليز إلا بعد أن رفضه مجلس الشورى بالإجماع .

* * *

أدرك محمد عبده ماتدركه الأمة كلما كرثتها كارثة ألا نجاة لها إلا بالرجوع إلى شريعته والحفاظ على قيمها الذاتية ، وفي الأزهر قلاعها الحصينة ، وندب لمقاومة الفساد نفسه . لكن الخديو نفس بوظيفتي الشيخ حسونة عليه مجتمعتين ، وقصر تعيينه على وظيفة الإفتاء - وهو مجرد إبداء آراء - وعين الشيخ عبد الرحمن القطب النواوى شيخاً للأزهر سنة ١٣١٧ فمات بعد قليل فعين محله الشيخ سليم البشري . وأيقن العضو العامل في مجلس الإدارة ، أن الخديو - وقد رفض تعيينه شيخاً للأزهر - إنما أراد أن يستبق في يده الأعنة فلا يرخصها للمصلحين . وشهد التاريخ أن الخديو يحرم المشيخة ومن يتولونها - لأمحمد عبده - شرف مشاركتهم في اللقب للعالم العامل ، الفارس المتصوف ، الراكض والناس يمشون ، المعطى مرتباته لمن يستحقون ، وإذا دعا لواحد من تلاميذه بخير التمس له مزيداً من الفاقة : ١ - يروونه بأعينهم فوق صهوة جواده قاصداً إلى المحكمة أو الأزهر من داره في الناصرية . وهذه بقية الفروسية الأولى ، لكنها كذلك استمراراً للبساطة الأولى واجتناباً لأبهة المواكب وبيان للناس أن الشيخ يعايش قومه .

ولما قيل له إن المشايخ لا يسيغون هذا أجاب : بل يليق بهم أن يكونوا كالغانيات يجررن الذبول ويتوكان على السواعد عند الركوب والتزول . مثل (سنى هانم) !

٢ - ويراه الناس بين أظهرهم يسير على قدميه ، بعد دروسه المسائية عدة كيلو مترات في الصيف والشتاء ليركب القطار من محطة كوبري الليمون إلى داره في عين شمس ، دون أن يستعمل وسائل الانتقال الفخمة الواقفة على باب الرواق العباسي في انتظار تلاميذه ، فإذا ركب فعربة أجرة . وإذا سئل قال (إنني لو صرت خليفة المسلمين لما استكبرت عن عربات الأجرة ولا المشي عند الحاجة)

٣ - وقد يجيئه جهد النهار أو مجلس التدريس أو طول الطريق فيميل إلى دكان فيشترى علبة بسكويت فيأكل منها قضمَةً قضمَةً مع رفيق الطريق . قال له الرفيق : مفتي المسلمين يأكل في الطريق ؟ قال : لأنني أجوع في الطريق . نحن قد فاتنا عشاء الدار الآن .

وما كان الأكل وجبة طعام بل بضع قضبات بأطراف الأسنان وراء ستار الظلام .
لقد كان - رضى الله عنه - يأبى أن يوقظ أهل بيته حتى لا يشركوه متاعب تأخيرهِ ، وأن يعجل برجوعه حتى لا يضيع حقاً للمسلمين .

٤ - ويكره كسوة التشريفة التي يلبسها المفتي في احتفالات القصر فلا يدخلها داره . بل يودعها دار بنته زوج محمد بك يوسف وكانت في جوار قصر عابدين . فإذا كان يوم « تشريفات » لبسها هناك وخلعها هناك .

٥ - وعاد من رحلته إلى السودان ونزل بالمنيا فشكا إليه قاض شرعى ازدياد عمله لكثرة دخول غير المسلمين في الإسلام على يديه والتزامه تعليمهم الدين ، فقال له : يكنى أن تقول للمسلم الجديد : صل وزكّ وصم وحج ! قال القاضي ليس بد من أن أعلمه الطهارة .
قال إمام المسلمين : قل له اغسل وجهك . . وقال القاضي : لا بد أن نعلمه حدود الوجه ليعرف من أين يبدأ وينتهى . .

قال إمام المسلمين : سبحان الله قل له يغسل وجهه . كل إنسان يعرف « حدود » وجهه من غير حاجة إلى « مسح » !

رواها لطفى السيد ليقارن بين العقليتين :

٦ - وأهدى حافظ إبراهيم ترجمته لكتاب « البؤساء » (لفكتور هيجو) (إلى موئل البائس ومرجع البائس . فكان من رده على الهدية قوله له (تقول إن الذى وصل سيك بصاحب الكتاب اشتراكك معه في البؤس . . سألت الله أن يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما بدأ . وأن يجعلك في بؤسك أغنى من أهل الثراء في نعيمهم . والسلام) .

وحدث حافظ أن الإمام . مع هذه الدعوة . له أو عليه ، اشترى من (البؤساء) نسخاً يكنى ثمنها

حافظاً سنوات . لكن حافظاً كأستاذ كان معطاءً لا يبقى على شيء ! يقول عنه عبد العزيز البشري في المرأة بعد عشرين عاماً ونيف .

[.. إذا طالت يده الألف (جنيه) جن جنونه أو ينفقها في يوم.. فهو مايرج يطلب البؤس طلباً.. وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظاً يحققها بيده إذا قصرت في تحقيقها الأيام] ..

٧ - قال له ذات يوم : إن لك أعداء كثيرين فأجابه : ولم «تنسى» أصدقائي يا «حافظ» ! هل تعلم أحداً له مالى من الأصدقاء ؟ فتذكر «الحافظ» وقال اللهم لا

* * *

بهذه النفس الحانية ، والتوكل والخشوع والتقشف والعقل المتفتح ، بدأ الشيخ مرحلة الذروة في حياته متطوعاً متبرعاً ، يتصدع قلبه من خشية الله ، ويتفصد جبينه عرقاً ، ليختم حياته كما بدأها مع القرآن ، في حلقة بالأزهر .

ونُشر سجل الدروس الشهيرة في تاريخ الأزهر ، وعاد الشباب للجامع الألفى العمر ، على مدار أيام خمسة في كل أسبوع . في كل يوم ساعتان . للتفسير درسان . ولأسرار البلاغة المكملة للتفسير ثلاثة .

فصل في (المفسر)

نحن الآن في الجامع الأزهر : ألف عام - إلا شيئاً - تفتح صدرها لإمام أعمال وأقوال ، يدخل التاريخ العلمى من أعظم أبوابه ، بابي القرآن ولسانه العربى . ويضرب الأمثال من نفسه في منبر التدريس ليشهده الجميع فيبدلوا قصاراهم .. قادم من ميادين العظام ، وحضارات ثلاث قارات ، ومحنتى حرب وسلام ، ومن التأليف والتعليم والقضاء والإفتاء ومجلس إدارة الأزهر ! قدم ليرقى المعراج الأعلى ليفوق نفسه ، فيتكلم عن الله . بعد قرون لم يتصد للتفسير فيها أحد .

البلاغة عنده (منتهى الكمال في إصابة الحق بالدليل مع شيء من حسن الأسلوب وجودة التأليف في اللفظ) وهو إمام بلاغة ، يعلم أمتة المعنى القرآنى وأسرار لسانه العربى ، وما فى نظمه من جمال وجودة ، والقرآن حق ودليل حق . يوقظ النفوس لتطهر وتقاوم الخطر ، وبحرك الأفكار للابتكار واستباق التقدم .

ولا أحد ، كالإمام ، يستطيع أن يهز أنفس الناس بمعانيه وألفاظه ويجمع بين الفحوى القرآنى

ووجدان العصر وعقول البشر. وهو القائل (إن الإسلام . قد قاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن لسلطته) . ولا أحد كمثل يستطيع أن يؤلف بين المنقول والمعقول أو يرفع مشيخة الإسلام إلى مستوى تفسيره .

ولئن يَسُرَّت عليه المقاومة المنظمة للعدو ، إذ يحمل رايات الجمعية الخيرية الإسلامية ، إنها لأقصد وأبعد من إسقاط العدو وأوسع مدى في الإصلاح عندما تكون درساً في أسرار البلاغة وإعجاز القرآن وتفسيره .

لقد أنشأت الدولة الفاطمية الأزهر سنة ٣٦١ هـ لتشرّفه الشيعة ، فصيرته مصر مدرسة لكل المذاهب . وصيرته فريضة الجهاد منطلقاً لمقاومة التار القادمن من الشرق والصليبين والفرنسيين والإنجليز القادمين من الغرب . وسيقاوم الشيخ فيه الاحتلال البريطاني بالكتاب والسنة واللسان العربي والتاريخ الإسلامي ، وهذه مقومات الوجود العربي ، يضع بها أقدام قومه على الطريق ولديه المؤهلات :

فهو فقيه حنفي من (أهل الرأي) علامة في العبادات والمعاملات وعالم لغوي وأديب مقطوع القرن^(١) . وخبير بالسنة والسيرة ، وبالتاريخ الإسلامي والعالمي ، ودنيا الناس .

(١) لا يتسع المقام للكلام عن تبخر الإمام في اللغة أو في الأدب أو عن أسلوبه . وجملة القول إنه كان في الذروة من كل ذلك منذ عهد الطلب ، ثم ازداد بدراسات المقامات ، ونهج البلاغة وأسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، كما فرض على نفسه وهو في أعلى وظائفه أن يحضر امتحان طلاب دار العلوم وكانوا أمل اللغة العربية ولا يزالون . وأسلوبه من أعلى أساليب اللغة العربية في كل أعصرها . بلغة مرحلة فرحله ، وإن شئت قلت سنة فسنة . ويتبدى ذلك في الفرق بين سجيته في رسالة الواردات وبين ترسله الرصين في الحاشية على شرح الدواني ، وبين هذا وبين أسلوب الوقائع المصرية العصرية المترسل المنساب في كل باب ، لتقتدى به الصحف .

وما هي إلا فروق سنوات خمسة في بواكير الشباب تزداد جمالاً وكمالاً بالمعارف المكتسبة في المواقف والمراكر المتنوعة ، وبخاصة ما أضافت إليه صياغة الأحكام من ضبط ودقة ، ودراساته الفرنسية المتعمقة ، وأسفاره في القارات الثلاث ، من حلاوة وطلاوة تعلمها عليه المنفلوطي ومصطفى عبد الرازق وعبد العزيز البشري ومصطفى صادق الرافعي ، ويمكن تتبع آثاره في كتاباتهم بكل وضوح . وأظهر مثل لأسلوبه (رحلة صقلية ، وترجمته الذاتية ، في الشكل والمضمون . وقد استكثرنا من الشواهد منها في هذا الكتاب . يسأله تلميذه حافظ إبراهيم وهو الشاعر الفحل في اللغة العربية لبيان ما أعجزه بحثاً لدى المتخصصين من معنى قول يشار :

إذا ما غضبنا غضبة مصرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

فيجيبه من فوره :

(يريد أنهم إذا غضبوا سلّوا سيوفهم وأشرعوا رماحهم فكان بريقها كالهتك لحجاب الشمس التي يظهر به نورها ويتألق شعاعها إلى أن يمكنوها من صدور أعدائهم فتخرج وهي تقطر دماً ، ويخفى ذلك البريق . فالضمير في قوله (أو قطرت دماً) عائد إلى السيوف أو الرماح وإن لم تذكر بالقول فهي معلومة بالقرينة)

والبيت أحد بيتين قيل فيهما لبشارين برد .

يقول الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر (أعتقد أنه إذا جاوزنا عصر السلف لانجد رجلاً رزق فهماً في هداية القرآن ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرائية مثل الإمام محمد عبده . ولقد وهبه الله شروط الإمامة الدينية جميعها كما منحه البصر في أمور الدنيا . ومن الحق على المسلمين أن يترسموا خطواته للإصلاح الديني إذا أرادوا إعزاز دينهم ورفع أتباعه في دنياهم . . .) . وإلى جوار الإمامة الدينية والبلاغة ، منهجه العلمي بكمال التحري والتحقيق ، وأمانة الاستخلاص واستمرار التنقيح والتحقيق ، والاستماع ممن خالفه - كما يشترط الإمام الشافعي في المنهج العلمي ومحمد عبده هو القائل : (ما وعظك مثل لائم ولا قومك مثل مقاوم) . لقد أوفد مبعوثاً إلى اسطنبول لتحقيق نسخة من (أسرار البلاغة) جاءته من طرابلس الشام مع وجود النسخة التي درسها في بيروت في الثمانينات ليقدّم الكتاب إلى مجلس الأزهر ، وليستلفت إليه نظر الأمة بتقريظ نشره المنار - يقول فيه : (لم أركتاباً في هذا الفن لا بقلم متأخر ولا متقدم يقرب من هذا الكتاب في حسن الأسلوب وجمال المعنى ورونقه . وهو جدير بأن يتفع به الأستاذ ، ويقتطف منه التلميذ ، وتزين به كل مكتبة في مشارق الأرض ومغاربها)^(١) .

= إنك تجيء بالشعر المتفاوت . تقول شعراً تثير به النفع وتخلع القلوب :

إذا ما غضبنا غصبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعزنا سيداً من قبيلة ذرى منبر صلي علينا وسلا

وتقول :

ربابة ربة البيت نصباً الخلل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

وأجاب بشار :

(لكل شيء وجه وموضع : الأول جد ، والثاني قلته لجاريتي ، فهي تجمع البيض وتحفظه وهذا عندها أحسن من (قفا نيك من ذكرى حبيب ومتزل) (لامية امرئ القيس) .

وكان الإمام محسوداً على أسلوبه يقول : (يقولون إن ملكة البيان سهلة التحصيل وإنهم إن شاءوا لما أعجزهم أن يقولوا فيحسنوا ، ويكتبوا فيجيدوا ، لا وربك إنهم لأعجز شيء عن أدنى مراتب البلاغة ، وإن أدمغتهم عشوة بشروح التلخيص وحواشيه وتقريراته ، ولكنها خلط من ذوق البيان ، بعيدة عن فهم أسرار البلاغة . . . إن فن الإنشاء عزيز المنال . . .

قضيت في تعلم الإنشاء خمسة عشر عاماً . وما أظن أن ملكة كانت تنضج في أقل من هذا الزمن ، مع حسن الاستعداد والأخذ يجد في تحصيل الوسائل . والإكثار من التمرين) .

ويقول للناشئين اقرءوا كتب الأدب ، واحفظوا من مختار الشعر وجيد النثر ، وحركوا أفكاركم وخیالاتكم . . .) .

(١) أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للجرجاني منهجان يدرسان الآن في السنتين الأخيرتين في كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية .

ونحن الآن في الرواق التاسع والعشرين ، أحدث أروقة الأزهر - أقيم في سنة ١٨٩٨ بجوار الباب الغربي الكبير ، وسمى الرواق العباسي لبنائه في عصر الخديو عباس - طبقات ثلاث :
في الثالثة ديوان المفتي وفي الثانية غرف فيها حجرتا الطبيب والصيدلي .

أما الأولى فقاعة ذات محراب ، يغشيه رخام فيه رسوم نباتية . والأعمدة الاثنا عشر من رخام أبيض تحمل قبة مزخرفة مبرقشة ، والأرضية رخام أبيض ، مساحتها نحو خمسمائة متر مربع تسع نحواً من خمسمائة جالس متربع . يتوافد المتفقهة إليها من كل حذب أمام منصة متواضعة .
قدم الشيخ إليها تحيط به هالة من «طريقة الحياة» التي صبرته مألفاً للناس ، ميمون الصداقة مأمون العداوة ، مأمولا في الحالتين . داره مثابة لذوى الحاجة ، وأخباره معلومات عامة للزملاء ، وهم العليمون بإسرار كل منهم وإعلانه ، كدأب أصحاب الحرفة الواحدة المتنافسين أو المتصادقين . وللعلم عموماً ، والديني منه خصوصاً ، كرامة يتضافر المسلمون في الغيرة عليها ، وأضواء تستلفت المنظار الخاص الذي ينظر به الناس إلى العالم فيكبره ويصغره في تناسب عكسي مع حبه للعالم وزهده ، أو كبر ماله وصغره ، أو يسر حاله وضنكه .

والشيخ صوفي يخاف الترف فيفرق في الناس كل ما ازداد عن نفقته ويسكن داراً بالأجرة ، تصحبه تعاليم الشيخ درويش إلى بيروت وباريس والقاهرة . إذا أقلع عن تدخين الشيعة في بيروت جعل ما كان ينفقه عليها صدقة . كل شيء في داره بسيط وسريه من حديد . وزهده في الطعام مشهور وهو القائل : (إن من ضعف الإنسان حاجته للطعام - لوددت لو أمكنني الاستغناء عنه) وهو يدفع للمحتاجين ثلث مرتباته أو ثلثيها ، فله بحكم وظيفته مرتبات في مجلس الأوقاف الأعلى ومجلس الشورى ومجلس إدارة الأزهر . يقرر لها مستحقين ويعطى وكيله كشفاً بهم ليوزعه عليهم - كما روى شاعر النيل حافظ إبراهيم .

* * *

والشيخ أعبد قومه لله يصفه الشيخ رشيد رضا ، وقد لازمه في خصوصياته ، فيشهد الله بعد ربع قرن من وفاته على : (أن هذا الرجل أكمل من عرفت من البشر ديناً وأدباً ونفساً وعقلاً وخلقاً وعلماً وصدقا وإخلاصاً . . . الحقيق بلقب المثل الأعلى من ورثة الأنبياء في هذا العصر) .

كان رضى الله عنه يختلف مع الفقهاء الذين يرون الخشوع والتدبر في العبادة من الأمور «المستحبة» ومع المفسرين الذين يرون أن أكثر ما في القرآن من صفات المؤمنين ومزايا الإيمان خاصة «بالإيمان الكامل» ويرى أن هذه النظريات تفتح الأبواب للترخص وعدم محاسبة النفس على لوازم الإيمان .

والفقهاء يرون ذلك «فتوة» المتصوفة وهو يراه من «واجبات الإيمان» .
يقول الشيخ محمد نجيت^(١) (المفتي اللاحق) (كنا دائماً نقدمه فيؤمنا في صلاة الجماعة لتقواه
وصلاحه) .

صلاته صلاة متصوف فيها خشوع الجامع مع الله ، فإذا لم يتيسر الخشوع وكمال الخضوع لصلاة
الظهر جمع بين الظهر والعصر . وابن عباس يحدث أن النبي ﷺ صنع ذلك .
يقف كالوتد لصلاة التهجد في منتصف الليل على قول أو في ثلثه الأخير - على قول - حتى أذان
الفجر ، إن مقيماً وإن على سفر ، حتى تعالت شكاة حافظ إبراهيم . وكان كثير الترحال معه . فقال :
كان ينغص على الليل بصلاته حتى آخر الليل . بل كان يضمن على بالنوم إذا أذن المؤذن لصلاة
الفجر فيطرق الباب ينادي (ياراقد الليل إلى كم تنام !) .

وقد يدخل عليه رشيد رضا في داره غرفة لم يكن يظنه فيها ، فيفاجئه مرآه (بيده كتاب ينظر فيه
وإذا بدموعه تتحادر من مآقيه تشرق بها وجنته وتنطف بها لحيته . . قلت ما هذا الكتاب ؟ قال سيرة
النبي ﷺ . . كان تأثير سيرة النبي عليه الصلاة والسلام في قلبه يلي تأثير القرآن الكريم)
وكان عفواً ، خصيسته الأولى خصيصة الشريعة الأولى وهي الرحمة : ومنها سماحته مع كتاب
المقالات والشكايات ضده^(٢) فإذا كدر الجحود الذميم صفوه ، كانت خدماته للجاحدين ترضيةً
لنفسه عن نفسه . لقد ذهب في يوم واحد إلى اللورد كرومر والحديو^(٣) وناظر النظار ليقيل عثرة عدو
لاذ به .

والذين لا يعرفون أسرار صنائعه يرون أخبارها بادية على وجوه العارفين .

تنبئك مرآته عن دخيلة نفسه : فتوة تشير إلى القوة التي تميز بها بين أترابه طول حياته . يرفض أن
يقبل أحد يده ويصافح الناس منتصب القامة رافعاً رأسه . كأنما أحكم الخالق وضع الرأس بين
الكتفين العريضين ليلفت النظر إلى جمال تكوينه ! ليس بالطويل البائن ولا بالقصير . سواء البطن

(١) كان من معارضي حركة الإصلاح التي يترعها الإمام . ولد سنة ١٨٥٤ - ١٢٧١ وتوفي سنة ١٩٣٥ - ١٣٥٤ وتخرج في
الأزهر وولى القضاء الشرعي سنة ١٢٩٧ وله مؤلفات قيمة . وهو أشهر من تولوا الإفتاء بعد الإستاذ الإمام وسيرأس سنة ١٩٢٢ لجنة
إحياء ذكرى الإمام بمناسبة مرور سبعة عشر عاماً على موته .

(٢) قبض مرتبه في مرة في بيروت ثم عرف بموت والد لصاحب له فسلمه مرتبه . وبقي طاوياً أياماً لا يعرف ما يصنع ، وإذا
بحالة قادمة من مصر بدين قديم بعث به مدين كان قد نسيه وكأنما جاءت لنجدته .

(٣) وأعداؤه عليهم بهذه الرحمة يقول لشيخ كبير كان يحقق معه في حضرة شيخ الأزهر لأنه قدح فيه (إن سوء نتيجة تلاميذك
تكني لفصلك ولكن يغرك مني أنني أعلم أن عندك أولاداً كثيرين تغلب على قلبي الشفقة عليهم) وستقرأ كلمات عن رحمته بالناس وأبناء
الكاشحين من أهل الأزهر فيما بعد .

والصدر واسع الصدر عظيم المنكبين ، مدور الوجه واسع الجبين ، أسمر اللون فى وضاعة . كثر اللحية أبيضها ، له فودان أبيضان وعينان نفاذتان ، كأنهما شرارتان ، ترسلان البريق النفاذ إلى الأفئدة . ووجه كريم ، حلو التقاسيم ، يشيع الحنان والدفء من حوله . كأنه همسات رحمة ، يفتر عن أسنان لؤلؤية منتظمة . جاء سامعوه يتلمسون وقع الدر من فيه . وهو يترث إذ يلقيه بين أيديهم ليلتقطوه .

أما لباسه فكما وصفه الشيخ رشيد رضا : نظيف غاية النظافة (فى ملبسه ومأكله وسريره نومه بدون أهبة . جبة وقباء من ذات الزيق للرقبة ليست زاهية اللون ولا لامعة كأصحاب الجاه ونعله كنعال الرجال العاديين لا العلماء)

لا يجلس على الأرض بل يصنع صنيع الأوربيين فيجلس إلى المنصة . ولا يصنع صنيع الأزهرين فى عصره فيهرزعه إذا تلا القرآن .

يقول الشيخ الترماني الوافد من حلب ليلقى عليه : (كانت توضع له منصة فى وسط الرواق العباسى فيجلس عليها ويستقبل القبلة ويوضع بجانب المنصة كرسي مرتفع ، فوقه فانوس كبير داخله أربع شموع - والقبلة منورة بكثير من نور الغاز الذى يجرى فى أنابيب خاصة - وترى الجميع جلوساً مترعين وكأن على رؤوسهم الطير فلا تسمع لهم صوتاً ولا تلمح ولاهممة . . وكلهم آذان واعية وعيون محدقة إذا عرض لأحدهم إشكال فلا يجرؤ على أن يسأله فى الحال وإنما يؤخره إلى ما بعد انتهاء الدرس ، فإن الشيخ يجلس بعد انتهاء الدرس برهة قصيرة ليجيب على مايرد من الأسئلة .

أما كنيته إلقائه فلا يحذر فى كلامه ولا يسرع فى إلقائه . كان كلامه مقطعاً جملة جملة بلهجة فصيحة وبلاغة نادرة بحيث يتسنى للكاتب البطئ أن يكتب عليه ما يسمعه منه دون تصحيح . وكان جهورى الصوت . وكان فى أثناء قراءته يشير بسبابته اليمنى ويضم باقى أصابعه إلى كفه ويبقى السبابة منصوبة ثم يقبل بيده اليمنى ويعيدها كأنه يستعين بها على الإلقاء . .)

وأما السيطرة على الأبواب ، والجرس الذى يستولى على الأنفس ، فيشهد بهما شيخان للأزهر لكل منهما قدم صدق فيما يشهد به ، فالشيخ المراغى - قاضى القضاة - يراه (مثلاً عالياً فى طريقة الإلقاء والتفهم ، وفى العبارة الصحيحة النافذة إلى القلوب . وكان دائرة معارف ، يجد اللغوى فيها حاجته ، والفقيه رغبته ، والمتكلم بغيته ، ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آى القرآن على معارفهم . وكانت صرخاته المدوية منبهاً للغافل ومحركاً للجامد) .

والشيخ مصطفى عبد الرازق - وهو الجميل الوجه ، العذب الصوت - يقول (وأشهد الله لقد

كان جمال الشيخ محمد عبده من الجنود التي سخرها الله لعبقريته . وكان صوته العذب المؤثر من الجنود التي سخرها لعبقريته أيضاً)

* * *

اكتظت القاعة الكبرى بالناس ، وتراصف الرجال في ردهة الرواق حتى الباب ، وفي الحضور شباب وشيب جاءوا لسماع معاني القرآن وألفاظه من فم المجود القديم . وفيهم من الأزهر شيوخ كبار وصغار ومن أعيان البلاد ورجال القضاء والإدارة والتعليم ومجلس الشورى والجمعية الخيرية ، وقد يكون فيهم - مجتمعين أو منفردين - سعد أو قاسم أو حسن عاصم ، أو علي فخري أو الهلباوي أو لطيف سليم ، أو حسين رشدي أو عدلي يكن أو عبد الخالق ثروت ، أو أحمد حشمت ، أو فتحي زغلول ، أو محمد فريد ، أو عبد الكريم سلمان ، أو محافظ القاهرة محمد ماهر باشا (والد رئيسين للوزارة فيما بعد علي ماهر باشا وأحمد ماهر باشا) أو ثلاثة سيرشحهم للقضاء في السودان : هم الشيوخ محمد شاكر ومحمد هارون ومحمد مصطفى المراغي الذي سیرأس المحكمة العليا الشرعية بمصر ويلي مشيخة الأزهر ، أو أستاذان سيرشحهما للتدريس بكلية جوردون في السودان هما محمد الحضري وعبد الوهاب النجار ، وسيملاّن الدنيا علماً في الجامعة المصرية ، وقد تجد عبد العزيز جاويش لسان الحزب الوطني وقلمه ، أو إسماعيل صبري ^(١) المحافظ الشاعر ، أو محمد صالح المستشار ، أو المؤرخ الكبير أحمد تيمور ، أو أستاذينا محمد زيد الإياني وأحمد إبراهيم (أستاذي الشريعة في مدرسة الحقوق) . أو الشيخ مصطفى العناني أو حفي ناصف وكلاهما صحح أصول الطبعة الأولى للنصصحف المتداول بمصر من سنة ١٣٣٧ هـ ، أو شيخنا على سرور الزنكلوني الذي ستلهب خطبه الأزهر سنة ١٩١٩ ويتخرج في مدرسته محمود شلتوت شيخ الأزهر . أو طه البشري وعبد العزيز البشري ولدي شيخ الأزهر ، أو عبد الرحمن قراعة المفتي اللاحق ، أو محمد عز العرب نقيب المحامين الشرعيين فيما بعد ، ودائماً نجد حافظ إبراهيم ومصطفى لطفى المنفلوطي وعبد المحسن الكاظمي .

وأخيراً جاء فتى غض الإهاب هو مصطفى عبد الرازق ثم لحقه أخوه علي .

أما رشيد رضا فهو التلميذ صاحب (مجلة المنار) التي تنشر التفسير ، وهو بذلك يدون بين

(١) رجع من بعثته ثم تدرج في مناصب القضاء حتى صار مستشاراً ومحافظاً للإسكندرية ، ولا عزم مصطفى كامل على إلقاء خطبة بالإسكندرية نهت الداخلية على المحافظ بمنعها صيانة للأمن ، فرفض منعها وتعهد شخصياً بصيانة الأمن . ونقل بعد ذلك وكيلاً لنظارة الحفانية ، فكان دائم التردد على مصطفى كامل في دار اللواء . وهو الشاعر الشهير ومراثيه لمصطفى كامل سنة ١٩٠٨ ولقريد سنة ١٩١٩ من غرر الشعر ، وكان صديقاً حميماً لمصطفى وفريد ، توفي سنة ١٩٢٣ عن تسعة وستين عاماً .

المدونين ومثله على ذو الفقار المستشار^(١) ومحافظ القاهرة فيما بعد ، لكن رشيد رضا يعرض ما يدونه فيما بعد ليقول فيه الشيخ الكلمة الأخيرة فيدفعه إلى المطبعة .

* * *

والشيخ مكث مترث . فسر سورة العصر في سبعة أيام وهي سورة ثلاثية الآي بين ثلاث مثلها هن أقصر سور القرآن . وهو سريع البادرة مليح النادرة . في طبعه ذلك المزاج الرفيع من الثقة بالله ، التي تهب القوة وما يقابلها في الأنفس العظيمة وهو الرحمة ، ومن الحلم والأناة اللذين يحبهما الله ، ومن البديهة الحاضرة . لا تفرط الفراطات على لسانه إذا بغته مسألة بل يتبادر ليشرح صدور الحضور : دخلت درسه فتاة في نحو الثانية عشرة تتخطى الصفوف لتسر إلى أيها كلمات وخرجت . وبهت السامعون فسكت الشيخ هنيئاً ، ثم قال : (يظهر دى المرأة الجديدة اللى يقولوا عنها في الصحف) . وقيل له يوماً : فلان حفظ صحيح البخارى . قال : لقد زادت نسخة في البلد .

يجلس جلسة المتواضع الخاشع . وفي ذهنه تفاسير الطبرى (٣١٠) وابن عطية (٥٤١) والبيضاوى (٦٨٥) وابن كثير (٧٧٤) وتفسير الجلالين^(٢) (المحلى (٨٥٣) والسيوطى (٩١١)) وأبى السعود (٩٨٢) والزمخشري^(٣) يتوسع فيما أغفله السابقون ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث اللغة - فلغة درس مستقل - كما يختصر في الروايات التي لا يتوقف على فهمها إدراك معانى الآيات ، ويتوكأ في بعض الأحيان على عبارة تفسير « الجلالين » أو غيره يقرأها وينقدها إن استحققت نقداً . ثم يتكلم بما فتح الله عليه مما يحتاج إليه الناس للهداية والعبرة .

ولئن كانت ثقافات الحاضرين شتى ودرجات عملهم متباينة إن الشيخ مربٌ صقلته التجارب ، تخاطب نفسه أنفس سامعيه بمعانى آيات تخاطب الفطرة والعقل معاً ، وهما لا يفتآن يتجددان ويجددان .

ولكلام خالقهما - جل ثناؤه - إعجاز يسيطر على العقول بمعانيه التشريعية والتهذيبية وألفاظه

(١) كان عضواً في دائرة الاستئناف مع سعد زغلول . وقيل إنه كان ثالثاً لسعد وقاسم عندما رفضا التصديق على القانون الجديد ، ثم انضم بعد قليل للأغلبية التي قبلت القانون .

(٢) أولها الجلال المحلى (٨٦٤ هـ - ١٤٥٩ ميلادية) نسبة إلى المحلة إحدى حواضر الوجه البحرى بمصر . اشتغل ببيع الحرير ثم انصرف للعلم .

وثانيها الجلال السيوطى (٩١١ هـ - ١٥٠٥ ميلادية) نسبة لأسير إحدى حواضر الصعيد بمصر . له ٥٠٠ مؤلف أو أكثر .
(٣) سأله رشيد رضا إذ كان تلميذاً بطرابلس ، والشيخ مصطفى فى لبنان - وهو مستشار - عن أنفع التفاسير فقال : الكشف للزمخشري (لدقته فى تحديد المعانى ونكت البلاغة بالعبارة الدقيقة المختصرة . وما فيه من نزعات الاعتزال لا يحق على طالب التفسير الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة) وظاهر أن أساس التفضيل أساس البلاغة .

وعباراته ، بل حروفه وموسيقاها ، تجد كل نفس فيه ما ترتجيه من البلاغة أو الفصاحة أو الحلاوة أو الطلاوة .

ومن تجاوب الفطرة مع القرآن فتح أمثل الناس فطرةً القارات الثلاثة في ربع قرن من هجرة صاحبهم ﷺ . وقال سالم مولى أبي حذيفة يوم استحر القتل بالقراء يوم اليمامة (بثس حامل القرآن أنا إن أُتيم من قبلي) وحفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه وظل يحمل الراية حتى استشهد . ومن بعد هذه المعركة انطلق المسلمون بجيوشهم في الشرق والشمال والغرب والجنوب .

ونبع الهدى في القرآن زخار لا يتوقف ولا ينحصر .

سئل الإمام جعفر الصادق لم صار الشعر والخطب يُملّ ما أعيد منها ، والقرآن لا يمل ؟ فأجاب (لأن القرآن حجة على أهل العصر الثاني كما هو حجة على أهل العصر الأول ، فكل طائفة تراه عصراً جديداً . ولأن كل امرئ في نفسه متى أعاده وفكر فيه تلقى منه في كل مدة علوماً غضة) . وطعم معه أبو حنيفة ذات يوم فرآه يرفع يده حمداً لله ويقول : (اللهم هذا منك ومن رسولك) قال أبو حنيفة : أ جعلت مع الله شريكاً ؟ فأجابه : إن الله في كتابه يقول : [وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله] .

قال الإمام الأعظم لأهل السنة : (لكأني ما سمعتها إلا الساعة) .

* * *

ولئن ظهر من عمل إمام الشيعة وإمام أهل السنة أن القرآن أهدى إذ يسمع ، وأجدى إذ يتلوه إمام ، إن مدى الهدى لأوسع عندما يفسر للجماعة .

روى الشيخ رشيد رضا أنه اقترح على الإمام أن يضع تفسيراً للقرآن فأجابه : (إن القرآن لا يحتاج لتفسير كامل من كل وجه فله تفاسير أتقن بعضها ما لم يتقنه الآخر ، ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات . ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل . ثم إن الكتابة لا تفيد القلوب العمى وإنما تفيد القلوب المتيقظة العالمة بوجه الحاجة إليها . ورأى أن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء ، لأن نظر المتكلم وحركاته وإشاراته ولهجته في الكلام كل ذلك يساعد على فهم مراده) .

وشتان ما بين اقتراح التلميذ واقتراح الإمام : الأول يتغيا التأليف العلمي المجرد ، والثاني « يصنع » الأثر العلمي المرجو في أمة قوامها « عمل » المسلم بعقيدته والدعوة إليها .

وفي اجتماع الطلاب لتدارس أصل الإسلام ، في القرآن ، بين يدي الإمام ، إحياء لقوة يبددها التقاطع ، وتعاصد في الاتجاه إلى الله . ومن ذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام يفسر الآي ، إذ

تنزل ، لصحبه مجتمعين في المسجد .

وشتان ما بين قراءة التفسير في كعبه ، وإلقائه على أنفس متحابة مشرّبة للاستقبال والتلقي ، تحملها أذواقها على التشوف للمعنى العظيم الذي يدلى به المفسر القدوة ، كهيئة الصلاة الجامعة خلف إمام ، أو الحجيج حول البيت الحرام . فإذا انفرط العقد تفرقت الجماعة بالفحوى الكريم تهتدى وتهدى به ، وبالسلوك الذي عاهدت الله عليه ، لتجعله يجعل عهود جديدة بين الناس .

والتدريس فعل يفعله صاحبه في قرائح سامعيه كما يفعل بأحاسيسهم في إبانة فيكافئهم بأمور غضة كما يعبر الإمام جعفر الصادق ، ومعان يضيء بها وجه الزمان .

وفما أسلفنا من أسماء الحضور مصداق ذلك . فهؤلاء رجال قد تأثرت بهم الأجيال في أطوار تحتاج إلى تذكيرها بما ينبغي لها . وفي ذلك بعض قول الإمام (الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات)^(١) .

دروس التفسير على هذا ، بدايات جهاد جماعي جديد ، كان الإمام - كدأبه - أول العاملين فيه . كأنما كان رحمه الله ينظر بنور الله إذ أشار إلى أن العمر لا يتسع لتفسير كامل . فكذلك أرادت السماء . إذ لم تزد الدروس عن سنوات ستة من المحرم ١٣١٧ حتى المحرم ١٣٢٣ فقضى الإمام في جمادى الأولى من تلك السنة . ولم ينقص التفسير عن الأجزاء الخمسة الأولى إلا شيئاً . وتوقف عند الآية ١٢٥ من سورة النساء [ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً] .

أجل : توقف حيث شاءت السماء أن تحييه بما حيت به أبا الأنبياء : أما تفسير الجزء الثلاثين فألقاه في بيروت والجزائر ، كما قدمه ليدرسه تلاميذ الجمعية الخيرية الإسلامية .

ولم يقف رشيد رضا حيث وقفت الحياة بالإمام بل أكمل التفسير وأطلق عليه « تفسير المنار » . وفيما يلي نقول مما يأذن به المقام وما قد يجرى في الدلالة على اتجاهاته بوجه عام في أمور بذاتها في العقيدة والسياسة والاقتصاد والاجتماع نستفتح منها بفاتحة الكتاب .

وقد وضعنا لها عناوينها :

(١) وقول الشيخ المراغي عن أثر هذه الدروس [ترك بذور الإصلاح والتعليم الديني وتعليم علوم العربية وبذور إصلاح القضاء الشرعي وبذور إصلاح المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية] .

وحدة الدين - أصول خاصة بالإسلام - أنواع الضلال

قد أرشدتنا هذه الكلمات الوجيزة (وإياك نستعين) إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة . أحدهما أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد في إتقانها ما استطعنا . لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه أو يخشى ألا ينجح فيه ، فيطلب المعونة على إتنامه وإكماله . فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب من أحد المعونة على إمساكه . أما من وقع تحت عبء ثقل يعجز عن النهوض به وحده فإنه يطلب المعونة من غيره على رفعه بعد است فراغ القوة في الاستقلال به .

وثانيهما ما أفاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك ، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الأغيار ، ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين والشيوخ والدجالين ، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين من الأحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حراً خالصاً وسيداً كريماً ومع الله عبداً خاضعاً ، [ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً] . . .

(ومن هنا نعرف أن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح ، عن صراط التوحيد ناكبون وعن ذكر الله معرضون) .

وفي تفسير : [صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين] يقول بنين ما يقول (. . .) ومنها سؤال : كيف يأمرنا الله باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وإرشادات لم تكن عندهم ، وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم وأصلح لزماننا وما بعده ؟ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله في جميع الأمم واحد . وإنما تختلف الأحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان . وأما الأصول فلا خلاف فيها . . . فالاعتقاد بالله وبالنبوة وبترك الشر وبعمل البر والتخلق بالأخلاق الفاضلة مستو في الجميع . وأزيد هنا أن في القرآن من ضروب الهداية ما قد يعد من الأصول الخاصة بالإسلام ، كبناء العقائد في القرآن على البراهين العقلية وبناء الأحكام الأدبية والعملية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار ، وكيان أن للكون ستناً مطردة تجري عليها عوالمه العاقلة وغير العاقلة ، وكالحث على النظر في الأكوان للعلم والمعرفة بما فيها من الحكم والأسرار التي يرتقى بها العقل وتتسع بها أبواب المنافع للإنسان . وكل ذلك مما امتاز به القرآن . والجواب في هذا أنه

تكميل الأصول الدينية الثلاثة التي بعث بها كل نبي مرسل وجعل بناؤها رصيناً مناسباً لارتقاء الإنسان . أما تلك الأصول وهي الاعتقاد الصحيح ولو بالتسليم وعبادة الله تعالى وحسن المعاملة فهي التي لا خلاف عليها .

* * *

ويقول : والضالون على أقسام :

القسم الأول : من لم تبلغهم الرسالة أو بلغتهم على وجه لا يسوق إلى النظر ، فهؤلاء لم يتوافر لديهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل من الحس والعقل وحرمووا رشد الدين . فإن لم يضلوا في شئونهم الدنيوية ضلوا لا محالة فيما يطلب به نجاة الأرواح وسعادتها في الحياة الأخرى . . . على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة وما به يسعدون في الدنيا والآخرة ، فمن حرم الدين حرم السعادتين . . أما أمرهم في الآخرة فعلى أنهم لن يساووا المهتدين في منازلهم . وقد يعفو الله عنهم . وهو الفعال لما يريد .

وأزيد في إيضاح هذا أن الذين جرموا هداية الدين لا يعقل أن يؤاخذوا في الآخرة على ترك شيء مما يعرف بهذه الهداية . وهذا معنى كونهم غير مكلفين . وعليه جمهور المتكلمين . لقوله تعالى في سورة الإسراء [وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا] . . . وما يعطيهم الله تعالى إياه في الآخرة على حسب حالهم في الخير والشر والفضيلة والرذيلة يكون جزاء عادلا على أعمالهم الاختيارية ويزيدهم من فضله إن شاء .

القسم الثاني : من بلغته على وجه يبعث على النظر فساق همته إليه واستفرغ جهده فيه ولكن لم يوفق إلى الاعتقاد بما دعى إليه ، وانقضى عمره وهو في الطلب ، وهذا القسم لا يكون إلا أفراداً متفرقة في الأمم ولا يعم حاله شعباً من الشعوب فلا يظهر له أثر في أحوالها العامة وما يكون لها من سعادة وشقاء في حياتهم الدنيا . أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الأشاعرة إلى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى .

وينقل هذا الرأي مثله من أبي الحسن الأشعري . وعلى رأى الجمهور فلا ريب أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذي استعصى على الدليل وكفر بنعمة العقل ورضى بحظه من الجهل .

القسم الثالث : من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها بدون نظر في أدلتها ولا وقوف على أصولها ، فاتبعوا أهواءهم في فهم ما جاءت به أصول العقائد . وهؤلاء هم المنحرفون في اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول . . وإني أشير إلى ظرف من آثارهم في الناس : يأتي الرجل إلى دوائر القضاء فيستحلف بالله تعالى وبالمصحف الكريم وهو كلام الله القويم أنه

ما فعل كذا فيحلف وعلامة الكذب بادية في وجهه فيأتيه المستحلف عن طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد بهم الولاية فيتغير لونه ثم تضطرب أركانه ثم يرجع في ألبته ويقول الحق . . فهذا ضلال في أصول العقيدة ولو أردنا أن نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال في العقائد الأصلية لطال المقام .

القسم الرابع : ضلال في الأعمال وتحريف للأحكام عما وضعت له . . ولنضرب لذلك مثلاً الاحتيال في الزكاة بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضي قليل من الحول الثاني حتى لا تجب فيه الزكاة وظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة .
ثلاثة أقسام من هذا الضلال أولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها في الأمم فتختل قوى الإدراك فيها وتفسد الأخلاق وتضطرب الأعمال ويحل بها الشقاء . . ويسلط عليها من يستذلها ويستأثر بشئونها ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم الحساب وإن كانت ستلقى نصيبها أيضاً . فإذا تمادى بها الغي وصل بها إلى الهلاك ومحي أثرها من الوجود . - لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر في أحوال من سبقنا . .
أما في الأفراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة . . .

ثم يقول (فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً على الفصول التي يفصلها القرآن تفصيلاً . فكان إنزالها أولاً موافقاً لسنة الله تعالى في الإيداع .
وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما تقول إن النواة أم النخلة . فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة حقيقة ، لا كما قال بعضهم إن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولاً ويأتي بعدها الأولاد) .

وعلى مثل هذا الفحوى يجتمع العلماء :

يقول الجلال السيوطي :

(افتتح سبحانه كتابه بهذه السورة لأنها جمعت مقاصد القرآن . لذلك كان من أسمائها أم القرآن وأم الكتاب والأساس فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال . قال الحسن البصري : إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن . ثم أودع علوم القرآن في المفصل^(١) ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة . فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة . أخرج البيهقي في شعب الإيمان ، وبيان اشتغالها على علوم القرآن قرره الزمخشري . . . وقال البيضاوي وهي مشتملة على الحكم النظرية والأحكام العملية . . وقال الطيبي هي مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين . . قال :
وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً ، فإنها واقعة في

(١) حزب المفصل يبدأ من سورة محمد إلى آخر القرآن .

مطلع التتزيل . والبلاغة فيه : أن تتضمن ما سبق الكلام لأجله . ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق) .

التكافل الاجتماعي

ويستمر الإمام في تقديم الدواء الذي تطبّ به السماء لأدواء عصره بالقاعدة الأساسية في الشريعة وهي أن تعيش « وتجعل » غيرك يعيش . لا أن تعيش « وتترك » غيرك يعيش أولاً يعيش أو أن تعيش وحدك .

لنقرأ تفسير الإمام في سورة الفجر (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمني . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني . كلا بل لا تكرمون اليتم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لماً وتحبون المال حباً جماً) .

يقول (وأنت ترى أحوال الناس إلى اليوم لا تزال كما ذكر الله في هذه الآية الكريمة فإن أرباب السلطة والقوة يظنون أنهم في أمن من عقاب الله ، ولا يعرفون شيئاً من شرعه بمنعهم عملاً مما تسوق إليه شهواتهم . . . والفقراء الأذلاء قد صغرت نفوسهم عن أنفسهم فهم لا يباليون بما يفعلون ، وإذا ذكروا الله فإنما هي حروف وأصوات لا تمتاز في شيء عن أصوات بقية الجمادات .

يقول (كلا بل لا تكرمون اليتم) إلخ أى لو كان غنيكم لم يعمه الطغيان ، وفقيركم لم يطمس بصيرته الهوان . . . لوجدتم الشفقة تحرك قلوبكم إلى « التعاون » على طعام المسكين الذي لا يجد ما يقتات به مع العجز عن تحصيله . . .

وإنما ذكر التحاض على الطعام ولم يكتف بالإطعام فيقول ولم تطعموا المسكين ، ليصرح لك بالبيان الجلي أن أفراد الأمة « متكافلون » وأنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف . بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع التزام كل لما يأمر به وابتعاده عما ينهى عنه .

ثم إن إهمالكم أمر اليتم وخلو قلبكم من الرحمة للمسكين لم يكن عن زهد في لذائذ الحياة الدنيا كما هو شأن بعض من يسأم الحياة ولا يكون له هم إلا بالتخلص من متاعها ، فيعكف على شأن نفسه وينخزل من العالم ولا يهتم بشئونهم ، بل إنكم مع ذلك تأكلون التراث أكلاً لماً . والتراث الميراث واللم الشديد كما ذهب إلى ذلك جمهور اللغويين . ولا حاجة لتفسيره بمعنى الجمع ثم ارتكاب التأويل . أى أنكم تأكلون المال الذي يتركه من يتوفى منكم وتشتدون في أكله حتى تحرموا صاحب الحق من حقه ، (وتحبون المال) مطلقاً ميراثاً أو غيره (حباً جماً) أى كثيراً . . . فشرهكم إلى المال

وَقَرَمَكُم إِلَى اللذَات ، وانصرف أنفُسكم إلى التمتع بها وشعوركم بمقدار الحاجة إلى المال في تقويم شئونكم ، ثم قسوة قلوبكم وشلل وجدانكم إلى حد لا يألم لحال المسكين . . . كل هذا دليل على أن ما تزعمونه من اعتقادكم بإله يأمركم وينهاكم وأن لكم ديناً يعظكم زعم باطل) .
 ويعود إلى التفصيل والتنبيه في تفسير سورة البلد فيقول : (بعد أن أخبر الله جل شأنه بأن الإنسان خلق في كبَد لأم الجاهل المغرور على استغراقه في غروره حتى كأنه يظن أن لن يقدر عليه أحد . . . وبعد أن وبَّخ المرائين الذين ينفقون أموالهم طلباً للشهرة أراد الله أن يبين لهؤلاء وأولئك أنه سبحانه وتعالى مصدر لأفضل ما يتمتعون به : البصر والنطق والعقل المميز بين الخير والشر والنفع والضرر فهو مهدي ذلك إليهم . وهو القادر على سلبه منهم . وما أعجز من يفقد بصره ونطقه وعقله . .) .

* * *

ويقول في تفسير (وأما بنعمة ربك فحدث) (أى أنك لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير فأوسع في البذل على الفقراء . وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة فإن هذا من الفخفخة التي يجب أن ينتزه عنها النبي ﷺ) .

ولم يعرف عنه في امثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقد أو عروض ولكن الذي عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً) .

ويقول ، ليحرك المستسلمين للمستبدين ، في تفسير : (إن مع العسر يسراً) بعد (فإن مع العسر يسراً) ، (أعادها بلفظها فقال : (إن مع العسر يسراً) ولكن على أن يكون معناها أعم من معنى سابقها . قد تقع أمم أو أشخاص في ضرب من ضروب العسر من نوع ما سبق . ثم يجدون الضعف من همهم عن الخلاص مما أطبق عليهم منه فيدوم لهم العسر وقد يموتون وتنشأ فيه أعقابهم . . . ومن ضروب العسر ما يختلف نوعه عن المعهود . . . ومن هذا تجد الأمم التي تعودت على عسر الاستبداد والظلم قد ألفت ذلك حتى صار يصعب عليها أن تحتل غيره ، ولا تزال نحن إليه ، وكلما طلب إبعادها عنه اندفعت بالإقبال عليه ، فهذا نوع من اليسر وإن كان أشأم من العسر . ولكن أليست النفس راضية به مطمئنة إليه ؟ . .) .

والشيخ يفسر الدين بأنه العمل بالدين .

يقول في تفسير : (ويمنعون الماعون) (ثم أعاد ذكر الوصف الذي يتحقق به التكذيب بالدين مع الصلاة فقال : (ويمنعون الماعون) والماعون كل ما يستعان به . فأولئك الذين يصلون ولا يأتون من الأعمال إلا ما يرى الناس مما لا يكلفهم بذل شيء من مالهم ولا ينحشون منه ضرراً يلحق بأبدانهم

أو نقصاً يلم بجاههم ثم يمنعون الناس معونتهم . . أولئك لا تنفعهم صلاتهم . . فخاصة غير المصدق بالدين التي يمتاز بها عن المصدقين - هي احتقار حقوق الضعفاء وقلة الاهتمام بمن تلدغهم آلام الحاجة ، وحب الأثرة بالمال ، والتعزز بالقوة ومنع المعروف عن من يستحقه من الناس .
فهل نجد نصاً أصرح من هذا في تعريف التصديق بالدين ؟

فهل للمسلمين . . أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم بما يتلونه في هذه السورة الشريفة ليعرفوا هل هم من قسم المكذبين أو المصدقين ، وليقلعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة التي لا أثر لها إلا في ظواهر أعضائهم ، وبهذا الجوع الذي يسمونه صياماً ولا أثر له إلا في عبوس وجوههم . . فلا يخرجون من الصلاة إلا وهم ذاكرون أنهم عبيد له يلتعنون رضاه في رعاية حقوق براباه . ويجعلون من الصوم مؤدباً للشهوة . . ثم يؤدون الزكاة المفروضة ولا يبخلون بالمعونة فيما ينفع الخاصة والعامة !

أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ أفلا ينظرون إلى ما نزل بهم من الضعف والذلة وتسلط الأمم عليهم وانتقاصها أرضهم من كل جانب . « إن صورة الانتساب إلى دين لا تغني عن اتباع هديه الصحيح » الذي يدل عليه النص بعد التواتر في النقل وإجادة التدبر من العقل

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يقول الإمام (فمن الواجب على كل أمة تريد أن تنجو من الخسران أن تقوم بهذا الفرض وهو التواصي بالصير .

فإذا طرأ على عوائد الأمة أو نزل بها من الحوادث ما يبغض إليها التناصح أو يجيب إليها التساهل في فريضة التواصي كان ذلك إنذاراً بجلول الخسار ، ولا يجوز لأحد أن يتعلل بذلك التساهل إذا وقع من الأمة ويقنع نفسه بأنه عاجز عن النجاح في نصيحته ، ولهذا يكفيه أن ينكر المنكر بقلبه . وبذلك ينجو من الخسران الأخروي إن لم ينج من الخسران الدنيوي كما يتوهمه بعض المسلمين اليوم خصوصاً أولئك الذين عرفوا بينهم بالعلماء . .

يحتج كثير من عامة أولئك العلماء بحديث : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه) . . ولكننا نقول إنه لا يصح الاحتجاج به في ترك « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » . فإن تغيير المنكر عند رؤيته شيء يتعلق بأمر خاص وهو المنكر المعين الواقع من الشخص المعين وقد يتسامح في معاملة الشخص المعين في حالة مخصوصة لشأن مخصوص . . ولكن

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم ينحصر في طلب تغيير المنكر في هذه الحالة المحددة بل ذلك شامل للوعظ العام في المساجد والطرق والأسواق والمتدييات وفي أوقات الاجتماع الخاصة ، وفي الحديث مع الأصحاب والأحبة وفي كل حال من أحوال الاجتماع خاصة وعامة . ومثل هذا يستطيعه كل واحد من الناس على حسبه . فلا يمكن لأحد أن يزعم أنه عاجز عن القيام بفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإطلاق) . .

قوم كانوا مع الله فكان الله معهم

يقول في تفسير قوله تعالى : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) . (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

(هذه أمة أنشأها الله عن قلة ورفع شأنها إلى ذروة العلى . . هال ظهورها الهائل كل نفس وتحير في سببه كل عقل ، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا : (قوم كانوا مع الله فكان الله معهم . جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأيدهم بنصر من عنده) . . . وما كان . . بتصور أن هذه العصاة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها . هذه الأمة الإسلامية يبلغ عددها اليوم زهاء أربعمئة مليون ومع ذلك ترى بلادها منهوبة وأموالها منلوبة . . .

هذه الأمة التي كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يديهن صاغرات استبقاء لحياتهن . وملوكها في هذه الأيام يرون بقاءهم في الترف إلى تلك الدول الأجنبية . . .

كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلنا . . وهذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبدلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة . كل واحد يود لو يعيش ألف سنة وإن كان غذاؤه على الذلة . .

إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً ، ويقولون في إقدامهم حسبنا الله ونعم الوكيل . . ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي .

ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرأوا منه : (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت) . . (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

التأويل - التفويض - استقلال الإرادة وحرية الفكر

والشيخ يبسط آراءه في الاعتقاد في غير موضع . ومن ذلك رسالة التوحيد - وقد ارتقى بها علم العقائد في العالم الإسلامي كما يقرر المؤرخون - وينادى بالرجوع إلى سلف الأمة حيث الوحدة الفكرية الكاملة في الأصول وإن اختلفوا في فروع . يتزهون الذات الإلهية عن المشابهة والجسمية والمكانية ويفوضون الأمر لله فيما يوهم التشبيه ولا يذهبون وراء ما يعينهم من ظاهر النص . يقول :

(والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد : العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه ، وما وراء ذلك فتزعات شياطين وشهوات سلاطين . والقرآن شاهد على كلِّ عمله . . وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبي أن يصدق بجميع ما جاء به وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته ، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين في موضوع واحد في آن واحد ، فإن ذلك مما تنتزه النبوات عن أن تأتي به . فإن جاء ما يوهم ظاهر ذلك في شيء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد . وله الخيار بعد ذلك في التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه في كلامه ، وفي التفويض إلى الله في علمه . وفي سلفنا من الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثاني) .

ويعلن حرية المسلم الكاملة وعدم خضوعه أو خضوع تفكيره إلا للخالق وحده فيقول : (تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت إرادته من القيود التي كان يعقدها بإرادة غيره سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها مشتقة من الإرادة الإلهية أو أنها هي - كإرادة الرؤساء المسيطرين أو إرادة موضوعة اخترعها الخيال ، كما يظن في القيود والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنات والعرفاء . . صار الإنسان بالتوحيد عبداً خالصاً لله . . ولا يقربهم من الله إلا طهارة النفس من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء . . ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة . . طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت . . أنهى الإسلام على التقليد . . بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منها وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر . . .) .

وربما ساغ لنا أن نختم نقولنا بحديثه عن لغة التاريخ إذ تنطق بحتمية انتصار الإسلام .
(سطع الإسلام على الديار التي بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلامه ويفقهوه ، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً ، وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً ، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار وكاد يترشح إلى ما وراءه . لكن الله بالغ أمره . فأنحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل ، وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام ديناً وحملوه إلى أقوامهم فعمهم منه ماعم غيرهم . جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم .

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة . لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها ، واستمرت المجاليدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغت طاقتهم وزحفوا إلى ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الإسلامية . . . لم جاءوا وبماذا رجعوا . . ؟ استقر المقام بكثرة من هؤلاء في أرض المسلمين . . . ثم وجدت حرية في دين وعلماً وشرعاً وصناعة مع كمال في يقين ، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لا من العوادي عليه . ثم جمعت ما شاء الله من الآداب وانطلقت إلى بلادها قرية العين . . .

ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى تيسيره . وجاءت في إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلاً ، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح في العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا في التصديق برسالة محمد ﷺ ، وإن ما هم عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسماً ولا يختلف عنه معنى إلا في صورة العبادة لا غير . . .
هذا ظل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهترت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، جاء قوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا . . .)

فصل في (المفتي)

الفتوى إخبار عن حكم الله تعالى . وليست هي الحكم . وشرطها أن يجتهد المفتي رأيه ولا يقلد غيره .

ولما قال ﷺ لأمر الجيش الذي طلب إلى العدو التزول على حكم الله (إنك لا تدري أتصيب

فيهم حكم الله أم لا . ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك) كان ينبه الناس على أن آراءهم « اجتهدات » تحمل الخطأ والصواب .

وفي منهج محمد عبده جماع مناهج الأئمة . فهو يقول مقالة الشافعي : (كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم وعلى المجتهد طلبه) وأبى حنيفة (لى أن أجتهد كما اجتهدوا) ويعمل « بالمصلحة » وسد الذرائع كمالك ويقرر « حرية التعاقد » إلا على محرم كابن حنبل .

ويقول مقولة ابن تيمية : (كل ما احتاج إليه الناس في معاشهم ولم يكن سببه معصية هي ترك واجب أو فعل محرم لم يحظر عليهم) . . . و (الشارع لا يحظر على الإنسان إلا ما فيه فساد راجح أو محض ، فإذا لم يكن فيه فساد أو كان فساداً مغموراً بالمصلحة لم يحظره أبداً) .

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : (المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو أحل حراماً) ويقول : (الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله في كتابه وما سكت عنه فهو عفو) فالإباحة هي الأصل الذي تبدأ منه اجتهدات الفقه ، وفيها سعة للخلاف وفي الخلاف رحمة . والشيخ قادم إلى وظيفة الإفتاء من منصة القضاء . حيث ميزان الحياة الواقعة للجماعة ، والحاضر المتشوف إلى مستقبل أفضل .

والشيخ يمتاز من كل شيوخ عصره ومن رجال الفقه المدنى العظماء في القضاء بأنه يجمع إلى أصول المنهج الإسلامى العالمى وفروعها سنوات عشرة من دراسات القانون الفرنسى ومحاولات منع خطره على الجماعة الإسلامية فهو طلبة الأمة غير منازع .

سجلت فتاوى الإمام فى دار الإفتاء فى دفتريْن كبيرين فى كل منهما خمسمائة فتوى ونُيف . أحدهما خاص بفتاوى وقف ومواريث والوقف فيها أغلب . والثانى خاص بفتاوى فى سائر المسائل . ولقد عمدنا إلى اختيار « متنوعات » من فتاوى الدفتريْن الثانى حيث العلاقة وثيقة بما هو جار فى ساحات القضاء من أمور تحمل الاجتهاد ، حتى نشرك القارئ فى امتحان المنهج الفقهي للإمام وهو فى « حالة عمل » وفى امتحان خصائص « الرجل » إذ يواجه نوازل الحياة الواقعة ، بأصول الفقه الإسلامى الديناميكية الميسرة ، وبتراهة المتصوفة الحريصين على الخير والتقدم دون ترهل حضارى . وكأن وزارات الدولة والأفراد ، فى مصر أو خارجها ، كانوا فى انتظار وصول الإمام إلى دار الإفتاء لتقاطر عليها الاستفتاءات من كل الجهات . ولا غرو . فالإمام عنوان الرحمة فى الشريعة واقتدار فقهها على التوطئة للتقدم . وهو « المفتى » فى كل مراحل حياته . منازعه مشهورة كاشتهاره ،

وآراؤه منشورة في كل مكان . وهو يعايش « الجماعة » ويهدى بعمله وبفقهه ، ويسر الدنيا للناس ويحبب إليهم الآخرة .

استفتح دفتر الفتاوى الأول بنص تبليغ الخديو بنفسه إلى الإمام الأمر العالي بتعيينه (فضيلتو حضرة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية - بناء على ما هو معهود في فضيلتكم من العالمية وكمال الدراية قد وجهنا لعهدتكم وظيفة إفتاء الديار المصرية وأصدرنا أمرنا هذا إلى فضيلتكم للمعلومية والقيام بمهام هذه الوظيفة . وقد أخطرنا عطاو فتلو رئيس مجلس النظار بذلك . الحتم عباس حلمي) ٣ يونيو سنة ١٨٩٩ - ٢٤ محرم سنة ١٣١٧ .

مع القضاء - أحكام الإعدام :

أما الدفتر السابق على الدفترين فآخره آخره فتاوى الشيخ حسونة النواوى . وقد شاءت السماء أن تكون طلباً لرأى المفتى في حكم بالإعدام وأن تكون أولى فتاوى محمد عبده طلباً لرأيه في حكم بالإعدام - مع ندرة الفتاوى في ذلك - لتسجل ، للوهلة الأولى ، لمحمد عبده فوارق كبيرة بينه وبين غيره وإن كانوا - كالشيخ حسونة - رجالاً عظاماً .

جاء في آخره فتاوى الشيخ حسونة (سئل بإفادة من محكمة استئناف مصر مؤرخة ١١ محرم سنة ١٣١٧ - ٢١ مايو سنة ٢٥٣/٩٩ مضمونها وكذا ها هي أوراق القضية وعددها ٢٢ رسالة مع هذا لإبداء رأى حضرتكم وإعادتها بالإفادة . (وأجاب) صار الإطلاع على إفادة سعادتكم المسطورة أعلاه والذي يقتضيه الحكم الشرعى أنه متى ثبت القتل عمداً بالطريق الشرعى فلولى الجناية القصاص شرعاً والله أعلم . والأوراق عائدة كما وردت) .

أما الفتوى رقم ١ في دفتر الشيخ محمد عبده فأحيلت في ٢٩ من المحرم سنة ١٣١٧ - ٨ يونيو سنة ١٨٩٩ ومضمونها أن محكمة الاستئناف قضت ضد . . . المتهم بقتل . . . مع سبق الإصرار وحددت للحكم جلسة ١٥ يونيو فأجاب بتاريخ ٢ صفر بما نصه :

(اطلعت على قضية تهمة محمد على حميد بقتل عبد الوارث السيد عمداً مع سبق الإصرار والترصد فوجدنا عليه كثيراً من القرائن التى تدل على ارتكابه جريمة القتل . لكنها مع كثرتها لا تكفى للحكم عليه بعقوبة الإعدام لأن اليقين لا يبلغ بها إلى الحد الذى يسوغ الحكم بعقوبة لا يمكن تدارك الخطأ فيها لو ظهر بعد ذلك لسبب من الأسباب .

خصوصاً ودلائل سبق الإصرار غير متوفرة لجواز أن يكون خاطر الجناية ورد بذهن القاتل عند امتناع المقتول عن إعطائه النقود التى طلبها منه . ولا يسهل القطع بأنه كان عازماً على قتله عند

الامتناع . والأمر لوليه . والأوراق طيه عدد ٥٧) .

وأول ما نلاحظه أن الشيخ حسونة أعلن « الحكم الشرعى عند ثبوت القتل » وأعاد الأوراق كما وردت ورد الإفادة ومعها ٢٢ ورقة ولم يطلع على القضية أو على الحكم المرسل إليه .

أما المفتى الجديد فطلب القضية واطلع على أوراقها كلها وعددها ٥٧ ورقة فالتزمت المحاكم بإرسال ملفات القضايا إليه لا مجرد الإفادة بالحكم وإرسال أوراقه . كما ناقش (القرائن) وتصدى لركن سبق الإصرار والترصد الذى استدعى الحكم بالإعدام ونبه على الشأن الخاص لهذه العقوبة . فصنع صنيعين عظيمين فى تاريخ الفقه والقضاء فى العصر الحديث .

أولها : إقرار الأخذ بالقرائن لثبوت القصاص . فقد كانت المحاكم الشرعية السابقة على نظام القضاء الوطنى تستلزم شهادة رؤية أو إقراراً ، للحكم بالقصاص . فإباحة المفتى للإثبات بالقرائن إصلاح قضائى بتجديد فقهى ، يقره ابن القيم وابن تيمية وغيرهم مسبوقين إلى ذلك بفقه الصحابة وقضائهم بالقرائن . ويفتح الأبواب للإثبات بالأدلة العصرية العلمية والطبية أو التى تستمد من واقع الناس .

ولقد لفت الإمام النظر إلى ذلك فى تقرير إصلاح المحاكم الشرعية الذى قدمه فى ٥ نوفمبر . ولو تقدم رجال الفقه بمثل هذا الإقرار للقرائن فى الإثبات لبقى للشريعة سلطانها الذى ألغى من قانون العقوبات فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٩٧ .

والثانى : أن الإمام كان قاضى نقض من أعلى مستوى فى هذه القضية - إذ لفت نظر المستشارين إلى سبق الإصرار وتخلفه .

وما يزال هذا الركن مدار الاهتمام الأول لقضاء المحكمة العليا فى القضاء الجنائى ، وبوجه خاص ، لف النظر إلى وجوب القطع باستمرار سبق الإصرار والترصد فى ذهن القاتل حتى يحدث القتل ، وسيشهد عالم القانون بعد ثلاثين عاماً عبد العزيز فهمى أول رؤساء محكمة النقض المدنى - وثانى نقيب للمحاميين - يثير زوبعة من جراء استمرار إصرار متهم يزعم التعذيب شعوره .

ويمضى عام ويتكرر التعقيب نفسه مع رئيس عظيم لمحكمة الجنايات . فى الفتوى ١٧٠ بتاريخ ١٣ ربيع أول سنة ١٣١٨ فنقرأ (سئل) بإفادة من حضرة قاسم بك أمين رئيس دائرة الجنايات الكبرى . . مضمونها أنه مرسل مع هذا . . . المتهم فيها عازر منصور بقتل اسكاروس حنا عمداً مع سبق الإصرار . . لإبداء رأيه فيها وإعادة المحاكمة قبل يوم الخميس المقبل وأجاب « اطلعت على أوراق الجناية . . . ولم أجد القرائن المحتفة بالجناية المثبتة للتهمة كافية فى اليقين التام بثبوتها ولهذا

لا تكفى للحكم على المتهم بالعقوبة المنصوص عليها في المادة ٢٠٨ عقوبات . وقد تسمح بالحكم بعقوبة تقديرية مما يلي تلك العقوبة متى صحت الدعوى والمرافعات على وجهها الشرعى . والله أعلم .

وتمضى شهور فيكتب إلى محكمة الجنايات الكبرى ورئيسها سعد بك زغلول في ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٨ - ١٠/١٠/١٩٠٠ - في الفتوى ٢١٣ - (اطلعت على القضية المذكورة في ذقنى هذا ولم أر مساعاً للحكم بالإعدام على واحد من المتهمين لأنه لا يوجد دليل يوجب الجزم بأن أحدهما بعينه هو القاتل والآخر شريك . فإن كان يراد الحكم عليهما معاً فذلك ليس مذهب أبى حنيفة بل مذهب مالك في المتألمين على القتل والله أعلم)
والمعمول به قانوناً مذهب أبى حنيفة ^(١) .

وفي ١٩ الحجة من نفس العام أجاب بصحة العقوبة . . .
ويلاحظ - وقد راجعنا نحو ألف فتوى للإمام - أن الفتاوى التى طلبت إلى المفتى بصدد أحكام الإعدام بلغت من الندرة عدداً قد ينم عن شيوع الاحتياط من تعقيبات دار الإفتاء .

* * *

في شئون الأسرة :

- في ٢ ربيع آخر سنة ١٣١٨ استفتته وزارة الداخلية في زوجات المحكوم عليهم أو إطلاق عصمتهم وتعذر الأسباب التى تكفى القاضى للفصل فى ذلك . فأجاب إجابة شافية من فقه التقرير الشهير الذى توقع فيه هذه المشاكل بعينها ، وأعد لها مشروع القانون . وأنهى إجابته بقوله : (وإنى أرسل لسعادتك هذا المشروع مع تصديق صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر ليرفع إلى الجنب الخديو ليصدر الأمر بمقتضاه ، بناء على إفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتى المالكية ، وإفتاء مفتى الديار المصرية ، وموافقة نظارة الحقانية دون إرساله لمجلس شورى القوانين لعدم الضرورة لذلك فى الأحكام الشرعية . .) .

وكما صدقت آراؤه فى تقريره صدقت فى استعجاله استصدار القانون فستبقى محتوياته أكثر من ربع قرن حتى تصدر بها قوانين !

وفتاوى الشيخ كلها من مشكاة واحدة نضرب عليها أمثالا معلمة :

(١) قدم المحكوم عليها طعناً بالنقض فى الحكم ورفض الطعن فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٠٠ برئاسة صالح ثابت باشا وعضوية دى مجلس وقاسم أمين ويوسف شوق وأحمد زيور .

- سئل عن رجل حلف بالطلاق الثلاث أن زيداً فعل كذا وبسؤال زيد عما فعله أنكر فهل يقع الطلاق ؟

(أجاب - لا يقع بهذا الحلف طلاق على الرجل المذكور . ولا عبرة بإنكار زيد الفعل المحلوف عليه . ما لم يقر الخالف بعدم إتيان زيد ذلك الفعل الذى حلف زيد أنه فعله . والله أعلم) .
- سئل عن رجل تزوج بامرأة في إحدى البلاد وأراد أن ينتقل بها إلى مصر لضرورة معيشته وأبت زوجته أن تسافر معه فهل تجبر على مرافقته ؟ (فأجاب إذا كان الزوج المذكور قد أوفاهما عاجل صداقها وكان أميناً عليها ولا يقصد بنقلها إلحاق ضرر بها كان له حق نقلها معه إلى حيث يريد . وإذا امتنعت الزوجة من ذلك الانتقال تعد ناشزة لا نفقة لها ولا كسوة . .) .

- سئل عن رجل تزوج امرأة كلما أرادت أن تزور أبويها يمنعها زوجها ويدعى أن ذلك غير جائز شرعاً . (فأجاب : لا يجوز للزوج أن يمنعها من الخروج لزيارة أبويها كل جمعة إن لم يقدر على إتيانها في منزلها . كما لا يجوز له أن يمنع أبويها من الدخول عليها لزيارتها كل جمعة . . وقال أبو يوسف . . وذكر في البحر . .)

- سئل عن رجل تزوج بطليبانية ورزق منها بولد يبلغ عمره خمس سنوات ثم طلقها وسافر خارج البلاد وبعد عودته وجدته في حالة لا تليق بمقامه ويخشى عليه أن تغرس في نفسه أخلاقاً وقواعد تنافي الآداب . . هل له أن يترعه منها ؟

(وأجاب : الحاضنة الذمية - ولو مجوسية - كالمسلمة يبقى الولد عندها إلى أن يعقل دينه وقدر على ذلك إلى سبع سنين لصحة إسلامه حينئذ . فإن خيف عليه أن يألف الكفر فيترع منها وإن لم يعقل دينه . .) .

- سئل في الدوطة عند المسيحيين (فأجاب : فكما يلزم مبلغ المهر في ذمة والد الزوج إذا أُرِم نفسه به فكذلك يلزم مبلغ الدوطة في ذمة والد الزوجة متى أُرِم نفسه بها . .) .

- سئل من إبراهيم باشا حسن عند زواج ابنه على إبراهيم رامز (الجراح الذى كان ينافس على إبراهيم باشا) من ألمانية (فأجاب بأن زواج المسلم بالكتائية جائز شرعاً) .

- سئل . هل طالب العلم يعتبر شرعاً عديم الكسب حتى ينظر في تعميم المعاملة بموجبه على كل طالب علم في الأزهر غير ذوى الماهيات والمرتبات ؟ (فأجاب : المنصوص عليه في كتب المذهب أنه إذا كان الابن من أبناء الكرام ولا يستأجره الناس فهو عاجز . وكذا طلبة العلم إذا كانوا عاجزين عن الكسب ولا يهتدون إليه . لا تسقط نفقاتهم عن آبائهم إذا كانوا مشغولين بالعلوم الشرعية وفيهم رشد . .) .

متفرقات :

- تسأله وزارة المالية عن الإعلام الشرعى وقيمته (فأجاب : الإعلام الشرعى غير كاف فى ثبوت وراثته . . لأنه لم يتضمن حكماً شرعياً صادراً فى دعوى صحيحة من خصم على خصم وشهادة بينة عادلة بل هو مجرد إشهاد) .

- وتسأله عن رجل أحيأ أرضاً مواتاً وصرف فى إصلاحه أموالاً كثيرة . . أرادت الحكومة أن تجرى صورة المبايعة لوضع اليد لإثبات التملك رسمياً . . فهل ، والحال ما ذكر ، يسوغ لأحد أن يأخذه بالشفعة نظراً للعقد الصورى الحادث فى هذا العام ؟ (فأجاب : حيث إن إحياء الموات يعطى حق الملكية لمحبيه خصوصاً وقد وضع اليد على الأرض التى أحيأها مدة ست عشرة سنة ، وهى مدة يسقط بها حق المطالبة ، فالأرض كانت بذلك ملكاً صحيحاً لمن أحيأها . ولم يكن للحكومة حق البيع . فالبيع الصادر فيها قد صدر على غير ملك لها فهو صورة لا حقيقة لها . وواضع اليد على الأرض مالك لها قبل البيع بسبب الإحياء بوضع اليد ، فتلك الصورة التى عبر عنها ببيع لا أثر لها فى إكساب حق الشفعة) .

- وسأله سائل من نابلس فى فلسطين عن طوفان نوح فأجاب جواباً يهمننا منه قوله فيه : (على كل من يعتقد بالدين أن لا ينبنى شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التى صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلى يقطع بأن الظاهر غير مراد . .) .

- ومن أشهر فتاوى الإمام تحليل الإيداع فى صندوق البريد . على اعتبار أن الحكومة تستغل أمواله على سبيل « المضاربة » . وحسب رأى مكانة فى التطور الاقتصادى أن يكون مثلاً لتجوير التعامل مع الحكومة دون اتهامها باستغلال شعبها كالمرايين . فالحكام فى جملة أمرهم خدام الشعوب والحكومات أنظمة تتغيا أن يكسب الناس . وتعمل لهم بأموالهم أو أموال بعضهم .

- ومن أشهرها كذلك فتياه باتساع عقد المضاربة لوجه التأمين الذى استفتى فيه مما أطلق أجنحة التأمين فى التعامل (السؤال . . . رجل اتفق مع جماعة (قومية)^(١) على أن يعطيهم مبلغاً معلوماً فى مدة معلومة على أقساط معينة للتجار فيما لهم فيه الحظ والمصلحة ، وأنه إذا مضت المدة المذكورة ، وكان حياً ، يأخذ المبلغ منهم مع ما ربحه من التجارة فى تلك المدة . فإذا مات فى خلالها يأخذ ورثته

(١) مجلة المحاماة السنة الخامسة (١٩٢٥) ص ٥٦٣ رقم ٤٦٠ - مجلة نور الإسلام العدد التاسع من المجلد الأول ص ٦٧٩ .

والقومية السائلة فى الفتوى هى شركة جريشام للتأمين .

أو من يطلق له حال حياته أخذ المبلغ المذكور مع الربح الذي نتج مما دفعه فهل ذلك يوافق شرعاً؟
الجواب اتفاق هذا الرجل مع هؤلاء الجماعة على دفع ذلك المبلغ على وجه ما ذكر يكون من قبيل « المضاربة ». وهي جائزة - ولا مانع للرجل من أخذ ماله مع ما أنتجه من الربح بعد العمل فيه بالتجارة . وإذا مات الرجل في إبان المدة وكان الجماعة قد عملوا فيما دفعه وقاموا بما التزموه من دفع المبلغ لورثته أو لمن يكون له حق التصرف في المال ، أن يأخذ المبلغ جميعه مع ما ربحه المدفوع منه بالتجارة على الوجه المذكور).

وإجراء المضاربة بالمال ابتغاء تعاون أمر القرآن به وحضت عليه السنة ، مادامت خالية من أسباب الفساد ، منهج سليم في الاقتصاد ، فيه من صيانة المصالح العامة والخاصة ما يستغرق خلافات المتفقهة وأقيستهم على عقود لا تصلح لقياس . وأساس نظرية التعاقد عند المسلمين حديثه ﷺ (المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو أحل حراماً)^(١) .

وأستفتى في الاستعانة بالكافرين فأجاب بما نصه :

(قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير المسلمين . وإن الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أبنائهم وما فيه خير لهم ، لم يفعلوا إلا ما اقتضته الأسوة الحسنة بالنبي ﷺ وأصحابه . وأن من كفرهم أو فسقهم فهو بين الأمرين إما كافر أو فاسق . فعلى دعاة الخير أن يحدوا في دعوتهم وأن يمشوا في طريقهم ولا يحزنهم شتم الشائمين ولا يغيظهم لوم اللائمين فالله كفيلاً لهم بالنصر إذا اعتصموا بالحق والصبر) .

واستشهد بابن خلدون وبعمل السلف من عهد عمر إلى عبد الملك بن مروان كما استشهد بالأحكام السلطانية للماوردي .

(١) يخرج الحجوى (١٣٧٦ هـ) في كتابه الفكرى السامى المسألة تخريج القاضى سعيد بن محمد بن محمد العقبانى وهو فقيه مالكى ولد بلمسان سنة ٧٢٠ هـ ١٣٢٠ م وتوفى سنة ٨١١ هـ ١٤٠٨ م فيما سمي (بقضية تجار البزعم الحاكاة) بمدينة سلا وجملة أمرها (أن تجار البز رأوا توظيف مغارم كثيرة عليهم . فاتفقوا على أن كل من اشترى منهم سلعة دفع درهماً عند رجل يثقون به ، وما اجتمع من ذلك استعانوا به على الغرم . وأراد الحاكاة منعهم بدعوى أنه يضرهم وينقص من ربحهم . قال العقبانى = فحكمت بإباحة ذلك بشرط ألا يجبر واحد من التجار على دفع الدرهم) .

فالدهرم في القضية قسط اختيارى للتعاون وليس لغيرهم أن يتضرر من تعاونهم ، ولو كانوا خياطين تضرهم أسعار القماش إذا ارتفعت .

واستفتاه٠ مسلمو الترنسفال^(١) :

في البقر يضربه نصاراهم بالبلطة حتى تضعف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله - هل يحل لحمه ؟ فأفتى بحل ذلك والله يقول (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) . . قال الشيوخ إنها هي الموقوذة المحرمة وقال الشيخ إن الموقوذة هي ما ضرب بشيء غير محدد كالحجارة والخشب حتى ماتت . وهذه ذبحت قبل أن تموت .

واستفتوه فيمن يلبسون القبة كالأجانب :

فأجاب (أما لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج عن الإسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفراً . وإذا كان اللبس لحاجة من حجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك) .

واستفتوه في صلاة الشافعية خلف الحنفية :

فأجازها (وإلا كان لأصحاب كل مذهب مسجد كالمذاهب في النصرانية لكل مذهب كنيسة)

البدع :

وفي مقال كتبه الشيخ في الثلاثين من عمره عنوانه (إبطال البدع) في عدد الوقائع المؤرخ ٣٠ نوفمبر ١٨٨٠ = ٢٧ ذى الحجة ١٢٩٧ تعليقا على فتوى لشيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية بتحريم ضرب الطبول في المساجد (الباز) أبلغتها وزارة الأوقاف إلى المساجد (. . هذه طلائع خير تبشر بحياة الشريعة الحققة . . . ولا يتوهم مطلع على أمر نظارة الأوقاف أن المنع خاص (بالباز) وطريقة السعدية أو بالطبل على الخصوص بل هو بصريح في عموم كل فعل يوجب تشويشا على مصل أو إخلالا بحرمة مسجد . ولا يخرج من حكم المنع أيضا ما يفعل من نحو ذلك بأضرحة الأولياء رضي الله عنهم . وإن لم تكن مساجد لمنافاتها للأدب الواجب في حقهم . على أن الشريعة المطهرة مانعة من أن يقرن ذكر الله بآلات هو على العموم . .

ويشمل حكم المنع أيضا الأزدحامات التي تكون بالمساجد الشهيرة في أيام تعرف بالحضرات كيومي الأحد والأربعاء بمسجد السيدة زينب ويومي السبت والثلاثاء ويوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين ، إذ يختلط فيه النساء والرجال على هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعا . . .) .

(١) كانت الفتوى الترنسفالية وسيلة لحملة من الخديو وصحفه لتأليب الرأي العام في مصر والإمبراطورية العثمانية ضد الإمام .

الدوسة :

وفي مقالين معاصرين عنوانهما (إبطال الدوسة) بتاريخ ١٥/٢/١٨٨١ = ١٢٩٨ هـ وتاريخ ٣/٤/١٢٩٨ يعود للكلام عن البدع فيقول، (ومن أفضع تلك البدع بدعة الدوسة وهي أن ينطرح الناس مصطفىين أحدهم لجنب الآخر ثم يعلو على ظهورهم أحد « المشايخ » بحصان يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهى إلى آخرهم ! وهم مسلمون من أهل الإيمان قد أقر الله بتكريمهم . . . وقد جعلهم الله في الدرجة الثالثة من عزته سبحانه وتعالى فقال : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ، فهل يليق بعد هذا أن يطرح المؤمن الشريف مهاناً على التراب ليطأه حافر من البهائم وقد نهت الشريعة عن إهانة أجساد الأموات فضلاً عن الأحياء ! . . .

أولا يعلم الجاهلون أن مصر وغيرها من البلدان قد حدث فيها من البدع المضرة بالدين ما يكاد يذهب بهجة الشريعة ، وأن العلماء في الأزمان السابقة كانوا لا يستطيعون إعلان الحقيقة خوفاً من سطوة الظالمين ؟ أما الآن . . . فلا يخش العلماء لومة لائم في إنكار المنكر . . .

تعدد الزوجات :

وفي مقال معاصر لذلك نشرته الوقائع بتاريخ ٧/٣/١٨٨١ عن حاجة الإنسان للزواج يمهّد للكلام في اليوم التالي عن حكم الشريعة في تعدد الزوجات نجد آثاره بعد نحو ربع قرن فيما كتبه قاسم أمين وبعد نصف قرن في حركة النهضة النسائية .

يقول الإمام (قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة . قال تعالى (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) . . . فإن الرجل إذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل . . . من ذلك أن النبي ﷺ كان يطاف به وهو في حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الأكتاف حفظاً للعدل . فلما كان عند إحدى نسائه سأل في أي بيت أكون غداً ؟ فعلم نساؤه أنه يسأل عن نوبة عائشة فأذن له في المقام عندها مدة المرض . فقال هل راضيتن ؟ فقلن نعم . فلم يقم في بيت عائشة حتى علم رضاءهن . . . فقد روى في الصحيح أن آخر ما أوصى به ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه : (الصلاة الصلاة . وما ملكت أيمانكم . لا تكلفوهم ما لا يطيقون . الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم - أي أسراء - أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله) . وقال : (من كان له امرأتان فالإحداها دون الأخرى - وفي رواية لم يعدل بينهما - جاء يوم القيامة وأحد شقيّه مائل) وكان

يعتذر عن ميله القلبي بقوله : (اللهم هذا (أى العدل فى البيات والعطاء) جهدى فيما أملك ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك) أى الميل القلبي . وكان يقرع بينهن إذا أراد سفراً .

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة فى القسم فى البيتوتة بإجماع الأئمة . وفيها وفى العطاء أعنى النفقة عند غالبهم . . وقالوا إن العدل من حقوق الزوجية فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعاً . . وقالوا إذا لم يعدل ورفع إلى القاضى وجب نفيه وزجره فإن عاد عزز بالضرب لا بالحبس ، وما ذلك إلا محافظة على المقصد الأصيل من الزواج وهو التعاون فى المعيشة وحسن السلوك فيها .

أبعد الوعيد الشرعى وذلك الإلزام الدقيق الجتمى . . يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلاً عن تحقيقه ؟ . .) .

ويختم الشيخ المقال بقوله : (فاللزام عليهم حينئذ إما الاقتصار على واحدة إذا لم يقدرُوا على العدل كما هو مشاهد عملاً بالواجب عليهم بنص قوله تعالى : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) وأما آية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) فهى مقيدة بآية فإن خفتم ، وإما أن يتبصروا قبل طلب التعدد فى الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل وحفظ الألفة بين الأولاد وحفظ النساء من الفوائل التى تؤدى بهن إلى الأعمال غير اللائقة ولا يحملوهن على الإضرار بهن وبأولادهن ولا يطلقوهن إلا لداع ومقتضى شرعى . .) .

* * *

وفى عدد مارس سنة ١٩٢٧ من المنار نشر الشيخ رشيد رضا أنه وجد فى أوراق الإمام الفتاوى التالية وأضاف أنه ينشرها لتصدى الحكومة لتقييد التعدد : (السؤال الأول : ما منشأ تعدد الزوجات فى بلاد العرب قبل بعثة النبى ﷺ .

السؤال الثانى : على أى صورة كان الناس يعملون بهذه العادة فى بلاد العرب خاصة .
السؤال الثالث : كيف أصلح نبيّنا هذه العادة ؟ وكيف كان يفهمها) . وذكر أن الإمام قال فى جوابه عن السؤال الثالث بعد بسط رأيه .

• (فالإسلام قد خفف الإكثار من الزوجات ووقف عند الأربعة ثم إنه شدد الأمر على المكثرين إلى حد لو عقلوه لما زاد واحد منهم على الواحدة .

وأما المملوكات فقد جاء حكمهن فى قوله تعالى : (أو ما ملكت أيمانكم) « النساء الآية ٣ » وهو إباحة الجمع بينهن ، وإن لم يكن من الرجل عدل فيهن لأن المملوكة لا حق لها . ولما لكها أن يتركها للخدمة ولا يضاجعها البتة . وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز للرجل أن يأخذ من الجوارى ما يشاء بدون

خصر. ولكن يمكن لفاهم أن يفهم من الآية غير ذلك : فإن الكلام جاء مرتبطاً بإباحة التعدد إلى الأربعة فقط وأن الشرط في الإباحة التحقق من العدل . فيكون المعنى : أنه إذا خيف الجور وجب الاقتصار على الواحدة من الزوجات أو أخذ العدد المذكور مما ملكت الأيمان فلا يباح من النساء ما فوق الأربع على كل حال . ويباح الأربع بدون مراعاة للعدل في المملوكات دون الزوجات لأن المملوكات ليس لهن حق في العشرة على ساداتهن . . . (١) .

والشيخ يضيف إلى ما فات قوله : (أما جواز إبطال هذه العادة (أى عادة تعدد الزوجات) فلا ريب فيه . أما أولاً فلأن شرط التعدد هو التحقق من العدل وهذا الشرط مفقود حتماً وثانياً قد غلب سوء معاملة الرجال لزوجاتهم عند التعدد وحرمانهن من حقوقهن في النفقة والراحة ولهذا يجوز للحاكم وللقيام على الشرع أن يمنع التعدد دفعاً للفساد الغالب - وثالثاً : قد ظهر أن منشأ الفساد والعداوة بين الأولاد هو اختلاف أمهاتهم . . .

ولهذا يجوز للحاكم أو لصاحب الدين أن يمنع تعدد الزوجات والجوارى صيانة للبيوت عن الفساد .

نعم . ليس من العدل أن يمنع رجل لم تأت زوجته منه بأولاد أن يتزوج أخرى ليأتى منها بذرية فإن الغرض من الزواج التناسل . فإذا كانت الزوجة عاقراً فليس من الحق أن يمنع زوجها أن يضم إليها أخرى ، وبالجمله فيجوز الحجر على الأزواج عموماً أن يتزوجوا غير واحدة إلا لضرورة تثبت لدى القاضي ولا مانع من ذلك في الدين البتة . وإنما الذى يمنع ذلك هو العادة فقط) .

* * *

ولم يخالف الشيخ الناس إلى ما ينهاهم عنه . فقد اقتصر إنجاب زوجته على بنات ثلاث وولد مات فقر عيناً بها وبهن وصحبها في منفاه حتى توفاه الله ، فتزوج ورزق بنتاً رابعة وبقيت زوجته وحدها معه حتى وفاته .

وجرى أصحاب الإمام على أثره فدلوا على الوحدة الفكرية الكاملة في أخص شئونهم فسعد زغلول لم ينجب ولم يتزوج غير أم المصريين . وقاسم أمين والهللأوى وحسن عاصم وعلى فخرى وحسين رشدى وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت ومحمد محمود ولطفى السيد ومحمد يوسف وعثمان يوسف وهيكى وطه حسين ومنصور فهمى ومحمود عزمى والشيخ محمد مصطفى المراغى ومصطفى عبدالرازق

(١) فى هامش النار (هذا هو المنصوص فى فقه المذاهب المشهورة . ولكن قالوا إن ما يجب للزوجة يستحب للسرية . وفى كتب الخنابلة نقول تفيد أنه يجب على السيد أن يحصن مملوكه ومملوكه بالزواج بشرطه) .

وعلى سرور الزنكلوني وعلى عبد الرازق ومحمود شلتوت لم يكن لواحد منهم في عصمته أكثر من زوجة واحدة .

وسبق رفاة رافع الجميع فتزوج بنت خاله وكتب لها وثيقة أنه إذا تزوج عليها طلقت . ولم يتزوج غيرها بل صاحبت طول حياته .

التصوير والنحت :

وللشيخ بيان أشبه بالفتوى يبيح بها التصوير والنحت في مقال كبير عن رحلته إلى صقلية ^(١) إليك فقرات منه فيها « صورة » فتوى :

(لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج . . هل تدري لماذا ؟ إذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوينه والمبالغة في تحريره خصوصاً شعر الجاهلية وما عني الأوائل رحمهم الله يجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل فإن الرسم ضرب من الشعر المرئي يرى ولا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى . إن هذه الرسوم قد حفظت من أحوال الأشخاص في الشئون المختلفة من أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . يصورون الإنسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا والطمأنينة والتسليم . وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها عن بعض . ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً يصورونه مثلاً في حالة الفزع والجزع . والخوف والحشية . والجزع والفزع مختلفان في المعنى ، - ولم أجمعها هنا طمعاً في جمع عينين في سطر واحد لأنها مختلفان حقيقة - ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينها وبين الخوف والحشية ، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع وما الهيئة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . أما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك . إذا نزع نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصراحة في قولك رأيت أسداً ، تريد رجلاً شجاعاً ، فانظر إلى صورة أبي الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلاً أو الرجل أسداً . فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم في الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها . .) .

(١) يظهر حنين الإمام إلى الماضي العظيم لصقلية في مقاله . لقد فتحها للمسلمين « قاضي المسلمين » أسد بن الفرات على رأس الأسطول العربي . وازدهرت فيها الحضارة الإسلامية وبقيت للعرب السلطة نحو ثلاثة قرون وهي - كالأندلس - رأس جسر غزا به العرب عقل أوروبا . منذ سقطت بلرم سنة ٨١٣ للميلاد في يدهم وامتد نفوذهم إلى روما سنة ٨٤٦ ويقوا في صقلية حتى سنة ١٠٩٢ وأنشئت جامعة نابولي لترجمة العلوم العربية .

ثم ينتقل من البلاغة إلى الفقه « بتصوير » سؤال وإصدار « فتوى » .

(ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهي ما حكم الصور في الشريعة الإسلامية إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجسدية هل هذا حرام أو جائز أو مندوب أو واجب ؟

فأقول لك : إن الرسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد مُحى من الأذهان . فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة وإما أن ترفع سؤالاً إلى المفتي وهو يجيبك مشافهة فإذا أوردت عليه : (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون) أو ما في معناه مما ورد في الصحيح ، فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسبيين : الأول اللهو والثاني التبرك بمثال من ترسم من صورته من الصالحين . والأول مما ينقضه الدين والثاني مما جاء الإسلام لمحوه . والمصور في الحالتين شاغل عن الله أو ممدد للإشراك به ، فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات . . . وقد صُنِعَ ذلك في حواشي المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء مع أن الفائدة في نقش المصاحف موضوع لنزاع . . أما فائدة الصور فما لا نزاع فيه . . .

وبالجملة إنه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين . لامن جهة العقيدة ولا من جهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها ! وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم بالأولياء . . لا شك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد وبين صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية . .) .

البَابُ الخَامِسُ

خيانة الخديو

(واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك
بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ولو
اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه
الله لك . . .)

حديث شريف

لو وقف التاريخ عند نفي الأستاذ الإمام مرة أخرى في شبابه لسلكه بين أتراب له من زعماء الثورة
الفرنسية قضوا نجيبهم في زهرة العمر . . . ولو وقف عند إرسائه دعائم الدولة والأمة لسلكه بين لدات
من « الآباء المؤسسين » في الثورة الأمريكية ، أو عند إصلاح الأزهر ، لخصه بأنه (المعطى دم
الشباب) للجامع الهرم . أو عند الاهتمام الخاص والعام باللغة وعلومها لسجل له أنصع الصفحات
لاهتمامه بالإسلام ولسان القرآن . أو عند إصلاح القضاء الشرعى ، لخلده خلود القيم التى تقوم عليها
الأسرة وهى نواة الأمة . أو عند تفسيره للقرآن ، لخلده خلود المعانى التى لفت إليها أنظار عصره وكل
عصر بعده .

لكن حياة الإمام إمام . تهدى بالفعل والقول وبمجرد الوجود على الأرض ، مركز ثقل يحفظ
للدنيا توازنها .

الزعيم فى البرلمان :

فى ٢٥ / ٦ / ١٨٩٩ عين الإمام عضواً فى مجلس الشورى وكانت الحكومة ناشزة عليه ، فردها
الإمام إليه بحكمته ، وظفرت الحياة البرلمانية فى مصر بسنوات خمس ، حدثنا عنها زميلاه فى المجلس
وفى الجمعية الخيرية .

قال حسن عاصم ليبين موقعه من الدولة والأمة والحكومة : (كان بين أهل الحل والعقد فى
الحكومة وبين مجلس الشورى شيء أشبه بالخلاف فى الرأى أدى إلى أن الحكومة نفذت كثيراً من

المشروعات التي كان المجلس يرى الخير للأمة في عدم العمل بها . وصرفت النظر عن كل أوجه التعديل التي كان المجلس يرى أن الصلاح والنفع للأمة في تعديلها .

فلما جاء الأستاذ إلى المجلس ونظر في الأمر نظرة الحكيم البصير ، وعرف أنه ليس هناك ما يدعو إلى هذا الانفراج ، وإنما هو سوء التفاهم باعد بين المشارب على تقاربها ، سعى رحمه الله في أن يزيل أسباب هذا الخلاف وكان ما أراد . وعرفت الحكومة أن المجلس إنما يطلب ما فيه سعادة الأمة ويتغنى الخير لها . وأن ليس لها غرض في مصادمة آراء الحكومة ومطالبها مادامت تتفق مع مقصده . وعلم المجلس أيضاً أن الحكومة لا تقصد إلى شيء وراء ما يقصده لمصلحة البلاد ، وبذلك اتفقت الكلمة في الغالب . ولم يعد بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف ما يعسر حله .

لقد كان عند قيام الثورة يخشى على الأمة عجزها عن الانتفاع بالحكم النيابي ، ولما صار واحداً من نوابها وافته الفرصة لإثبات قدرتها ، وألقى الجميع إليه مقاليد القيادة . . قال حسن عبد الرازق ليبين مقامه في الزعامة وكيف وضع « المشرع العظيم » تقريره العظيم لإصلاح القضاء الشرعي موضع التنفيذ ، وكأنما كان يسابق الزمن :

كان (واسطة العقد في مجلس الشورى والتفت حوله القلوب وعرف الكل مكانته وكان إخوانه في مجلس الشورى يلجئون إليه إذا اشتبه الأمر وخفى الصواب . . وكان منذ نقله إلى وظيفة الإفتاء لا يزال يلفت نظر الحكومة ويلح عليها لتلافي هذا النقص (عيوب نظام المحاكم الشرعية) فعهدت إليه أن ينظر الأمر . . . وشكلت لجنتين تحت رياسته : الأولى مركبة من أفاضل العلماء والثانية مؤلفة من أكابر رجال العلم والعمل أيضاً . وكلفتها بوضع مشروع لمدرسة القضاء الشرعي . فكان رحمه الله مع ما فيه من المرض يواصل العمل في ليله ونهاره حتى أتمه ورفعته إلى الحكومة قبيل قيامه إلى الإسكندرية ببضعة أيام والله يعلم ما سيثول إليه بعده أمر هذا المشروع الخطير^(١) .

ومجمل ما يقال إنه لم يعمل في المجلس مدة وجوده عمل إلا كان له فيه الرأي الرشيد ، والقول السديد . وما انتخبت لجنة في مشروع إلا كان أول المتخبين . ولم يتألف وفد لمفاوضة الحكومة إلا كانت له الصدارة . . إذا عرضت المشروعات القانونية كان بها خبيراً بصيراً . وإذا قدمت اللوائح

(١) تكفل سعد زغلول بالمشروع إذ صار وزيراً للمعارف سنة ١٩٠٦ وأعد قانوناً بإنشاء المدرسة فأنشئت ورأسها محمد عاطف

بركات باشا ، وخرجت الجيل العظيم للقضاة الشرعيين . أما إصلاح القوانين فتكفلت به لجان تابعت على مدى النصف الأول من القرن العشرين .

الإدارية لم يكن أقل من أهلها علماً بدقائقها وإذا جاءت المسائل المالية رأيته ماهراً بأساليب الحساب عارفاً بفنون الاقتصاد . . كالقطر حيثما وقع نفع .

* * *

ولئن كان اهتمام المجلس التشريعي والحكومة بالقضاء اجتماعاً للسلطات الثلاث في الدولة على الإصلاح بعمل الإمام في المجلس الذي صار عضواً فيه ، أوكان هذان الاهتمام والاجتماع هما رجع الصدى لصوته في التقرير الشهير ، أوكان جهاده الديني بإصلاح الأزهر وتطهير العقيدة ، وتحرير الفكر ، وتفسير القرآن ، عمله اليومي طول حياته ، إن جمعه بين اللغة والدين في منهاجه التعليمي وبين تقنين المعاملات وتقنين أحكام الأسرة في التقرير المشار إليه ، هو في واقع أمره ظاهرة دستورية يقدمها إمام العصور الحديثة للأمة العربية عامة ، ومصر خاصة ، لتمسك بمقوماتها السياسية والاجتماعية . فهذه الأمور الثلاثة (الدين والشرعية واللغة) أمور « تأسيسية » « أو دستورية » لا كيان من دونها لدولة عربية .

ولما أخذ واضعو دستور سنة ١٩٧١ إخذه في أواخر القرن العشرين مستجيبين لإصرار الأمة بعد تجارب مخففة بدساتير متعددة من أول القرن ، دلوا على سبقه بمقدار قرن في الفكر الدستوري للأمة ، وعلى سبقه الأعظم بتنفيذ ذلك بنفسه في الأمور الثلاثة وجمعه بينها في ميادين كفاحه . وآية ذلك نص المادة الثانية من دستور مصر سنة ١٩٧١ (الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية ومبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع) .

وبالشريعة التي تحمي القيم الإسلامية وتجتمع عليها الأمة العربية ، والدين الذي تتمثل فيه عقيدتها الجامعة ، وباللغة التي ترتبط بها ألسنتها وأفكارها ، نشأت القومية العربية . ولا قيام للوحدة العربية بغير هذه العناصر الثلاثة . فالقومية والوحدة العربيتان شهدان كذلك بالسبق لإمام العصور الحديثة .

* * *

ولئن كان عجباً سبق الإمام في أمور دستورية ، إن الأعجب أن يكون « رجل إدارة » لا ضريب له . والإدارة أعقد من الزعامة والقيادة . إذ هي تنفيذ يومي يجري على أيدي رجال آخرين ، كثيرين كثرة عملهم في أجواء شتى ، بين تيارات متعارضة ، لمصالح مختلفة الغايات والوسائل ، على وجه الدوام . والإدارة أشد تعقيداً إذا كان المدير عالماً في الدين مطلوباً منه الأداء العادل والشرعي ، أي النموذجي ، لكل حركة وسكنة . ومن ذلك تجري العادة ألا يكون رجل الدين أو التشريع أو القضاء أو التعليم أو الفنون (رجل إدارة) أو (رجل دولة) .

ونجاح الإمام في إدارته وصحبه للجمعية الخيرية ، أو لمجلس إدارة الأزهر أو الأوقاف أو لوظيفة الإفتاء ، أو لنشاط مجلس الشورى ، ليس إلا تكرار أو استمرار نجاحه في إدارة الوقائع المصرية وتوجيه محرريها الخالدين وهو في الثلاثين من عمره . وكان إصلاحاً قومياً انتهى إلى تحريك شعور عام أورأى عام أشاد به في مذكراته ^(١) .

لقد قدر على نفسه ، فقدر على قيادة القادة . ودار منذئذ في الفلك الخاص به وأمسى لا تبغته عزيمة وتواتيه سعة أفقه في كف الظالمين عن ظلمهم فينصفهم من أنفسهم وينصف الناس منهم ، ويتصر للحق والحقيقة . ويدفع الطواغيت إليهما ، بهدوء وثقة :
إليك أمثالا :

يستنصحه كرومر في موضوع النيابة العمومية المعروض على مجلس الوزراء برياسة الخديو لإقراره ، وقد سبق أن تحدثنا عنه ، وما كان ذلك إلا صيغة في طلب تأييده للمشروع . فلا يفلح دهاء الدهى في إبلاغه غرضه ، ويعلن الشيخ وجه المصلحة العامة ويسوق إليه الطاغية عن طريق مصلحته الخاصة !

ويعوذ به الخديو يوم عزم كرومر سنة ١٨٩٨ أن يمنع دولة الخلافة تعيين القاضي الشرعى لمصر . وكان ذلك آخر مظهر لعلاقة مصر بدولة الخلافة والخديو لا يرى قطعها لحساب المحتلين وبمناسبة شرعية . فينصحه محمد عبده أن يعلن لكرومر أن « الضمير الدينى » يمنعه أن يتصرف ذلك التصرف . فتراجع الطاغية . ولم تنقطع العلاقة الشرعية إلا بعد إعلان إنجلترا حمايتها على مصر سنة ١٩١٤ . وذات يوم هرول إليه الخديو يخبره أن الطاغية مصمم على اقتحام قصره بحثاً عن رجل أرمنى (ليون فهمى) زور أختام دولة الخلافة في إسطنبول ، وطلبت إسطنبول إحضاره من مصر ، فجمع

(١) قال (وأول مابدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التى كانت متبعة فى النظارات والإدارات . فأخذت تبين وجه الخلل فيها وإضرارها بفهم المعانى المطلوبة منها .

فلم تمض بضعة أشهر حتى ظهر فضل ذوى الإلمام باللغة العربية من موظفى الحكومة . وخصهم رؤساؤهم بمخاطبة الجريدة الرسمية سراً لعيوب الإدارات . واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير وعم ذلك المديرىات كما عم النظارات (الوزارات) وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير فى مصالح الحكومة ومازال يتقدم إلى اليوم . وهكذا كان شأن الجرائد . . . كانت تتسابق فى إظهار مزاياها فى التحرير حتى ترضى إدارة المطبوعات . وصلح بذلك كثير من أساليب الجرائد التى لم تكن لها عناية بتهذيب العبارات وتسابقت الأقلام فى تنقيح الألفاظ وضبط المطالب فتمت بذلك نهضة التحرير التى كانت بدأت من سنين وكان الضعف يقعدها والخوف يرعدها .

سهلت بذلك المواصلات بين الأنفس فى الأفكار . وخف عليها التعبير عما فى الضمائر وكثر الكتاتيون وغزرت مادة المتكلمين وتيسر التعارف بين المتباعدين ونشأ فى الناس نوع من الألفة أحدثه الشعور بجماعة اللغة . وبعد أن كان نظر الواحد منهم لا يجاوز شخصه أصبح وهو يشرف على فضاء يسع أمته . وأخذ يشعر بأن له حركة عامة فى المقصد العام كما أن له حركة خاصة إلى الغرض الخاص . . .) .

الشيخ بين الحقيقة والحق في نصحه . فأشار على الخديو بأن يستوثق مما إذا كان الرجل موجوداً أو غير موجود في قصره أو في اليخت (المحروسة) الذي قد ينقله إلى إسطنبول ، فإذا لم يكن موجوداً أعلن الخديو للملأ أن كرومر يريد اقتحام قصره وأنه يرفض ذلك وإنما يأذن لعميد القناصل أن يفتش ما شاء . . فتراجع الطاغية مخافة أزمة ، وغلّى الخديو سبيل الرجل .

في مصر وخارج مصر :

والشيخ أشد فتاء ومضاء إذ يحذر من الخمسين إلى الستين . تبحرته المناصب العالية منقاداً فيحوها من « مراكز قيادة » إلى « مواقع عمل » ويجعل « السلطة » التي له « مسئولية » عليه . آتاه الله صحة نفس وجسم راضها بالتصوف . وفؤاداً كله التقوى والشجاعة والزهد فيما يتكالب عليه بنو الدنيا . فلا تتسائل من أين جاءه الوقت ، والطاقة ، والتوفيق ، ليجمع بين كل أعماله وليجعلها مصداق أقواله ، مع الاستكثار من تبعاته ، وتلقيه التكاليف من نفسه وزيادتها بازدياد فرصه في مواقع عمله :

ساعتان في كل درس ، خمس ليال في كل أسبوع ، طوال أعوام ستة ! يحتاج التحضير لها إلى أيام وليال مع التفرغ الكامل . فوق أعمال المجلس التشريعي الدائب الدائم وأعمال مجلس إدارة الأزهر المقيم في « موقع العمل » . وآمال أمة تطلب لدى الجمعية الخيرية تعليماً لا تقدمه الدولة وأموالاً تعين القانع والمعتز . ودار إفتاء لا تتوقف عن الجواب عما يرد من شتى الأرجاء ، والتفسير القرآني يطبع ، والأبحاث والترجمات تترى في مجلة المنار فتجلجل في الآفاق والشيخ تلاحقه « الملازم » . . ويكتب من أوربا إلى تلميذه رشيد رضا^(١) (١٩٣٥) أو من مصيف رأس البر فيقول عن رأسه ورأس البر (رأس البر لا عقل فيه ولا عمل . ذلك لا يمنع إرسال ملازم التفسير . كلام الله يرد القار من العقول ويعمر الخراب منها)

وثمة (الدرس العالي الخاص) في الدار ومن حضاره قاسم أمين ومحمد كرد علي وشفيق العظم وإسماعيل صبرى وفتحى زغلول وأحمد الحمصاني وأحمد إبراهيم وفيه ينقد مجلس النظار فيسميه (جمعية الصم البكم) ويقول عن الكبراء (هؤلاء الشاغلين للوظائف الكبيرة التي يدعون بها كبراء .

(١) ولد سنة ١٨٨٦ وأتم تعليمه بطرابلس بلبنان ولقي الأستاذ الإمام في مصيفه سنة ١٨٩٤ ومعه فتحى باشا زغلول ثم قدم إلى مصر مهاجراً فلزمه واستشاره في إصدار مجلة إسلامية فاستحسن الإمام أن يكون اسمها (المنار) وساعد على نشرها وجمع المشتركين لها . وأوصاه ألا يكتب في السياسة واختصها بمقالاته وترجماته وإرشاداته وفيها نشر تفسيره . وللشيخ رشيد بهذا درجة بين تلاميذ الإمام .

نحن نستخدمهم ولكن لانخدمهم) وفي المجلس فقه وأصول وبلاغة وسيرة وغير ذلك .
ويستعمل حافظ إبراهيم تصوير الإمام لمجلس الوزراء في وداع كرومر عند استقالته عقب حادث دنشواي فيقول له :

يناديك : وليت الوزارة (هيئة من الصم) لم تسمع لأصواتنا صدى
ويتجلى الإمام في فن التراجم^(١) حيث ينساب الفيض الإنساني في الكلمات ، وتجري الحياة في
الترجمات . وينتهاز الفرص ليعلم ويلفت النظر ويقضي حق عظماء جيله . كمثل ما كتب عند موت
الشيخ علي الليثي شاعر الخديو إسماعيل ، لينبه الخديو الذي حل محل أبيه وجده ، وبينه الوزراء
والعلماء والشعراء قال .

(. . .) وأول قول قاله للخديو (توفيق) أن نصحه قال : قد أمكنك الله من رقابهم (الثوار)
وأجدر بك أن تغفر عنهم فتملك أفئدتهم بالرحمة ، وتستعبد أحرارهم بالإحسان . ذلك خير من أن
تدمي قلوبهم بالعقوبة وتورث العداوة أعقابهم . .) مكانة من الشجاعة لم يصعد إليها أحد غيره ،
ومنزلة من الفضل وحب الخير لم تسع معه سواه . (شعربعض محبي الانتقام من الوزراء . . . فأرسل إليه
يطلب منه أن يذهب إلى أملاكه في ناحية الصف ليقيم بها . ورأى من الخديو رغبة في ذلك . فانطلق
مغاضباً ولزم بيته ينظر في شتونه نحو سنة من الزمان . وأفاق الخديو مما كان غشيه . فطلب من الشيخ
رحمه الله أن يأتي إلى حضرته فأبى أن يجيب طلبه . وترفع أن يبادر إلى أمر كان غيره يلتمس إليه
الوسائل ، ويستشفع إليه بالحق وبالباطل . واستمر يتحصن بعزة نفسه إلى أن وافاه الخديو في عزبته
بالصف مصحوباً بحرمه ، وحاشيته وحشمه ، فأكرم الشيخ لقاءه وعاد بعد ذلك إلى الإخلاص في
ولائه) .

والبرد في غدو ورواح بينه وبين العلماء في أقصى الأرض وأدناها حول الشعر والأدب والاجتماع
وفلسفة الأشياء ، يقرظ المؤلفات ويعلق على الترجمات ، ويزجي أبلغ الثناء على المتبرعين للغرض
العام ، ويخص علماء العالم الإسلامي بكفل من اهتمامه ، مسلمين ومسيحيين ، فإبراهيم اليازجي^(٢)
وسليمان البستاني وأسرتها أصدقاء دائمون . من عهد بيروت .

وفي بيروت كان القس إسحق تيلر يدعو لتوحيد الأديان ويشي عظيم الثناء على الإسلام ، ومن

(١) من تراجمه ترجمة للشيخ الرضي في مقدمة نهج البلاغة - وللسيد جمال الدين - وللبارودي - ولرياض باشا - وترجمته
لنفسه .

(٢) عالم لغوي مسيحي قضى حياته في بيروت يهز بشعره الوطني الأمة العربية . هاجر إلى مصر في أواخر حياته . له كتاب (نجمة
الرائد في المترادف والمتوارد) كان شعره يسجل في منشورات سرية . أصدر في مصر مجلة البيان - مات سنة ١٩٠٦ .

مصريكتب الإمام إليه (أنت أول رئيس ديني صدع بالحق في أهل ملته . . وأن هذا الأمر الذي قمت به لعظيم الفوائد . . تحس منه تحرك أهل الملتين إلى الملاقاة على صراط الوحدة . .)

ويرد على خطاب له بقوله : (كنت في القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التي أجمع عليها أهل الأديان الثلاثة . وفيها يرى الزائر كأن دوحة واحدة هي الدين الحق تفرعت عنها . .) .

ويتزل الفيلسوف الروسي (الكونت تولستوى) عن ماله كله للفقراء ويسبح في الأرض سياحة الصوفية القدماء : إبراهيم بن أدهم وشقيق وبشر الحافي . فتوقع عليه الكنيسة عقوبة الحرمان ، فتمتد بصيرة الشيخ إلى بعيد ليربط بين القيم التي يفسرها القرآن لقومه في الرواق العباسي وبين ما يجب على الأمراء والعلماء والقساوسة والناس قاطبة ويكتب إلى تولستوى .

(عين شمس في ١٨ أبريل سنة ١٩٠٤ .

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى . . وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون كان مثالك العمل إماماً يهتدى به المسترشدون . وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء كان مدداً من عناية الله للفقراء . وإن أرفع مجد بلغته وأعظم جزاء نلته على متاعبك في النصيح والإرشاد هو الذي سموه بالحرمان والإبعاد ، فليس ما كان من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين - مفتى الديار المصرية محمد عبده) .

في هذا الخطاب جلى محمد عبده لتولستوى صورته ، وجلى لنا حقيقة محمد عبده ، في جسارة رام يصيب بطلقة واحدة ، أهدافاً متباعدة ، في قلوب الحكومات والجماعات ، فيندد بالأغنياء وينوه بالفقراء ، ويقرن اسمه بوظيفته (مفتى الديار المصرية) ، وهي دولة رأسمالية على رأسها صاحب ملك عريض وفي مرافقها جيوش من المستعمرين . بل يندد برجال الكنيسة الذين قرروا حرمان الفيلسوف ويعتبر الحرمان الديني من القساوسة ، أعظم كسب ناله المحروم ! ويعلن أنه ليس من الضالين ليكون القساوسة - بمفهوم المخالفة - هم الضالين .

ومن ناحية أخرى كان صدى صوته يصدع مسامع الخديو ، مذ كان في ربيع العام ذاته يأكل مال الأوقاف بالباطل ، ويضن بها على عمال المساجد وأئمتها ، والشيخ يطره بالاحتجاجات في شكل قرارات أو مذكرات إلى مجلس الأوقاف .

ولا يشنيه الألم من ظلم صاحب العرش في مصر عن الأمل في خدمة العلم عند صاحب العرش في مراکش ، فيكتب إلى مولاي عبد العزيز يطلب أصلاً من « مدونة مالك » لتطبعه جمعية إحياء

الكتب العربية التي يرأسها - وهي أولى جمعيات إحياء التراث الإسلامى - فيذيع بعملها فيقول :
(. . .) وخاصة عملها أن تبحث عما كان يفقد من كتب السلف وتصحيح نسخه وتطبعه حتى يحيا
بذلك ما اندرس من علوم الأولين . . . وهي الآن تبحث عن مدونة الإمام مالك . . . وقد تأكد الفقير
(يقصد نفسه) أن نسخة كاملة من الكتاب توجد في جامع القرويين . . .)

ولا تنام عينه عن المجاهدين : يقول في رسالة جوابية إلى عبد الحميد الزهراوى من مجاهدى
حمص بسورية : (فأنت حيث أنت أنفع ما تكون لقومك ، تجعل لهم حظاً من عمل يومك . .
أسأل الله أن يشد أزرك . . . وأما صلتنا فصلة آمال وأعمال وهي خير صلة) .
وعبد الحميد الزهراوى واحد من الأبطال الذين سيقطع الأتراك رؤوسهم في الساحة العامة سنة ١٩١٦ .

* * *

والشيخ يستقبل الصحفيين الأجانب والمصريين والمستشرقين . وقد يجود الزمان على صحفى
إنجليزى بمشهده على ظهر جواده في صحراء عين شمس أوفى طريقه إلى داره فيصوره لنا في (صورة
إنسان يقول الناظر إليها إنها برزت من كتب الأنبياء الأقدمين شيخ حسن البزة جهير يمتطى فرساً كميتاً
جميلاً يقبل نحونا على مهل) . والرسول عليه السلام يقول « عليكم بكلّ كميّة أغر محجل » .
والشيخ يصطاف في كل عام بأوروبا أو إسطنبول أوفى الشام وفي صحبته تلاميذ له أوفى
الإسكندرية أو رأس البر حيث يصطاف معه قاسم أمين ، وكان يقول : إننى أجدد نفسى بالسفر .
وفي سنة ١٩٠١ رجع من أوروبا فاستقبله مصطفى لطفى المنفلوطى بقصيدة شفت عن مواقف
خصومه . وتقاطر الناس لاستقباله على محطة القاهرة ، وكثرة عمام الأزهريين فيهم تستوقف النظر .
وانطلقت الوفود تترى إلى داره بعين شمس حتى لتزيد قطارات السكة الحديد لمواجهة تلك المناسبة .
وفي سنة ١٩٠٣ عاد من رحلته للخارج فاستقبله تلميذه مصطفى عبد الرازق - وكان في الثامنة
عشرة - بقصيدة مطلعها :

أقبل عليك تحية وسلام ياساهراً والمسلمون نيام

فكتب إليه الإمام :

(ولدنا الأديب :

خير الكلام ما وافق حالا وحوى من النفس مثالا . تلك أبياتك العشرة رأيتنى والحمد لله متربعاً
في سبعة منها كأنها الكواكب التى تسكنها الملائكة وما بقى كأنه الشهب نور للأحياء رجوم للأشقياء . .
ما سررت بشيء سرورى بأنك شعرت من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك . ذلك أنت
ولله أبوك .

ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ وجه الفضاء . ولكنى أكتفى بالإخلاص في الدعاء أن يتمتع الله من نهايتك بما تفرسته في بدايتك . وأن يخلص للحق شرك ويُقدرك على الهداية إليه وينشط نفسك لجمع قومك عليه . والسلام^(١) .

واستجابت السماء فأمرسى مصطفى في نهايته - كما كان طول حياته - خيراً كله خالصاً للحق سره .

وتكاثر على يد الرجل الصالح أمارات عطف السماء بالاستجابة للدعاء والرجاء .

ففي سنة ١٨٩٩ عين عضواً في مجلس الشورى ، وكان رئيسه عمر لطفي باشا وقد أسلفنا اتهامه له وللمخديون بالتآمر على الأمة سنة ١٨٨٢ . فكان الإمام يدعو الله أن يجد له مخرجاً حتى لا يوجه إليه كلمة وتأجلت الجلسة الأولى إلى أول أغسطس ومات الرئيس في ١٧ يوليو .

ويروى الشيخ مصطفى قوله إذ ترك إدارة الأزهر سنة ١٩٠٥ (يظنون أنني بخروجي من الأزهر تركته مرعى خصيباً لشهواتهم (يقصد الخديو) ترتع حيث تشاء . إلا أنني ألقيت بين جوانح هذا المكان شعلة لا تنطفئ . إن لم تلتهب اليوم أو غداً ، فستلتهب في ثلاثين عاماً فتكون ضراماً) .

وفي أقل من نصف هذا الأجل قامت ثورة سنة ١٩١٩ بقيادة تلاميذه . وكان الأزهر ضراماً يلهبه تلميذه « الشيخ الزنكلوني » إذ يخطبه . وفي سنة ١٩٣٠ صب الزنكلوني غضبه على الملك فؤاد ، ففصله وعشرات من تلاميذه العلماء .

* * *

والشيخ قارئ لا تغمض عيناه عن الصحف الواردة من الخارج وقد يترجم ما يعجبه لينشر في

(١) أثر هذا الفيض من المحبة في تنشئة التلاميذ ليس له حدود . وهو الذي زاد العلاقة بينهم وبينه وثاقة . اقرأ كتابه القصير إلى أمير البيان شكيب أرسلان (١٨٧٩ - ١٩٤٦) - تلميذه في المدرسة السلطانية إذ يكتب إليه شكيب - بعد عامين من تركه المدرسة - يستشير في القدوم إلى مصر .

(حضرة الأمير الفاضل - من نحو ساعة وصلني رقيمك . . . وقد زال عني ما كنت أجد من تأخر رسائلك . . . وكان أحب إلي أن تسبق كتابك . . . أما الفخام فلا أرى فيهم فخيماً وسواء لا قيمهم أم لم تلقهم فأت عندى أفضل من جميعهم . وإنك إن تلقهم لم تلق شيئاً . فتعال وليكتف كل منا بصاحبه . . . وأما المصارييف فلا تحتاج فيها لغير المراكب والوابورات حتى تصل إلى القاهرة . . . وأقم ماشئت فلن نجد سائماً ولا مالاً ولا متبرماً . فقم في أول وابور إن شئت والسلام - ليلة ٩ فبراير ١٨٩٠) .

ويروى الأمير شكيب أنها مرا ذات ليلة أمام دار فيحاء فوقف الإمام وقال : هذا بيت صاحبنا . وتهد . . . دار محمود سامي (البارودي باشا) وقال شكيب : لم يتهد على غربة سامي . بل على غربة مصر .

ولم يجمعه الإمام بالفخام بل زار معه سعد أفندي زغلول - وكان محامياً - والشيخ علي اللبني . فهذان مستقبل مصر وماضيها . وأصبحه الشيخ عبد الكريم سلمان ليزور بعض العلماء فلاحظ على الشيخ الأحمدي الظواهري أنه لا يعرف أين يوجد جبل لبنان . في الغرب أم في الشرق .

مجلة المنار^(١) وعينه على صحف الداخل يقرأ مقالاً عن انتخاب الجنرال جارفيلد رئيساً للولايات المتحدة فيكتب (. . إن هذا الرجل لم يصل إلى ما وصل إليه بلزوم أعتاب الكبراء . . هكذا يرتفع أبناء الأوساط والآحاد من الناس بالصفات الفاضلة وسعة المعلومات وبذل الجهد فيما يعود على البلاد من الخير) .

ويقرأ في جريدة المؤيد سنة ١٩٠٠ ترجمة لمقال (هانوتو) وهو وزير خارجية سابق لفرنسا يزرى فيه بعقائد المسلمين ليبرر استعمار بلادهم فرد عليه الإمام بقوة . واستفتح بنقى التزاهة العلمية للباحث ، بقده كآته مدح قال :

(قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو تميمياً لبحثه السابق - وبحثه دافق من غيرته على شئون دولته) واستطرد لمناقشة قوله إن فكرة (الإله الإنسان) ترفع قيمة الإنسان وتدفع إلى الجد والدأب وإن عقيدة المسلمين في القضاء والقدر تدفعهم إلى الخمول .

ومن حجج الشيخ الكثيرة في رده واحدة تكفي لإدحاض رأى هانوتو وهي أن بالقرآن ٦٤ آية تثبت حرية الإرادة الإنسانية - فالإجبار الذي نسبته هانوتو إلى المسلمين ليس من الإسلام^(٢) وهو في غير موضع ينبه على أن السعادة التي يعيش فيها الآخرون مفتراة . يقول : (قد يمر بخاطر الإنسان أن يسأل . . . وما بالناس نرى من غير المؤمنين من متع بالسعادة في هذه الدنيا أمما وأفراداً وترى من المؤمنين من يغمره الشقاء أمما وآحاداً . . . فندفع عنه الخاطر بأن ما يراه في بعض الأمم من ظاهر السعادة ليس إلا لمعان السراب . . . قال ماكس نوردو في كتابه المسمى (الأكاذيب العرفية لتمدنا) .

(إن الناس كانوا ولم يزالوا يطلبون الحق ولم يكونوا في زمان أبعد عنه منهم في هذا الزمان) ثم قال ما ترجمته « أنك لو طرقت أى باب تسأل : هل مرت السعادة بهذا البيت لأجابك مجيب : إذا شئت فاطرق باباً آخر فإن السعادة لم تمر ببيتنا » وهو يقول ذلك بعد أن ذكر حال الأمم الأوربية جميعها . .) .

(١) مثل ترجمته نبذة قرأها في جريدة فرنسية لحديث البرنس بيسارك (مستشار ألمانيا) عن الإحساس بالله الذي يدفع الجنود إلى التضحية بالنفس منها قوله : (لو لم يكن لي إيمان بالعبادة الإلهية التي قضت بأن يكون لهذه الأمة الألمانية شأن كبير وأثر باطن لطرحت لساعتي ما حملته من أثقال الوظائف . . . ولولا يقيني بحياة بعد الموت ما كنت من حزب الملكية . . . لو لم أكن مخلصاً في ديني لوليت ظهري جميع الحاشية . .) ويعلق الشيخ على ذلك بقوله (الاعتقاد بالله واليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما (بيسارك) إلى ما لم يدركه فيه مفاخر ولم يكثره فيه مكائثر) .

(٢) في هذا العهد هاجر إلى مصر من العراق عبد المحسن الكاظمي الملقب بشاعر العرب فهلل للإمام في قصيدته العينية وفيها يقول :

لجاءوا إلى الإسلام يعترضونه سفاها فشاموا أن واديه مُسبِع
وأقسم أني لو شحذت مقاتلي لراح بها (هانوت) وهو مضع (مقطع)

وكان مصطفى كامل في عشريناته قد امتدت الأسباب بينه وبين الخديو ، لكن الإمام لا يغفو عن فرطاته إذا أعطى رأس العائلة المالكة مجداً لا يستحقه ، عندما اقترح إقامة احتفال قومي يوم ٢١ / ٥ / ١٩٠٢ لزور مائة عام هجري على تولية محمد علي فطلع على الناس مقال من نار في مجلة المنار لسان محمد عبده ^(١) ، يضع أمر عرش محمد علي في نصابه ، حتى لا تطمس حقائق حكمه بتحيات زيوف ، وفيهذه الثورة على (محمد علي) سبق الإمام قومه بنحسين عاماً تماماً .

ولم يمنع هذا الخلاف المتعدد الأطراف بين الأستاذ الإمام من جهة وبين أسرة محمد علي وأذائها من جهة أخرى وبين مصطفى كامل من جهة ثالثة ، أن يحضر في ٢٧ / ٢ / ١٩٠٢ احتفال مدرسة مصطفى كامل بتوزيع جوائزها . حيث كان رئيس اللجنة الأمير محمد إبراهيم ووكيلها حسن عاصم ، فالتعليم صبيحة الجهاد التي أطلقها . وهي الآن تتردد في كل مكان .

* * *

(١) إليك بعض ما جاء في المقال :

(مالذي صنعه محمد علي ! لم يستطع أن يحى ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، أخذ يستعين بالجيش ويمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش ويحزب آخر على من كان معه أولاً . . . وتكرر هذا مراراً حتى فسد بأس الأهالي وزالت ملكة الشجاعة فيهم . . . أخذ يرفع الأسافل ويعطيهم في البلاد والقرى كأنه كان يمن لشبه فيه ، ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام وساد اللثام . . . ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعاً له ولأولاده على أثرا إقطاعات كثيرة كانت لأمرء عدة .

ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع للسلطان العثماني فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب أو الأوربيين ، فأوسع لهم في الجمالة وزاد لهم في الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات . . . فاجتمع على البلاد المصرية ذلان : ذل ضرتته الحكومة الاستبدادية المطلقة وذل سامهم الأجنبي إياه . . . قالوا إنه أطلع نجم العلم في سماء البلاد . نعم . غنى بالطب لأجل الجيش وعنى بالهندسة لأجل الري . . . ليستغل إقطاعه الكبير .

هل فكر في إصلاح اللغة عربية أو تركية أو أرثوودية ؟ هل فكر في بناء الترية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ هل حذر في باله أن يجعل للأهالي رأياً في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرح ويستقر العدل ؟ لم يكن من ذلك شيء ! أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد الترية الحسنة ؟

أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوروبا ليتعلموا فيها فهل أطلق لهم الحرية أن يثروا في البلاد ما استفادوا ؟ كلا . . . أين الزراعة والصناعة ؟

هل شعر مصري بعظمة أسطوله ؟

أى دين كان دعامة لسلطان محمد علي ؟ دين الكرياج ؟ دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده . وإلا فليقل لنا أحد من الناس أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامي الجليل ؟

لا يذكرون إلا مسألة الوهاية وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين لا للدين . نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدله بشيء من النقد يسمى (فائض رزنامة) لا يساوى جزءاً من الألف من إيرادها وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر مالوتي له اليوم لكنت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوى نحو أربعة آلاف جنيه في السنة (١) .

وقد حان الوقت لإنشاء جامعة بأموال الشعب بعد أن أثبتت المدارس الأهلية قدرتها. (١)

والجامعة وحدها هي القادرة على إحياء الحضارة العربية القديمة ونشر الحرية الفكرية . ومن أجل ذلك رحل في سنة ١٩٠٣ إلى أوروبا ، فزار فرنسا - بعد أن أصدر وزير معارفها إذنا له بزيارة معاهده - وقصد إلى المؤرخ المستشرق الذي أنصف الحضارة العلمية العربية (جوستاف لوبون) وكان الإمام قد كلف فتحى زغلول بتعريب مؤلفه ، فوجده على سفر . وأبحر إلى إنجلترا فزار جامعتي أكسفورد وكمبردج - أعظم جامعتين في ذلك الزمان - ليشهد النشاط الجامعي على الطبيعة ، ويعود إلى مصر بآرائه . وندبت أكسفورد المؤرخ (بويل) لصحبته واستقبلته هيئة التدريس في كمبردج على المحطة وفي كمبردج صلى وراءه المستشرق (ادورد براون) .

في لندن لقي الفيلسوف البريطاني (هرت سبنسر) وسنقراً فيما بعد في مذكرة دأب على أن يحتفظ بها في جيبه - ملاحظة إمام المسلمين على إفلاس الفلسفة : (حار الفيلسوف في حال أوروبا وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء ؟ الرجوع إلى الدين . الدين هو الذى يكشف الطبيعة الإنسانية ويعرفها لأربابها في كل زمان لكنهم يعودون فيجهلونها) .

وفي العام ذاته سافر إلى الجزائر حيث فسر سورة العصر . وإلى تونس حيث ألقى محاضرة سنعود إليها . ومر في أثناء عودته بصقلية فرسم الصورة الأدبية الناطقة في مقالته الكبير (رحلة صقلية) ، ليتعلم عليها دقة الوصف وبراعة التصوير ورقة التعبير وفصاحة اللفظ حافظ إبراهيم ومصطفى عبد الرازق ومصطفى لطفى المنفلوطى . والأول شاعر النيل والأخيران أرق وأرقى أصحاب الأسلوب في هذا القرن .

فإذا انضاف هؤلاء الثلاثة العظماء إلى الزعيم سعد زغلول ، أخطب العرب في هذا العصر

(١) نشر جبر فيل بعد وفاته عن التعليم المصرى في عهده (إنه لا يكاد يقدر إلا على تعليم رجل محترف ومن المستحيل أن يستطيع هذا التعليم تكوين عالم أو كاتب أو فيلسوف فضلاً عن تكوين نابغة . . . فلا ترى في الطبقة المتعلمة الرجل الباحث ولا المفكر ولا الفيلسوف ولا العالم ولا ترى الرجل ذا العقل الواسع والنفس العالية الكريمة أو ذلك الذى يرى حياته كلها في مثل أعلى يطمع فيه ويسمو إليه)

وكان الإمام يرى أن مهمة الجامعة (تقوم على تعليم العلوم وفقاً للمناهج الحديثة وتسهم في تجديد الحضارة العربية القديمة) . وقد عبر حافظ إبراهيم شاعر الإمام عن اغراض الجامعة في قصيدته ومطلعها :

حياكم الله . أحيو العلم والأدباء إن تشروا العلم ينشر فيكم العربا
ولا حياة لكم إلا بجامعة تكون أمّا لطلاب العلا وأبا

وأخطب الخطباء في تاريخ مصر^(١) ، تكاملت بين أيدينا أبعاد واضحة لإمام صانع أئمة ، يقتدى بهم كل من كتب أو نطق باللغة العربية في القرن العشرين للميلاد أو بعده . مما يسوغ لنا أن نقرر أن إصلاح اللغة العربية على أيدي مدرسته هو واحد من أكمل إنجازاته .

في هذه الفترة طلب إليه بعض المستشرقين (بلنت وآخرون) أن يكتب ترجمة حياته فتوقف ملياً ثم أنشأ يكتب ، ولم يتم . وكان ما كتب فيها قمة أدبية كرحلة صقلية^(٢) .

(١) يشهد لبلاغة سعد القضاية لغة أحكام هي المثل الأعلى للقضاة وشهادة الملباوي لمرافعاته . إنه كان « أعجوبة المحاكم » أما الشهادة له كخطيب عالمي ففيها قول خمسة من أعلام اللغة العربية في هذا القرن لم يكن فيهم واحد من حزبه : هم السكندري وأحمد أمين وعبد العزيز البشري وعلي الجارم وأحمد ضيف قالوا في كتابهم تاريخ الأدب العربي (أخطب الخطباء غير مدافع وأفصح القضاة غير منازع . يجمع إلى جهازة الصوت فصاحة المنطق وسلامة الألفاظ وبراعة التعبير . كأنه سيل لا يعوقه شيء بل إنه يحرف في سبيله كل شيء) ويقول حافظ إبراهيم [... فلو أنك عرضت على سعد ملك الرشيد على أن يهجر الخطابة لنأى عنه بجانبه ولرجع مهرولا إلى الزعامة فإن أفلتت فإلى المحاماة] .

(٢) هزت رحلة صقلية مشاعر الأستاذ الإمام ففاض قلمه بأحاسيس في كل باب : فالعرب قد دخلوا إسبانيا سنة ٩٣ وغلّبوا على جنوب فرنسا حيث مصبا نهري الرون والجارون ، وكما يقول المؤرخ الإنجليزي جيون : (كان في وسعهم لو مشوا ألف ميل أخرى أن يصلوا إلى مرتفعات سكوتلندا شمال إنجلترا أو حوض الراين شمال ألمانيا) أما صقلية فقد فتحها قاض هو أول قاض عقد له لواء الأسطول - أسد بن الفرات سنة ٢١٢ - وهو فقيه بدأ مالكيًا وانتهى حنفيًا فقيه حنفي مالكي ، مثله . ومن صقلية والأندلس بدأ غزو العلم الإسلامي لعقل أوروبا وأنشئت في أوروبا جامعات بتأثيرها لترجمة علومهم ولهذا كانت إيطاليا مهد النهضة العلمية وإسبانيا أسبق الدول إلى القوة في العصور الحديثة .

يبدأ الأستاذ الإمام مقاله الكبير (٢٥ صحيفة من القطع الكبير) تعرض سياحة الإمام فيها خمسة أيام لم يضيع منها دقيقة . ولكل حرف أو كلمة رنينها ومفزاها . فاستفتح بآية من سورة الحج يناسبها المقام : (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها . . .) وتلاحقت درر الوصف والتعليق ، وحسبك هنا كلمات تنم عن سائر المقال .

(. . . توجد كنيسة الملك . ولا حاجة إلى وصفها كذلك . إلا لو كان الله يجب أن ترين له معابده وتنقش لجده مساجده كما يجب ذلك ملوك الأرض . . . فوجدت في المر . . . حجراً قد كتبت عليه هذه العبارة : (. . . خرج الأمر من الحضرة الملكية المعظمية الرجارية . . . بعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثمانين وخمسمائة) . ثم في أعلى الحجر سطور بالحرف اليوناني يظهر أنها ترجمة هذه العبارة . والحضرة الرجارية هي حضرة الملك روجار النورمندی الذي دخل جزيرة صقلية وفتحها على العرب وكان لسانه الرسمي في حكومته اللسان العربي واليوناني . . .

. . . رأيت في خزانة الجواهر من قصر الملك صندوقاً عربياً في طول نحو ثلثي ذراع . . . وهي من صنع العرب أيام دولتهم . . .) . . . لذلك كان نائب الملك يصحبه كardinال . . . كما نقول عندنا المفتي أو شيخ الإسلام في عهد الملوك الذين لا تسمح أوقاتهم بتعلم العلوم الدينية فيحتاجون إلى من يرجعون إليه . غير أن المفتي أو شيخ الإسلام إنما يجب على ما يسأل عنه أو يؤدي ماكلف به ، أما الكardinال فكان يتدبّر في المشاورة ويقترح المطلب ويقم نائب الملك على المذهب ويكف يده عن العمل الذي لا يرضاه ويحمّله على بسطها فيما يتوخاه كانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية في نظام واحد لا فصل فيه بين السلطين . . .

ثم أدخلني السادن إلى قبة قريبة من الكنيسة وقال لي : إنها على شكل عربي . . . أخبرني أن الإيبانيين عندما غلبوا على سيبليا (صقلية) سلبوا ما كان في هذه الكنيسة . . . بل سلبوا الكنائس كل ما كان فيها من المصنوعات الفضية كذلك . فقلت لصاحب كان معي : يظهر أن كل فاتح يرى من الواجب عليه أن يفسد شيئاً من عمل من سبقه . فكان كل منهم يقوم بما يراه واجباً عليه) ويقول لينصف العرب من أعدائهم ومن أنفسهم :

ولما نشر فرح أنطون في مجلة الجامعة بحثاً تفيد محاربة الإسلام للحرية الفكرية كتب الإمام رده الخالد وسنعود إليه بعد .

ابن أبيه

« ولي الأمر » أمير يحكم بالشرع ويرد الأمر عند الحاجة إلى أولى العلم بالشرع .
ويوم تتعطل الشريعة ويتوارى العلماء يتراءى الأمراء الفسقة ، كهنية بنات آوى ، في جلود أسود :

كانت فرنسا ومؤسساتها الدستورية وصحافتها ضائعة الصدر بإنجلترا لانفرادها باستعمار مصر . فوسع صدرها جهاد المصريين . ومن ذلك صدرت العروة الوثقى في باريس سنة ١٨٨٤ وخلق مصطفى كامل الخطب ونشر المقالات فيها في التسعينات من القرن ، وأغرم بالدراسات الفرنسية حتى لترك مدرسة الحقوق الخديوية ليتخرج بشهادة من كلية الحقوق في تولوز سنة ١٨٩٤ وهو في العشرين . كما كانت الحكومة تبعث بعثاتها إلى فرنسا لدراسة القوانين الفرنسية المطبقة في مصر .

فلما كان الثامن من أبريل سنة ١٩٠٤ عقدت فرنسا وإنجلترا ماسماه المؤرخون (الاتفاق الودي L'Entente Cordiale وفي أولى مواده نص صريح (ليس في نية إنجلترا تغيير سياستها الحالية في مصر وتتعهد فرنسا من جانبها ألا تعرقل عمل إنجلترا في هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطاني ولا بأي صورة أخرى) .

هكذا اتفق الطرفان على دوام الاحتلال ولم يبق لمصرى أمل في فرنسا . وأوجس الخديو خيفة على عرشه فصنع ماصنعه أبوه ، فوقف تحت العلم البريطاني في ١٩٠٤/١١/٩ عيد ميلاد ملك الإنجليز .

= (ومن ذلك تعرف أن العرب رحمهم الله لم يمسا هذه الكنيسة بسوء برغم عظمة سطوتهم . . . ولم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ممن كان يهدم مساجدهم ويحرق معابدهم . فحيا الله أيامهم . . .)

لقد استول العرب بعد فتح صقلية على كنيسة القديس بطرس وبولس في روما سنة ٢٣٣ هـ - ٨٤٦ م للهجرة ثم جلوا عنها مصونتين . . .

ويستطرد الأستاذ الإمام فيقول : موجهاً الكلام لكل العصور (لاجرم أن الإسلام عرى وأحق الناس برعايته والوقوف عند حدوده - بعد فهم حقيقته - هم العرب . فأين هم ؟

يمكن أن يقول قائل : في جزيرة العرب أو الشام أو العراق أو في مصر أو الجزائر أو تونس أو المغرب الأقصى . أفلم يكفك هذا العدد في أكثر من ألف بلد ؟ . ولكني أقول له : إنما يكون أولئك إذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم . فإن لم يبق إلا أشباح تشبه أشباحهم فليسوا بهم . فلي الحق أن أقول عن العرب : فأين هم ؟ . . .)

وقبل تعيين ياور انجليزى له ! وأكب على وجهه يلتمس كل فرصة للثراء . كالمحكوم عليه بالإعدام إذ يستكثر من الطعام^(١)

وأخذ يناور مصطفى كامل . فقطع الزعيم الشاب صلته به في أكتوبر سنة ١٩٠٤ . ثم أصلاه ناراً حامية في (اللواء) يوم أحال للمعاش حسن عاصم في ١٩٠٤/١١/٢٦ إذ أخفقت المؤامرة بين الخديو و (زرفوداكى) على مجلس الأوقاف لمبادلة أراضي بناء له في الجزيرة بتفتيش « مشهر » . ولم يعد الخديو يطيق جوار الشرفاء .

وساء استسلامه للإنجليز كل من قاربه حتى ليرافع الهلباوى ضده ، وهو مستشاره ، عن متهمين بسرقة من جزيرة له تسمى جزيرة الزبرجد . ثم يترافع ضده عن أحمد حلى عندما اتهم بالقذف في الخديو - بعد أن لوح رئيس الوزراء مصطفى فهمى ووزير العدل (رشدى) للهلباوى بأن الخديو لا يقبل ذلك - فأدرك قصدهما وقذف في وجه الخديو بوظائفه الثلاثة : ثم ترافع !

* * *

لكن جشع الخديو لا يمنع بيوت الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه .. وكان الإمام قد استصدر قراراً من المجلس الأعلى للأوقاف في ١٨ فبراير سنة ١٩٠٤ بزيادة ميزانية المساجد ومرتبات الأئمة بمبلغ ١٨٠٠٠ جنيه ، فأصدر الخديو قراراً في ١٩٠٤/٥/٣١ بوقف القرار حتى لا تتحمل أوقافها - وهى فى نظارته - مبلغ ١٨٠٠٠ جنيه ، فقدم الإمام - باعتباره عضواً فى المجلس الأعلى - مشروع قانون من ٢٣ مادة ومذكرة إيضاحية مما قاله فيها :

(وحيث إن هذا الترتيب صدر لنا أمر عال بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٠٤ بإيقاف تنفيذه لحينما ينظر فيه من « جناب ولى النعم الأفخم » وحيث إن ترك هؤلاء الخدمة (للمساجد) تهلكهم المرتبات القليلة وهم يصيحون ويستغيثون ، ليس مما يليق بمصلحة خيرية تجود بالكثير من أموالها فى وجوه البر والخير على الفقراء والمساكين ، وأجدر بها أن تفيض بشىء على من يقيمون شعائر الدين ويقومون بخدمة هذه المحال الطاهرة . . .) .

* * *

وليس بدعاً وقد استوثق الخديو لنفسه بالزنى إلى الإنجليز ، أن يبعث إلى اللورد كرومر بميزانية المساجد كأنما يشكو حملة محمد عبده عليه ، ثم يرفع السراق الأقنعة ويعلو فحيح الأفاعى فى الأزهر

(١) خاطب حافظ إبراهيم مصر فى أعقاب الاتفاق الودى بقصيدة كبيرة مما جاء فيها :

أيعجبنى منك يوم . الوفاق سكوت الجهاد ولعب الصبي
وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها الطيب (المتنبي)
أمور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب

وفي الصحف أو تقدم الشكاوى ضد الإمام من المشايخ^(١) أو يرتفع الصوت الكريه للصحف المأجورة . أو تطلع إحداها بصورة لمفتى الديار يخاصر امرأة أجنبية وكلها يعث بأطراف جبهته ! ويثبت الطبيب الشرعى تلفيق الصورة . فكلها صحف أطلقتها أموال ولي النعم . يقول عنها أحمد بك قمحة قاضى محكمة عابدين - وهو من فحول رجال القانون .

(وحيث إنه مما يدعو إلى الأسف ظهور بعض جرايد في هذا العهد يحررها أناس منزلتهم من العلم والفضل تدور بين الشك واليقين . حتى لقد يقود زمام بعضها من لادراية له بشيء من القراءة والكتابة على الإطلاق مثل صاحب جريدة الفونوغراف فإنه من الأميين كما ظهر في قضية شهد فيها أمام إحدى المحاكم حيث وقع الشهادة بالحق مُصرحاً بأنه لا علم له بالكتابة . . . وحيث إن الضرر على المجتمع الإنسانى من وجود تلك الورىقات المنحطة التى لا تنطق إلا بسفساف القول . . .) . قضية النيابة ضد صاحب جريدتى البباد وغلو المصرى والأرنب . وكان عنوان المقال موضوع المحاكمة (المستر محمد عبده مفتى الديار المصرية) حكم ١٩٠٤/٢/٦ .

في هذه الأثناء كان النصحاء - مبعوثين ومتطوعين - يراوضون الإمام على ماروى الشيخ رضا حيث قال :

(ومن هؤلاء الناصحين العارفين أو أمثلهم خليل باشا حمادة الشهير الذى تولى الأوقاف العامة بمصر ثم وزارة الأوقاف فى الأستانة .

خرجت معه (الإمام) ليلة من الأزهر بعد العشاء كعادتنا فى ليالى دروسه فقال لى إن حماده باشا عندنا فاذهب بنا إلى عين شمس نتعشى معه . فذهبنا . فكان جل حديث الباشا معه فيما جاء من الإسكندرية لأجله هو إقناعه بترك الخديو يتصرف فى الأوقاف كما يشاء لأجل أن يتركه يتصرف فى إصلاح الأزهر كما يشاء . وكان يقول له على المائدة مراراً (ياسيدى الأستاذ أبوس إيدك . والله إن إطلاق الحرية لك فى إصلاح الأزهر خير لك وللإسلام والمسلمين فى الدنيا والآخرة من كل ماتوفره من مال الأوقاف لديوانها . .) . قال الأستاذ الإمام - عفا الله عنه - أنا أعلم هذا . ولكن وجدانى ومراقبى لله تعالى لا تمكننى من إقرار ما لا يبيحه الشرع . والباطل لا يكون وسيلة إلى الحق) .

(١) فى الوقت الذى كان المشايخ يصنعون ذلك كله كان محمد عبده يصنع صيغاً آخر ذكره فى تأييده خليل مطران بعد تهور - وهو صاحب حريدة الحوائب المصرية التى كانت تنشر للمشايخ ضده - (إن أنجال المشايخ بالأزهر كانوا يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة فرأى الأستاذ فى ذلك غيباً للعلماء لأن هذه المرتبات إنما هى وقف عليهم فأعادها الأستاذ إليهم وعوض أنجال المشايخ بما كان يجمعه بسعيه فى رأس كل شهر من أمواله وأموال محبيه . ولقد شوهد وهو ساع هذا السعى عقب اعتزاله الأزهر وقيام الشيوخ فى وجهه محاربين) .

في أواخر ذلك العام دعت حكومة السودان الإمام لزيارته فزاره في النصف الثاني من يناير سنة ١٩٠٥ وهو الذي يرشح له قضاة وأساتذة في كلية جوردن وبهذا سُد السودان بأعظم العلماء : محمد الخضري وعبد الوهاب النجار وقضاة القضاة محمد هرون ومحمد شاكر ومحمد مصطفى المراغي .

• •

عاد الأستاذ الإمام في شهر فبراير فلم يكذب يصل حتى نفث الخديو حقه جهره في شكل طلب إلى مجلس إدارة الأزهر بمنح كسوة التشرية للشيخ راشد إمام حاشيته . ورفض المجلس لأن القانون يشترط أن تمنح لأكابر العلماء . . .

وإذا بصحيفة الخديو (المؤيد) تبدأ الحملة على إصلاح الأزهر - وهي المعروفة بصحتها بالخديو .

في ٥ المحرم سنة ١٣٢٣ (١٠ مارس ١٩٠٥) تحت عنوان (خطاب مفتوح إلى سمو مولانا الخديو المعظم) نشرت خطابا وقعته الشيخ محمد الأحمدى الظواهري يقول فيه (وأرجو ويرجو المسلمون أن تشملوا هذه المدارس (معاهد الأزهر) بعنايتكم وأن تقطعوا منها جرائم الفساد والانحطاط) . وفي ٧ المحرم يعقب خليل مطران في صحيفة الجوائب المصرية بحديث أجراه مع الشيخ الشربيني سأله فيه (ماذا يرى مولانا فيما قام اليوم يلتمسه الشيخ الظواهري ؟) مما يدل على أن الجوائب تلاحق المؤامرة . وأجاب الشيخ الشربيني (الظواهري) إنما نطق بلسان كل محب للأزهر) . وفي ٩ المحرم أعاد المؤيد نشر حديث الشيخ الشربيني بتمامه مع الترويج له مما يدل على أن الخطاب المفتوح والحديث التالي له حلقتان في سلسلة .

وفي ١٠ المحرم استقال شيخ الأزهر الشيخ البلاوى .

وفي ١٣ المحرم عين الشيخ صاحب الحديث شيخاً للأزهر . .

أما صاحب الخطاب المفتوح (الشيخ الظواهري) فسيُعين شيخاً للأزهر عقب استقالة المراغي - من جراء إصلاح الأزهر سنة ١٩٢٩ ويفصل الظواهري تلاميذ محمد عبده والمراغي كما سنرى بعد . وفي ١٧ المحرم سنة ١٣٢٣ (٢٢ مارس سنة ١٩٠٥) أقيمت حفلة إلباس كسوة التشرية الكبرى لشيخ الأزهر الجديد وحضرها مفتي الديار وخطب فيها الخديو فأنب شيخ الأزهر لرفض المجلس منح الكسوة لإمام حاشيته . . ثم أضاف « أن أول شيء يطلبه هو أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر وألا ينشغل علمائه إلا بتلقى العلوم البعيدة عن الزين وشغب الأفكار » وأضاف « ان في المجلس عضواً ينوى أن يستقيل » . وأدرك الحضور قصده . وفي الإمام حدة أثبتا على نفسه في لقائه لوزير الحرية الانجليزى سنة ١٨٨٤ لدى مواجهة السلطة من أصحاب السلطة . لكن العواصف لا تزلزل جنانه أو

تزل لسانه . هناك أفحم وزير الحرية البريطانية في مكتبه ، وهنا سنراه يساقط من قمة المعرفة على الخديو ، في قصره ، درساً في القانون ، دون أن يسقط حقاً للأزهر .

قال : (إن للمجلس قانوناً أصدره الخديو فإذا رأى أن يكون منح كساوى التشريف بناء على إرادته الشخصية فليصدر قانوناً جديداً بما يراه) فاحمار وجه الخديو ووقف لينهى المجلس .

ولم تكن المسألة تتعلق بالدين ليتعين على الإمام أن يجبه الخديو برده بل هي مسألة حق لمجلس الأزهر ، قد يجزئ فيها مذكرة تكتب في الغداة ، لكن دفع العدوان على الأزهر ديدن الإمام . ومن الحزم مبادرته في موقعه كيلا تكون للخديو الكلمة الأخيرة .

ولئن جبن الخديو مرتين في هذا الموقف الواحد حين لم يذكر الأسماء وحين أنهى الجلسة ، إن الأستاذ الإمام شجع مرتين ، إذ جبهه برده ولم يستقل بناء على تلويحه ، فلو قدم الاستقالة من فوره لأشبهت أن تكون بناء على أمر الخديو وأن تكون إقالة وإذن لسجلت للخديو سلطة على مجلس الأزهر .

* * *

رجع الإمام إلى داره منتصراً لكنه استشار رجاله فأشار سعد وفتحى وقاسم ومحمد راسم عليه بالاستقالة حتى لا يتجه بطش الخديو إلى الأزهر ذاته ، فبعث الإمام بها إلى شيخ الأزهر رئيس مجلس الإدارة في ٢٠ محرم سنة ١٣٢٣ ، ٢٥ مارس سنة ١٩٠٥ واستقال عبد الكريم سلمان متضامناً معه .

* * *

روى الشيخ رشيد رضا أنه حين قدم إلى مصر في آخر سنة ١٣١٥ (١٨٩٧) لخص له الأستاذ الإمام واقع الحال أيامئذ :

- ١ - أن إصلاح الأزهر إصلاح لأهل الإسلام وخدمة للإسلام .
- ٢ - أن عقبة كئودا تقف في وجه الإصلاح هي عقلية المشايخ .
- ٣ - أن الإصلاح طويل الأمد لو شهد في حياته لمات سعيداً .
- ٤ - أنه حاول أن يبدأ بعظام الأمور وأشاروا عليه بالتدرج .
- ٥ - أنه لافائدة له من العمل في الحكومة إلا تمكينه من إصلاح الأزهر وأنه لم يحصل إصلاح يذكر حتى سنة ١٣١٥ (١٨٩٧) .

وروى أن قرار إنشاء مجلس إدارة الأزهر نص على أنه لا يجوز لمجلس الأزهر ولا لشيخ الأزهر عزل محمد عبده أو عبد الكريم سلمان .

وروى قول الإمام له ذات يوم ، : إما أن يعمر الأزهر أو يتم خرابه - فإذا يثست من إصلاحه تركت الحكومة واخترت أفراداً أريهم لينهضوا بالدعوة .

وروى أنه لما استقال عزم على بناء دار في جواره لذلك الغرض لولا أن عاجلته منيته . قالوا إن لسعد كلمة مشهورة قالها له من قبل « سيفسدك القوم قبل أن تصلحهم » ولم يكن أحد ليفسد الإمام وحياته جهاد لمقاومة الفساد . وإنما كان للإمام - في مواجهة السلاطين - مكان تدخره له السماء في جوار أئمة الفقه الأربعة . : مات أبو حنيفة - وهو يصلى - في سجن أبي جعفر المنصور . وخلع كتف مالك وال له . ولقى تسعة من زملاء الشافعي مصارعهم بين يدي « الرشيد » ويديه ، ولم ينج إلا بحسن دفاعه . وحمل ابن حنبل في أصفاده إلى مقر المأمون وهو حامل سيفه ليقتله فمات حامل السيف وحيي إمام المسلمين .

والأذى في سبيل الله هو الذي يرفع العظماء إلى مقام الشهداء .

فلنراجع - بعد تقادم الزمان - قول الإمام إن صاحب العرش لا يملك الخروج على قانون أصدره ، إلا بناء على قانون جديد ، فذلك هو المبدأ الدستوري الذي يحاول الطغاة دائماً أن يتجاوزوه .

ولنراجع حديث الشيخ الشربيني (في ٧ المحرم سنة ١٣٢٣ ، ١٢ مارس سنة ١٩٠٥) حيث قوله للخليل مطران :

١ - (إن الخدمة التي قام بها الأزهر للدين ولا يزال يقوم بها هي حفظ الدين لاغير ، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغي له) .

٢ - (إن الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني فيه ويحول المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفئ نوره في هذا البلد وغيره) .

(وإني أسمع من سنوات بشيء يسمونه حركة في الأزهر وإصلاح الأزهر ولكني لم أر لهذه الحركة وهذا الإصلاح من نتيجة سوى انتشار الفوضى في ربوعه) .

وترى - بادي الرأي - أنه لو لم يكن للأزهر علاقة « بعلوم الأعصر » لبخع نفسه . وأن دعوى الشيخ عن محاربة الدين وانتشار الفوضى بدراسة الفلسفة والأدب تظهرنا على علاقته بالدنيا : أنه لا يموت فيها ولا يحيا .

قدم الشيخ مصطفى عبد الرازق فيما بعد صورة لما حدث بأسلوبه الأدبي المبدع في مقال مؤرخ

هـ ذى القعدة سنة ١٣٢٣ (١٩٠٥) فقال :

(وبمناسبة استقالة الشيخ المفتى قص علينا اليوم في الدرس الشيخ م . ر - قصة تتعلق باستقالته من مجلس إدارة الأزهر قال .

« لما حمل حموده بك عبده اخو الشيخ الاستقالة إلى الشيخ الشربيني في الأزهر قال : ماذا جرى حتى يستقيل الشيخ المفتى ؟ لقد كنت مغتبطاً بمعونته فيما نهضت به . هل من سبيل لصرفه عن عزمه ؟ قال الرسول : إنه مصمم على تنفيذ نيته . وهو على ذلك قد كلفني أن أخبر فضيلتكم أنه رهن إشارتكم في كل ماتذبونه له . تأوه أستاذ الشيوخ وقال : لاحول ولا قوة إلا بالله وظهر عليه التأثير .

قال الشيخ م . ر . في الحقيقة إن الشيخ الشربيني لم ينتبه للسبب الحقيقي لاستقالة المفتى من الأزهر وهو أن التعريض القاسي الذي ورد في خطبة الاحتفال بإلباس الشيخ الشربيني الخلعة يقضي عليه بالاستقالة . . .

قال الشيخ م . ر . (كان المفتى مستمعاً للخطبة منصتاً . أما الشيخ الشربيني فلم يلق إليها بالاً . كنت قريباً منه تراحم هتافه بالاستغفار رنات صوت الأمير في أذني . وكان غاضباً من بصره حتى لقد نهته عندما نهض الأمير مؤذناً بالانصراف . فجعل يعتمد على يده مكرراً ذكر الله حتى خرجنا من قصر الإمارة) .

من حق الشيخ الشربيني أن يذكر كفقيه شافعي ذي كفاية ، ومن الحق أن نذكر أن المشيخة والإدارة كانتا فوق طاقاته ^(١) ولهذا غص بصره واستخفى في طلب المغفرة ولم يلق باله إلى ما أصابه والأزهر معه !

وكان محمد عبده صادقاً في تعهده بأداء الخدمة العامة لله والوطن فقد رأس بعد أسبوعين لجنة الإعداد لمدرسة القضاء الشرعي .

ولم يك بد من اشتعال الفتنة في الأزهر واستقالة الشيخ الشربيني وعودة الشيخ حسونة عقب وفاة الإمام .

(١) ولو قدر على شئون مشيخة الإسلام . لتذكر موقف عز الدين بن عبد السلام - وكان شافعيًا مثله - عندما عرضوا عليه أن ينكسر للسلطان ويقبل يده لتعاد إليه مناصبه فأجاب (يا قوم أنتم في واد وأنا في واد والله ما أرضى أن يقبل يدي) .

لكل أجل كتاب .

ويضع مصطفى عبد الرازق تاريخ ٦٩٠٥/٥/٣ لنبذة جاء فيها :

(الشيخ المفتي مريض . ويظهر أن داءه لسوء حظ المسلمين عضال أتت أعوده في داره بعين شمس ضحوة اليوم وأذن لي فدخلت إليه وهو في سريره شاحب اللون تراحم البشاشة الفطرية في وجهه لدغة الألم . وهو على ذلك حلو الحديث حاضر البديهة . . .)

أجل : لقد أحس الإمام بالمرض في إبان رحلته إلى السودان ولكنه كان يخفى ألمه ليعمل ، حتى أقعده ، وذاع خبره وجاء الأمراء والوزراء والكبراء كل بطييه . وكان أكثر الناس تردداً على الدار الأمير حسين كامل . وعرف الأطباء أنه السرطان . ونشرت الصحف الأنباء فشغلت مصر وسورية والسودان .

أما الإمام فكان يسأل عن طبع ملازم التفسير ومرتببات الضعفاء والقواعد من النساء هل تصلهم ؟

وواتاه الشعر الذي قال إنه لا ينظمه إلا في أحد المحبين ، حبس السلطان أو حبس المرض ، فنظم أبياتاً قليلة يودع فيها دنيا الناس ويعلن خوفه على الإسلام^(١) . وأجمعوا أن يسافر للعلاج في أوروبا وانتقل إلى دار راسم بك بالإسكندرية في انتظار الباخرة فجاءها اليوم البئيس ثانية مذمورها الإنجليز في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ - وضربها الموت يوم وافي الحمام فيها الإمام في ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ - ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ .

* * *

نقل الجثمان إلى القاهرة بقطار خاص - كهيئة رؤساء الدول - ومشت مصر كلها تشيع الإمام الذي وهبتها إياه السماء بعد أحد عشر قرناً من وفاة الإمام الأول في جوار جامع عمرو : محمد بن إدريس الشافعي سنة ٢٠٤ .

وتوافى الوزراء والعلماء ، والخلصاء والخصماء ، ورجال القضاء ومجلس شورى القوانين والأجانب والمصريون - وكان فذاً في التاريخ أن يمشى رجال القضاء كهيئتهم في الجلسات بأرديتهم الرسمية وأوشحتهم على صدورهم ، وفي صدارتهم قاسم وحسن عاصم وعلى فخري ورشدي

(١) يهنا منها هنا بيتان :

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أم اكظت عليه المآثم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العاثم

وثروت وحشمت ورأسهم ومن خلفهم رجال المحاماة بأرديتهم السوداء ، كأنما هو مجلس ربانى للقضاء ، يودع الشيخ الرئيس فى رحلته الأخيرة .

أما رجال الدفاع فجاءوا يشيعون « المحامى الأول » عن مصر فى عهد الاحتلال ، والذى نظم « المقاومة » فى شكلها المشروع طوال ربع قرن ، يتقدمهم تلاميذه منهم كما سيتقدمون الأمة فى الثورة الكبرى بعد أعوام ثلاث عشرة .

ثم كان ماهو أروع لأنه أروع ! حينما وصلت الجنازة إلى الأزهر فتعالى من مآذنه التى تكبر الله من ألف عام ، ومن كل مآذن القاهرة ذات الألف مسجد ، دفعة واحدة : الله أكبر : الله أكبر . وإنما تعلن الأصوات والأصداة تشيع السماء ! وهذان أمران لم يجتمعا إلا له .

* * *

كان الإمام قد وصى بعدم إقامة ليالى المآتم فلم تقم . وكان من عدل السماء أن يظلم الخديو نفسه فيتخلف عامداً عن موكب العظمة . فلم يندب أحداً للحضور فى جنازة رسمية لرجل طالما لاذ به فأنقذه .

وإذ أرك الأمير الصغير فى سقوطه الكبير فقال لأحمد شفيق باشا وكان من حاشيته : (يظهر والله أعلم أنكم أردتم بالسير وراء نعشه المجاملة بعد الموت وهو على ماتعهدون عدو الله وعدو النبى وعدو الدين وعدو العلماء وعدو المسلمين بل وعدو نفسه . فلم المجاملة) .

وإنما أبعدته السماء من جنازة الإمام حتى لا يشهد المنافق مشهدا على أبواب الجنة ، ولتجرى عليه وعلى تلاميذ محمد عبده من سننها قانونا من قوانين الطبيعية [لكل فعل رد فعل مضاد له فى الاتجاه ومساو له فى المقدار] ولينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما . فستخلعه إنجلترا سنة ١٩١٤ وتقيم مقامه تلميذ محمد عبده - حسين رشدى .

وفى سنة ١٩١٩ يجبه أكبر تلاميذه - سعد زغلول - إنجلترا بالثورة العظمى ، وهى منتصرة ، فيفتح عليها أبواب الثورات التى زلزلت ثم دمرت إمبراطوريتها .

: وفى سنة ١٩٢٢ يظفر لمصر بالاستقلال أصغر وكلاء محمد عبده فى الجمعية الخيرية عبد الخالق ثروت .

البَابُ السَّادِسُ

في التاريخ

(لا بد أن ينتهي العالم إلى تأخي العلم والدين على
سنة القرآن والذكر الحكيم).

محمد عبده

انتخب المشرقان في أقصى الأرض بأندونيسيا والهند وفي أدناها بفارس وسورية والعراق
والسودان ، وكل مكان يتلى فيه قرآن ، وقامت الجمعيات والكتاب والقراء بتحية ذكرى الإمام .
وجاء يوم التأبين بمصر فأبته أصحاب أعظم الأسماء إلا سعداً والهللأوى كاتا بأوربا .
وتقاسم الكلام في نواح ست من نشاط الإمام متخصصون ستة لم يجتمع أمثالهم لموقف مماثل في
تاريخ مصر ، وسيتركون الدنيا على ترتيبهم في الكلام كما لاحظ حافظ إبراهيم في بائته الشهيرة فيما بعد
الشيخ أحمد أبو خطوة وحسن عاصم وحسن عبد الرازق وقاسم وحفنى ناصف وحافظ إبراهيم ، نختار
من خطبهم بعض عبارات قاسم لما فيها من كلمات توزن حروفها وتعد ، وذوب نفس صهرتها الرحمة ،
ومن التشوف لنشوء شعور عام تجتمع عليه الأمة . وهى خصائص مشتركة بينه وبين الإمام . ومذهبه
كما يصفه رشيد رضا (تربية الأمة) أو كما قال حسن عاصم (تربية الرأى العام فيها)
ومن انشغال قاسم بالاجتماع على شعور عام كانت علاقته الوثقى بسعد ، حيث بشرىات الزعامة ،
وكان خفقان قلبه يوم دنشواى ^(١) ويوم فقدت مصر مصطفى كامل ^(٢) ، ومن قبل ذلك يوم مات

(١) نكلم الحكم الصادر في ٢٧ يونية سنة ١٩٠٦ في اليوم التالى في البلدة وأعدم أربعة وحكم بالأشغال الشاقة على تسعة وحبس
وجلد ثمانية لموت ضابط إنجليزى بضربة شمس في القرية وإصابة زملائه بجراح من حجارة قذفهم بها الأهالى لصيدهم حمامهم
بينادقهم ، مع إصابة امرأة وإشعال النار في الجرن ، كتب قاسم عن الشعور العام في ذلك اليوم (رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً
مجروحاً وزوراً مخنوفاً ودهشة عصبية بادية في الأيدي والأصوات . كان الحزن على جميع الوجوه . - ساكت مستسلم للقوة . مختلط
بشيء من الدهشة والدهول ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة . - وهم يشبه قوماً مجتمعين في دار
ميت . كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان بالمدينة . ولكن هذا الاتحاد في الشعور بقى مكتوماً في النفوس لم يجد سبيلاً يخرج
منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان) .

(٢) قال بين ما قال : (١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل . هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر
يخفق . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى . أما في يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً في قوة =

الإمام . ففيه يقول :

(كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه . ويسعى إلى كل نفع للغير عام أو خاص . كان ملجأ الفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين ، والمصابين بأي مصيبة كانت ، وأهل الأزهر ، الذين هم أكثر الناس احتياجاً إلى المساعدة ، لأنهم في وسط المدنية الحاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم في ميدان الحياة الجديدة . . بل كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء إليه أو قدح فيه أو تحالف مع خصومه في ترويج عبارات القذف والنميمة التي لم تنقطع عنه يوماً في حياته . . .

كان الأستاذ يرى أن الشر لافائدة له مطلقاً وأن التسامح والعفو عن كل شيء وكل شخص هو أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في إصلاح فاعله . . .

إن إمام مصر كان محركاً بقوة فوق الإعتيادية . وإن عقله ملآن بالفكر إلى حد أنه كان لا يسهه كله ، إلى حد أنه كان يفيض منه بالرغم . وإن قلبه كان ملتهباً بحب وطنه فلا يستريح إلا وهو مشغول به وبسيادته وبمستقبله .

إنه كان مثل جميع نوابغ الرجال لا يبالي الألم الذي يأتيه بسبب أمنيته التي كان يعزها . . . وكم من مرة سمعته يؤكد بأنه صمم على ألا يتدخل في شيء من هذا القبيل ثم رأيت في الغد منغمساً فيه أكثر مما كان لأنه كان يعكس ما يراه عموم المصريين في أنفسهم ، عنده أمل لا يزغزه شيء في إصلاح أمته) .

ويقول :

(لقد رأينا مدة مرض الإمام ويوم وفاته حركة في الأمة لم يسبق لها مثيل في تاريخ حياتها . تتذكرون يوم السفر إلى الإسكندرية حيث كانت المئات من أصدقائه ومعارفه وزملائه وتلاميذه يودعون في المحطة وجميعهم في سكون وقلق . رأينا كثيراً من العلماء والذوات والأمراء مرضوا وماتوا ولم نشاهد أن عدداً يذكر من الأمة غير أقاربهم وأصحابهم اهتم لحادث من تلك الحوادث . لكن أمتنا قد شعرت في هذه الدفعة بحسن غيرتها أنها فقدت رجلاً كان عبئاً لها أكثر من كونه عائشاً لنفسه ولعائلته ، هذا هو سر الدور الجديد الذي رأيناه لأول مرة في الأمة المصرية . . . فكان هذا الحادث

= جماله . وانفجر بفرقة هائلة سمع دويها في العاصمة ووصل دويها إلى جميع أنحاء القطر . هذا الإحساس الجديد . هذا المولود الحديث الذي خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذي يتسم في وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذي يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة . (هو المستقبل) - مات قاسم بعد مصطفى كامل بخمسة وسبعين يوماً ، وكانوا ينتظرونه في محكمة الاستئناف .

العظيم مبدأ الاتحاد والتضامن بين عدد كبير من الأمة المصرية جمعهم إحساس واحد وهذه خطوة في سبيل التقدم .

جمعت المراثي في كتاب حرص على جمعه سعد وفتحى وبقيّة رجال الأسرة ورشيد رضا ، ففيها أقوال ستة من عظماء القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد أصغرهم سنّاً حافظ إبراهيم شاعر النيل كما لقبه الشعب في مقابل (شاعر الأمير) شوقي . ومن عريضة الخديو يوم مات الإمام تعايا شيطان الشعر عند شوقي وتعاضم وفاء حافظ ^(١) .

أنغص الفساد رأسه يوم استقال الإمام وأسبغ الخديو عطفه على الجامدين والجهلة ليعيدوا إلى الجامع الألفي العمر شيخوخته . وارتفعت فيه ومن حوله ، الأصوات المنفرة ، وقدم لنا مصطفى

(١) ترجع صلة حافظ بالإمام إلى أيام كان ضابطاً بالجيش يخارب في السودان ولما ظهرت له نية الإنجليز لاغتصاب السودان استقال ورجع إلى مصر سنة ١٩٠٠ وتوثقت صلته بالإمام وتلاميذه وفي طلبهم سعد زغلول ، ولما أصدر ديوانه الأول سنة ١٩٠١ قرظه مصطفى كامل في صحيفته (اللواء) ولما ظهرت ترجمته لكتاب البؤساء أثنى عليه في اللواء . وكان اشتهاره بأنه شاعر الوطنية المصرية سبباً في نقمة الإنجليز عليه طوال حياته .

أما اتصاله بالإمام فحال بينه وبين الخديو كما وقع للشاعر الكاظمي لما انقطعت بموت الإمام عشرة جنّيات كانت ترد إليه شهرياً في مطروف مدهاجر من العراق إلى مصر سنة ١٩٠٠ - وتوسط الشيخ علي يوسف (باشا) صاحب جريدة المؤيد لدى الخديو ليصله فقبل ثم عدل وقال علي يوسف للشيخ عبد القادر المغربي إن « بعض الناس » كان سبب عدول الخديو . ولما حدث الشيخ المغربي الكاظمي بذلك قال الكاظمي إن « بعض الناس » مقصود به شوقي فقد قال للخديو هذا شاعر محمد عبده !

يقول طه حسين عن شوقي وحافظ :

ولكن شوقي لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه . . فإذا بكى بكى الناس معه صادقين وجزعوا مخلصين) .

ودليل طه حسين مراثي حافظ للزعماء الثلاثة محمد عبده ، قاسم أمين ، مصطفى كامل - ومن أبيات حافظ في قصيدته قوله :

سلام على الإسلام بعد محمد سلام على أيامه المنصرات.

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله فأصبحت أخشى أن تطول حياتي

ويقول طه حسين فهذه قصيدة لا تستحق خلودها من قبلت فيه وحده ولا من قالها وحده وإنما مستمدة من الرجلين جميعاً)

والإمام حاضر دائماً على لسان حافظ . يودع قاسم أمين بعد ثلاث سنين فيقول له :

قل للإمام إذا التقيت به في الجنّتين بأكرم المنزل

لله أيام لكم درجت طالت عوارفها ولم تطل

ويودع حشمت بعد عشرين عاماً فيقول للرجل الذي عينه في سنة ١٩١١ رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب ليبقى فيه حتى سنة

١٩٣٢ عام وفاته :

مات الإمام وكان لي كنفاً وقضيت أنت وكنت لي درعاً

عبد الرازق صورة مؤرخة ١٩٠٥/٥/٣ نشرتها صحيفة (الجريدة) ^(١) سنة ١٩١٤ . قال :
 (أصبحت لأجد لما أحضره من دروس الأزهر طعماً . ذهبت إلى جامع الحسين وجلست قريباً
 من كرسى الدرس . . . قرأ عبارة المتن (أحمد الله أولاً وثانياً) . كانت الساعة ٩ عربى فما برح الشيخ
 يقتل هذه الجملة المسكينة بحثاً وتحقيقاً حتى أذن المؤذن المغرب (الساعة ١٢ عربى) . . . قلت ياسيدنا
 الشيخ ألا يجوز أن يكون كل مراد المصنف هو التلويح إلى البيت المشهور :
 لك الحمد . أما مانح فلانرى ونبصر مالا نشتهى . فلك الحمد
 لوى الشيخ عنقه ووجم مفكراً ثم أجاب : هذا الاحتمال غير وجيه لأن الحمد فى الجملة مطلق .
 وهو فى الشعر مقيد . ثم رجع فيما كان فيه) .
 هكذا صور مصطفى عبد الرازق تخلف ذهن المدرس عن إدراك مايرمى إليه الطالب وإصراره على
 تكريره درسه إلى سامعيه .

ولما مات الإمام طلب تلاميذه إلى الشيخ أبى خطوة أن يجعل درسه الذى يلقيه بداره على خاصته
 درساً ليلياً عاماً . وازدحمت باحة الدار . لكنه انقطع فجأة . فألح عليه السائلون فقال : « إن التفاف
 طلاب الشيخ محمد عبده حولى واجتماعهم فى دارى واشتغالنا بقراءة كتب عزيزة بين الأزهرين أخذ
 يقلق بال أهل الحول والطول » .

* * *

كان ورثة الإمام جد عليمين بأنه لم يكن يستبقى لنفسه من مرتباته إلا النفقة ، وأنه يفرق الباقي فى
 مستحقين آخرين ^(٢) فلم يبق لعياله إلا معاشهن . وكان أخوه حمودة قد صار محامياً وحمل رتبة (بك)

(١) كانت لسان حزب الأمة رئيس تحريرها لطفى السيد ومن كتابها الباشوات مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق ومحمد حسين
 هيكى وطه حسين ومنصور فهمى والأستاذ محمود عزمى والعقاد والملازنى وشكرى والغابى .

(٢) أسلفنا أنه وكل وكيلاً فى قبض بعض مرتباته وصرفها للمستحقين المشار إليهم دون أن يعرف أحد أسماءهم . ولولا إفشاء
 الشاعر الكاظمى سره لسلم سره كس والشيخ عبد القادر المغربى لطوى الحقائق خبر مرتبه . وقد حلت وزارة الأوقاف محل الإمام بعد موته
 فى تقدير مرتب له بتوسط سبيل زغلول حتى مات الكاظمى سنة ١٩٣٥ . وفى إحدى قصائد الكاظمى فى الإمام - بعد موته - يقول
 عن سعد إذ ننى إلى جزيرة سيشل :

هذا ربيبك يا محمد حامل ماتحمل
 فلتحى مصر وأهل مصر ومن حوته سيشل

سأل الإمام قبيل سفره . . يوماً . رشيد رضا عن الكاظمى فأنبأه أنه مدين فقال انه يأسف لأن أخاه تصرف فى نفقة السفر . ولو
 علم قبل ذلك لسدد الدين لأن سداه أولى من السفر .

وفى سفرته إلى الإسكندرية عهد أهل الإمام إلى رشيد رضا أن يرتب أوراقه فوجد فى محافظها صراً من نقود عليها أسماء أصحابها
 لترسل إليهم .

ويقول العقاد (عرفنا نحن إناساً نظروا إليه فى جوف الليل يطرق عليهم الأبواب ويسلمهم ما قدر عليه من عاجل الصدقة . وهو يقول

فاشترى باسم أخيه بعض أرض فضاء في الصحراء وأفدته من دائرة السنية ثمن ألفدان من الأولى عشرة جنيهاً بيعت فيما بعد كلها بنحو ألف وخمسمائة جنيه وبيعت الدار التي بناها لنفسه في صحراء عين شمس إلى وزارة الشؤون الاجتماعية ، وماتزال - مع تجديد الوزارة لها - أشبه بدار مستخدم صغير . . بل شيخ صوفي علمه الشيخ درويش أن يسير في ملكوت الله خطى كتبت عليه ، دون أبهة أو مجيلة . وعلى مقربة من هذا المسكن كان سعد باشا في بعض السنين يستأجر داراً أحدث بناء يقيم فيها شهوراً بحثاً عن الجفاف .

وفي ذلك العصر كان كثير من المستشارين ، من غير أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية الذين ماتوا فقراء ، يشترون الضياع من فضل مرتباتهم . أما المحامون فمنهم خليل إبراهيم يشتري أربعة آلاف فدان والهلأوى تسعة آلاف فدان ^(١) وعشرات آلاف الأمتار في « جاردن سيتي » ثمنها الآن مئات ملايين من الجنيهاً .

تزوج البنات في حياة الإمام من إخوة ثلاثة هم محمد بك يوسف الذي سيتخيه المحامون نقيباً لهم وأخويه عثمان بك ^(٢) وسيصير مستشاراً في الاستئناف وعبد اللطيف . وتزوجت رابعته بعد موته من تاجر مجوهرات صغير . ماتت الأولى في الربع الأول من القرن والثانية في منتصفه والأخيرة من بضعة عشر عاماً .

وكان أهل هذا الدين الذي أراد إصلاحه هم الوارثون حقاً ، بما هيا لهم في منجزاته من قدوة وفي مؤلفاته من قواعد التفكير الحر ، الجامع بين العلم والدين والقوة والحضارة . والمؤلفات ^(٣) قليلة قلة سنوات تدريسه لكنها جليلة جلالة فحواها ، خالدة خلود آثارها وهو فعال

= إنه أمانة من جهات البرؤديها إليهم ولا يعرفهم بنفسه وكننا نسكن بخط المطرية التي كان فيها مسكنه فسمع أخباره مع أصحاب البيوت الكريمة التي فقدت عائلياً فلم يعرفوا أنه هو ذلك الرسول الذي كان يطرق عليهم أبوابهم تحت جناح الظلام إلا بعد أن افتقدوه (وللعقاد كتابان في رجال القرن الحالى عن محمد عبده وسعد زغلول .

(١) نسبت أقساط أراضي جاردن سيتي في نزع ملكية الهلأوى بك وتدخل الملك فؤاد في المزاد فرست عليه ملكية دار الهلأوى بجاردن سنى ورسى مزاد ٦٢٣ فداناً على موكلته السيدة هدى شعراوى فوقفت الأرض على عائلته ومن بعدها الجمعية وآل نصف ذلك المقدار للجمعية . وخصوصة الملك فؤاد للهلأوى مشهورة .

(٢) أنجب عثمان بك من بنت الإمام - وهذا كان للإمام حفيدان يشار إلى كل منها بالبنان في صناعتهما أولها زميلنا المرحوم إبراهيم عثمان يوسف مات نائباً لرئيس محكمة النقض بمصر وثانيها الدكتور محمد عثمان يوسف الأستاذ السابق لطب العيون بالجامعة المصرية .

(٣) منها

١ - تفسير القرآن الكريم .

٢ - مجموعة فتاوى الشيخ محمد عبده (مجموعة بدار الإفناء) .

٣ - رسالة الواردات .

قوال ، تشارك أعماله أقواله في تخليده :

أعجلها في الأثر تكوين « الزعامات » التي ظفرت لمصر بالاستقلال والدستور ، وأجلها إصلاح القضاء الشرعى ، لكن أفعلا في عقول قومه هو العمل المنهجى بالحرية الفكرية والعقيدة الصحيحة . وإن تعجب فعجب أن تنقضى أعوام سبعون على قيام الجامعة التي شرع وصحبه في إنشائها قبيل موته وورثتها جامعة القاهرة ، والجامعات التي تفرعت عليها في مصر والعالم العربى ، وأن تسمى قاعة الأزهر الكبرى « قاعة محمد عبده » ، ومع ذلك اقتصر الكتاب على إجمال حياته ولم تتطرق الدروس ولا الرسائل إلى الأبواب الواسعة من وجوه علمه . فهو « المجتهد » المطلق فى الفقه و « المفسر » المعاصر للقرآن و « الشيخ المفتى » و « المصلح » الأعظم للقضاء الشرعى و « روح الإصلاح » الذى يسرى فى الأزهر و « المشرع » الأكبر فى مجلس الشورى و « المجدد » الحفيظ على اللغة و « طليعة » الإصلاح القومى فى الوقائع أو « رئيس التحرير » (١) .

وهو « الشيخ الرئيس » فى الجمعية ، وفى المحكمة ، وهو « الصوفى » المجاهد فى الله حق جهاده والسابح فى بحار السياسة العالية سبح كبار الربانية .

* * *

وهو الإمام الذى لم تطفئ جذوته برودة القمم العالية التى قضى فيها عمره . أو يستبد بقلبه كبر أو نشوة نصر . علمته فتوة المتصوفة أن ينسى نفسه ويذكر الناس . فكان فى كل مواقفه يكسب سبباً أو علماً أو فقهاً يسخره لخدمتهم . ولا فقه إلا أن يعايش الحياة الواقعة . ومن ثمة كان فقهه تطبيقياً يتعاضم تعاضم وفائه بحاجات عصره وإثباته للناس أن العقيدة

= ٤ - حاشية على الدوائى .

٥ - ترجمة الرد على الدهريين لجمال الدين .

٦ - شرح مقامات بديع الزمان الهمداني .

٧ - شرح نهج البلاغة .

٨ - شرح البصائر النصيرية (ابن رسلان) .

٩ - رسالة التوحيد .

١٠ - الرد على هانوتو .

١١ - الرد على فرح أنطون (الإسلام والنصرانية) .

١٢ - رسائل وكتابات مختلفة .

١٣ - رحلة صقلية .

١٤ - نظام التربية والتعليم فى مصر .

(١) اطلعنا فى كلية اللغة العربية على رسالة دكتوراه للدكتور أحمد عبد الرحمن عيسى (الفن الصحفى عند محمد عبده) ورسالة

ماجستير (محمد عبده أديباً وناقداً) للسيد تقى الدين السيد .

الإسلامية « نظرية وتطبيقاتها » لا مجرد مبادئ يترنم بها الحُفظة المتجمد أو الجاهل البليد . وعلى هذا تكافأت مواقفه وتعاليمه وسيرته ودروسه . وطالما اجتمعت في موقفه الواحد معان لا تجتمع إلا في الكتاب الكامل . وتكاملت الشجاعة والحكمة والموعظة الحسنة مع العلم في إحداث الأثر . فانمازت حياته من حياة غيره من الأئمة بكثرة ماخاض من ميادين جهاد علمي واجتماعي وسياسي وما قدم فيها من دروس تطبيقية . فهو في كل صفة أو وظيفة « صاحب موقف » لا مجرد رأى أو تمسك بنظرية . والناس أسمع وأبصر بالموقف لأنه « عمل » .

كانت حياته أسلوباً تطبيقياً من أساليب الإسلام لإصلاح عصره « بطريقة حياته » وتداول آرائه واقتفاء آثاره .

وهو دائم الصعود . لا يتوقف ولا يتخلف من عهد الطلب إلى عهد التدريس . ومن تعليم الشباب إلى تعليم الأمة ثم الجهاد في الثورة ثم في الخارج ثم في منصة القضاء العالي ودار الإفتاء فنبر التفسير في الأزهر حتى صار إلى الرفيق الأعلى .

وهو الكوكب الدرّى في ارتفاعه ودورانه حول نفسه ليطورها ويطور الناس معها . إليك مثلين أولهما في العمل : حيث له في مراحل الحياة النبوية أطوار ثلاثة تسعفه فيها أصول الفقه الثلاثة (سد الذرائع والعمل بالمصلحة والقياس الصحيح) يوم عارض الثوار مخافة ألا يصلح الحكم النبائي للأمة ويوم أصبح مدافعاً عنه بعد إذ رآها تهبأت له ويوم صار زعيم ممثلي الشعب في مجلس الشورى .

وثانيهما في العلم : حيث يقول في شرحه لنهج البلاغة قبل ١٨٨٨ م (إن الرسم على الورق والأثواب ونحوها لا يمنع استعماله وإنما يتجافى عنه بالنظر تزهيداً وترفعاً) ثم حبه له وقوله في رحلة صقلية سنة ١٩٠٣ إنه (يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر منها على الدين) .

فلا تتساءل لماذا كان فقهه أو فهمه يجد طريقه إلى الأئمة ، أو لماذا أجمعت عليه الأمة ونحت حقد الحاقدين والجامدين . فالمسلمون يفتحون قلوبهم للمجتهد ، إذ يلمسون من « طريقة حياته » صدور رأيه عن أصول الإسلام . وهو دين الفطرة ، تهتدى إليه النفوس وتهدى بالإخلاص والوضوح .

وفي المثليين اللذين سقناها لتطوره وتطوير الأفكار معه مصداق ذلك ودلالتان على أن الحكمة والموعظة الحسنة هما الأسلوب الأمثل لكل دعوة .

وإذا جاز تقدير امرئ بما يفكر فيه طول يومه ، فالرجل العظيم يقدر بما يفكر فيه ويصنعه طول حياته .

فه أعظم مقدار هذا الإمام الذى حرك « آله » الاجتهاد كما يسميها الشافعى وأبو حنيفة ، وأثبت قدزتها الديناميكية على إحداث الإصلاح ، حتى فيما يخاله الناس أسوأ الظروف أو آخر الزمان ، والذى جلى لأتمته قواعد استقلال الإرادة وحرية الاجتهاد والاختلاف والمحاولة والخطأ . ليخلفها عالية الرأس مفتوحة العين قادرة على الفهم والحركة ، فى عالم سبرى الناس فيه بأعينهم أقدام رجال منهم على سطح القمر .

وهو الغائب إذ تبادرت الخطى إلى حظوظ الدنيا ، الحاضر إذ دعا الداعى ، كرجع الصدى ، لصوت بلاده ، وكالقائد الذى يظهر حيث يتظر أن يظهر ، لدفع أذى أو تقديم عون أو تكوين رأى عام .

وهو دائماً أقرب المحاربين للعدو ، والأشد أيداً ، والأسخى يداً فى مجالس إدارته ، أو فتياه أو شوره وفى كل مقام . يتكافأ احتفاله بالمعرفة ، مع إقباله على الخدمة العامة . وشدته وحدته فى مقاومة الظلمة مع فيوض الرحمة بالضعفاء والاهتمام بالجانب الإنسانى الذى يهب الحياة قيمة والأشياء معنى والأشخاص إحساساً بالذات .

وهو فى كل حالاته داع إلى الله بالحكمة ، ظاهر السمات واضح القسمات ، سوى الخلق والخلق ، تحكم ذاته وحدة الغريزة والعقيدة ، وطريقة الحياة ، حتى ليدرك المرء صنيعه قبل أن يصنعه فى مواقفه المتوافقة أو المتخالفة ، لأنها محكومة بمنطق الرحمة الذى بنى عليه الإسلام وجبل عليه الإمام . فليس مصادفة أن يكون الساسة العظماء والعلماء والكبراء والفقهاء والأدباء الذين تقدمت بهم الدنيا تلاميذه وأن يكون رائد « العمل الجماعى » الذى أحيا الشعور العام فى الأمة ، أجاءته السماء على فترة من الأئمة ليصير خصائصهم قوى متضافرة فى توليد تيارات من السلوك السليم والإدراك الصحيح ، فى عصر عاصف مستوفر ، ووطن تلتقى فيه وتفرق طرق العالم وحقب التاريخ ، يتكالب المستعمرون الأوربيون ، والأعداء المحتلون ، والحكام الانتهازيون ، على استصفاء خيراتهم لأنفسهم ، وعلى تجهيل أهله وتضليل علمائه وإخماد جذوته . فكان لزاماً أن يعمل الإمام فى آفاق لا ترتفع إليها مطامع الإنجليز ومفاسد الخديويين .

وماهى إلا « الدين واللغة والشريعة » حيث النفوس الجيدة تطرد النفوس الرديئة إلى أسواق السلاطين ، وفيها المراصد لمهابّ الريح ومصادر الضغط من أوربا أو القاهرة . وكانت آية النجاح فى

سياساته أن يصنع كل ما صنعه دون أن يقال عنه إنه يعمل « بالسياسة » وأن يفهم بعض تعوزه بالله منها على إطلاقه أو ظاهر عباراته التي سنقرؤها فيما بعد .

قال بعضهم إنه تعامل مع الإنجليز مؤثرين الترام جانب الخديو ومتمسكين بالسيادة التركية على مصر . وفاتهم .

١ - أن كل هؤلاء عدو تجمعهم مصالحه مع الإنجليز . وتركيا هي (الرجل المريض) لا يقويه في مصر إمام مصر .

٢ - أن الإمام بقية الناس من أبطال الثورة على الأسرة المالكة وأذناها وممثل « جماعة المسلمين » في عصره ، عليه أن يكف الأذى الحال بوطنه والتصدى لمصدره ومناقشته .

٣ - أنه لابد للمناقشة من طرفين . وإلا غابت مصر حيث يجب أن تكون حاضرة . فكذلك صنع ابن تيمية وابن خلدون .

٤ - وأن الاكتفاء بالصياح في وجه العدو - حيث يمكن العمل للأمة - تعطيل للقوى الذاتية فيها وإمكان للعدو منها .

٥ - وأن التاريخ قد أقر صنيعة فلم تزل مصر من الإنجليز نيلاً إلا بالمراوضة أو المفاوضة .

* * *

وأى هذا كان فكبرى سياسات إمام المسلمين في عصره أنه فرض على نفسه - فرض عين - تنفيذ واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه وقلبه ، وأنه قدر على ذلك وإن خذله بعض أو خيب ظنه بعض . وأنه نشط عناصر الصحة في الأمة لتعالج بها متاعبها . وأن مدرسته استمرت على طريقته فأبلغت الأمة مبالغها لتسبق غيرها من دول آسيا وأفريقيا بنحو قرن .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « وعاء الجهاد » الخارجى والداخلى في سبيل الله والجماعة . والجهاد عنقوان السياسة والإسلام دين ودولة .

والذى ينشط عناصر الصحة الذاتية في أمة مسلمة لا يستعمل الإدهان أو الانتهاز أو المباغته وإنما يستعمل (القيم الإسلامية) أى « القيم الذاتية » لتبقى وتقوى وتقدر على المقاومة .

لقد استأنف محمد على وبنوه صفحة في تاريخ مصر ، شوهتها البلاهة باستعمال الأجانب والتمكين لامتيازاتهم ، وإسراف بنيه على أنفسهم باستيراد مظاهر الحضارة الغربية لاحقائقها ، وإحلالهم القانون الفرنسى محل الشريعة الإسلامية وعجز القانون المستورد عن أن يجعل المصريين أوروبيين وإقبال أساطيل أوروبا لتغمد سيوفها في قلوب أمة مفتوحة لها .

وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . وتقاذف الطرفان الصولجان .

وكان من فضل الله على مصر أن يستغل الإمام التوازن الشكلي الهشيش بين الطرفين ، ليعمل لأتمته بالمبادئ الإسلامية والسواعد الوطنية لا (بالقيم الأجنبية) .

ولقد نهضت اليابان نهضتها في أوائل القرن التاسع عشر مع نهضة محمد علي ، وارتفع صوت اليابان وخفت صوت مصر لمناسبة أوربا العداء لها وتهافت المصريين على « قيمها » دون « قيمهم » . ونهضت الصين نهضتها في منتصف القرن العشرين ، مع نهضة مصر ، وبلغت الصين شأوها ولم تبلغ مصر لأنها استخدمت « قيماً مستوردة » . ولم تلجأ إلى القيم « الإسلامية » التي حييت حتى اليوم ببقاياها .

أجل - علم محمد عبده تلاميذه : سعد ومحمد فريد ورشدي وعدلي وثروت ومحمد محمود من الساسة العالمين وقاسم وحسن عاصم وعلى فخري والهللأوى ولطفي السيد وحافظ إبراهيم وعلى إبراهيم وطلعت حرب والمراغى ومصطفى عبد الرازق وتلاميذهم من الزعماء والمصلحين في شتى الميادين ، متعاقبين أو مجتمعين ، أن استعمال « القيم الذاتية » هو الترياق المحرب .

ومن طريقته تفرعت مناهجهم وتعاضمت همهم فشادوا من سيرة إمامهم وسيرهم هزم مصر الرابع .

والخلد نتاج هم كبار ترفعها قيم كبرى إلى قم عليا ، ليسير الناس في هداها . والله متم نوره .

وصية ومبادئ

حفلت حياة الإمام بأعمال تفوق الأقوال . ومن ذلك كان الاعتبار بأعماله فاتحة وصايا . ولا حدود لما يستنبطه امرؤ من حياة إمام ، وإن جاز لنا أن ننبه الآن على بعض أمور تتعلق « بالطريقة » قد يقتضيها المقام .

أولها : أن الانتساب إلى العلوم الشرعية شرف وعلى كل شرف تكاليف ، أهمها العمل به . والعلماء و «أولو الأمر» قرناء إذ يتصدون للعمل في سبيل الجماعة . أما التسلب من الواجب أو مساهلة الفساد فينزح من العالم وجه امتياز ويجعله شريكاً أخرس للآخرين .

ثانيها : أن الحياة تكبر بالترك وترقى ، قدر ما يرفض صاحبها أن يتدلى . ولكل عالم المكان الذي يضع فيه نفسه ، بصنيع يرفعه أو يرضعه . وعلى هذا صاحب محمد عبده في شبابه رياض باشا والبارودي وزعماء الثورة وجمال الدين ، وتقدم العلماء كافة في شيخوخته ، وقال عنه الخديو من خشيته « يدخل على وكأنه فرعون » !

ثالثها : أن يد الله مع الجماعة . وعلى الفرد أن يعمل مع « الجماعة » ليعلى قدره وأقدارها وأثره وآثارها ، كالواحد إذا اجتمعت في جواره أرقام تجعله آلفاً أو ملايين . ومن ذلك كان نجاح الجمعية الخيرية الإسلامية وماحذا حذوها من جمعيات وأحزاب ومجالس إدارات .

رابعها : أن الحفاظ على الوحدة الوطنية تكليف تأمر به الشريعة . لذلك كان أدى التلاميذ لهذه الأمانة أدناهم من الإمام . فالتاريخ يسمى سعد زغلول « زعيم الوحدة الوطنية » ومصطفى عبد الرازق ومحمد مصطفى المراغى إمامان في التسامح الدينى والفكرى والتعامل مع الأجانب من أهل أوروبا . والزنكلونى كان يعانق القمص سرجيوس على منبر الأزهر^(١) .

خامسها : أن الإمامة طريقة فكرية يسير فيها الأتباع والأشباع . تتجلى في « كليات » « أساسيات » . وكان جل جهاد محمد عبده في مجال الدين واللغة العربية والشريعة . ومن التوحيد الذى هو أساس الدين تنبع الحرية الشخصية واستقلال الإرادة والخضوع لله دون غيره ، وباللغة والشريعة قوام الأمة السياسى ، ووحدة الجماعة ، وسلامة المعاملات ، وتماسك الأسرة ، وازدهار القيم الذاتية للمجتمع .

ومن أصالة هذه الكليات تابعت دساتير القرن الحالى في مصر والأمة العربية على النص عليها واتخاذها أسباباً للوحدة العربية والقومية العربية .

سادسها : أن من حق الجيل الحالى بمصر أن يفاخر بالنص في دستور ثورة التصحيح في سنة ١٩٧١ على أن (سيادة القانون أساس الحكم في الدولة) .

فالحرية الشخصية والفكرية وحماية القانون لها هى التى أطلقت « ذات مصر » وملكات بنيتها وابتكاراتهم على أيدي الطلائع الخالدين من تلاميذ محمد عبده وتلاميذهم من العلماء القانونيين والشرعيين والطبيين والقضاة والمحامين والأطباء والمهندسين ، والفنانين والكتاب والشعراء والمعلمين والساسة العالمين والمصرفيين والاقتصاديين الصناعيين والزراعيين ، وغيرهم ممن تصدرت بهم مصر العالم الإسلامى والعالم النامى على مدار قرن كامل .

وعندما يتخلف القانون أو تجف أوراق الحرية يتوقف التقدم ، ويصاب الفكر بالعقم ، ويقضى الناس أعمارهم في الأنين .

(١) وفيها تغنى ثوار سنة ١٩١٩ يقول الشاعر .

الشيخ والقسيس قيسان . وإن تشأ فقل هما شيخان

وياسم الشيخ الزنكلونى مسجد بشارع سوق السمك القديم في حى الأزهر وياسم القمص سرجيوس شارع في مصر الجديدة من

ضواحي القاهرة .

سابعها : أن النهضة العلمية التي بدأها رفاة رافع ، والنهضة الفكرية التي بعثها محمد عبده ، والثورة السياسية التي أشعلها سعد زغلول ، أدلة ثلاثة على مقدار ماتستجيب طبيعة الأمة إلى الدعوة المنبثقة من « قيمتها الذاتية » ، وأن هؤلاء الزعماء الثلاثة العظماء بكل المقاييس العالمية ، والذين لمسوا العصب الحساس في الأمة بكفاءة وقوة ، قد تتجوا جميعاً في صحن الأزهر وحيوا - حياتهم كلها - متمسكين بالقيم التي غرسها فيهم أيامهم الأولى فيه . وما هي إلا « القيم الإسلامية » التي تهب القوة والثقة وتجعل العمل لمصلحة الجماعة هو التطبيق الأمثل لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ثامنها : أن هذه النهضة ورجالاتها الحافظين للتراث الإسلامي والآخذين من العلم الأوربي أحسنه أدلة عملية على أن « هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله » وهو التطبيق الصحيح للشريعة وأن التفكير الإسلامي تفكير عالمي يتخطى به المصلح حدود أقاليمه وأن التربية الإسلامية تجعل المسلم القدوة ثروة للإنسانية قاطبة .

تاسعها : أن دفاع الأسرة المالكة عن وجودها أو الإنجليز عن احتلالهم كان سبباً في نفي رفاة بك إلى مدرسة ابتدائية في الخرطوم ! ونفي كل من محمد عبده وسعد زغلول مرتين . أما اليوم ففصر لنا وحكامها من أنفسنا . وما أقدرنا على أن نبني بسواعدنا وقيمنا الذاتية أهراماً حديثة من المنجزات العظيمة .

* * *

أما الوصايا المكتوبة ، فواضحة العبارات في كتابات شتى ومجتمعة . قد يمكن إجمالها في مقولة الإمام الذائعة بشعار دعوته .

(إذا كان الدين كافلاً بتهديب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة فيه ما بيناه . وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليهم أخف من إحداث مالا إمام به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟)

* * *

وهذه المقولة تنتجها مبادئ أهمها :

- ١ - أن الدين هو العمل به لا مجرد الانتساب إليه .
 - ٢ - أن الدين والعلم صنوان في الإسلام .
 - ٣ - أن الإسلام دين الحرية الفكرية وتحكيم العقل ، ومن ذلك يوجب الاجتهاد ويأذن بالتطور .
- وقد يكون أقرب الموارد لاستخراج هذه المبادئ وأدلتها على ارتباط ذاته ونظرياته محاضراته المرتجلة في تونس سنة ١٩٠٣ وفيها أعلن حاجة المسلمين إلى أمور ثلاثة :

١ - العمل الجاد دون تواكل .

٢ - استعمال العقل .

٣ - سلامة العقيدة .

قال بين ما قال :

« (إن الواحد منا إذا لاح في ذهنه نور إلهي يرشده إلى طريق العلم يأتيه معارض يقول له : إن الحالة الحاضرة هي قدر الله لا حيلة لنا فيها . ومالله من عدو أضر من هذه الاعتقادات ، وكفانا قدوة خير أسوة سيد المتوكلين ﷺ فإنه كان على شدة توكله واعتصامه بالاستعانة بالله ، جل شأنه ، لا يفتري عن العمل في الدعوة إلى الحق وحمل الناس عليه . . . جاء في الأحاديث والأدعية الماثورة قوله ﷺ « اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً ») .

« (... إن اليقين لا يحصل بقراءة الأدلة وخزنها في الأذهان وإنما يحصل بالاستدلال الصحيح وإدراك العقل وجه الدلالة من نفسه دون تقليد) .
(... إنما يكون اليقين بإطلاق النظر في الأكوان طولها وعرضها حتى يصل إلى الغاية التي يطلبها دون تقييد ، كما هدانا الله إلى ذلك في كتابه ، فإنه يخاطب الفكر والعقل والعلم به بدون قيد ولا حد) .

ويضرب نفسه مثلاً لما يدعو إليه فيقول :
(أقول قولي هذا ولا أريد إلزام أحد بقبوله وإلا خالفت ما أدعوا إليه من استقلال الفكر وحرية الرأي)

ويستطرد للتحديد وتخليص الاعتقاد في رسالة التوحيد فيقول :

(يجب أن يقتصر الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ولا يجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني - وشرط الاعتقاد ألا يكون فيه شيء يمس التثريب وعلو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين .
وإنما الذي يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور كرامة ، كانت من أي ولي كان ، ولا يكون إنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ولا مائلاً عن سنة صحيحة ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم ، اللهم إلا أن يكون مما صح في السنة عن الصحابة . . .

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين في هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأوليأؤه وأهل العلم أجمعون .

* * *

وأصل ذلك وفصله في الرد على دعوى فرح أنطون : (إن المسيحية أكثر تسامحاً مع العلم من الإسلام) فبدأ الرد بالطرف الأول من المفاضلة فذكر مسلمات المسيحية واستطرد إلى الأصول الإسلامية الثمانية التالية :

١ - أن الإسلام (قد قاضاك إلى العقل ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن لسلطته . بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذي يستقصي جهده في الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن فهو ناج . فأى سعة .. !)

٢ - اتفاق أهل الملة (إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه ، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل . وبقي في النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله في علمه ، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل) .

ونحن نستصحب دائماً قول ابن تيمية [وقد تدبرت ما أمكنني من أدلة الشرع فما رأيت حديثاً صحيحاً يخالف حديثاً صحيحاً ، كما أن المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح ..] .

٣ - البعد عن التكفير (فإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان) .

٤ - الاعتبار بسنن الله في الخلق ، فالقرآن يصرح بأن الله في الأمم والأكوان سنناً لا تتبدل ، والسنن هي الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها قوم (بالقوانين) ومعنى ذلك أن الدين منطق ولد في العلم فلا يمكن أن يحتقره .

٥ - قلب السلطة الدينية . فلا سلطة دينية إلا للموعظة الحسنة . ولكل مسلم أن يفهم عن الله من كتابه وسنة رسوله دون وسيط سواء في الاعتقاد أو في الفقه العملي .

٦ - حماية الدعوة لمنع الفتنة .

٧ - حماية الآخرين من الفتنة (لهم مالنا وعليهم ما علينا) (من آذى ذمياً فليس منا) وفي الأسرة المسلمة زوجات غير مسلمات مسيحيات ويهوديات .

٨ - الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة فصاحب هذا الدين لم يقل : (بع ما تملك واتبعني) ولكنه

قال لمن استشاره في الصدقة (الثلث والثلث كثير . إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس) .

والرخص كثيرة عند المشقة والزينة والطيبات مباحة مع الاعتدال .
(والمسلمون محفوزون حفزاً لطلب العلم فإذا لاقاهم العالم شدوا به أو أصرهم ولا يزالون ماتكون عقيدته .. لا شيء ينقلب عند النفس الإنسانية لذة بنفسه - وإن كان في أول الأمر مطلوباً لغيره - مثل العلم) .

وحصل النتائج فيما يمكن إجماله في :

١ - اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية في القرن الأول وبالمكونية في القرن الثاني ، حتى صار في إسبانيا - الأندلس - وحدها سبعون مكتبة عمومية . وفي بغداد كان حنين بن إسحق النسطوري يجعل داره مكتبة عامة يتعلم فيها المسلمون وغيرهم .

٢ - (قالوا إن «يكون» هو أول من جعل التجربة والملاحظة قاعدة العلوم العصرية ذلك حق في أوروبا . وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة^(١) . . حتى لقد نقل جوستاف لويون عن أحد الفلاسفة الأوربيين أن القاعدة عند العرب (جرب وشاهد ولا حظ تكن عارفاً) وعند الأوربي إلى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي (اقرأ في الكتب وكرر مايقوله الأساتذة تكن عالماً)^(٢) .

٣ - احترام العلماء من أي نحلة (كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة . . ومع ذلك فهو من مشايخ البخاري صاحب الصحيح . .)

٤ - ولا يحتج على الإسلام بمسلك المسلمين في عصور تخلفهم أو برجال متخلفين . فجمود المسلمين يعيهم ولا يعيب دينهم . وهو علة عرضت لهم من تخلفهم السياسي ، (فإن شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة ومن كل أرض تذكر فيها السياسة . ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في

(١) هذه الفقرة تسجل سبقاً للإمام يتابعه فيها الكتاب المعاصرون .

(٢) يقوم المنهج العلمي العالمي في العصور الحديثة على التجربة والاستخلاص وينسب الأوربيون إلى فرانسيس بيكون (١٦٢٦) إذا صدر كتابه Novum Organum (النظام الجديد) متضمناً للمنهج وتفاصيل هذا المنهج هي تفاصيل المنهج العربي في الاجتهاد (الأصل الرابع من أصول الفقه الإسلامي) نقله الأوربيون بعد ترجمة العلوم من العربية إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوربية الحالية في الطب والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا وهو أصل قرأتى صريح واعترافات الأوربيين المعاصرين تثرى على ذلك - راجع كتابنا (القرآن والمنهج العلمي المعاصر) طبعة دار المعارف .

السياسة ، ومن ساس ويسوس ومسوس)

٥ - (جل ماتراه الآن مما يسميه العالم إسلاماً فهو ليس بإسلام وإنما حفظ من أعمال الإسلام « صورة » الصلاة والحج ومن الأقوال قليلاً صرفت عن معانيها . ووصل الناس فيما عرض لدينهم من البدع والخرافات إلى الجمود) .

٦ - جنى الجمود على اللغة وأضاع آثار المتقدمين . .

(قال قائل ^(١) من عدة سنين : إنه ينبغي أن يعين القضاة من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها .

وقال إن الضرورة قاضية بأن يؤخذ ببعض الأقوال من مذهب مالك أو الشافعي تيسر على الناس دفعاً للفساد فقام كثير من المتورعين يحولون ويندبون حظ الدين) .

٧ - ويقول في العقل والوجدان (لاتزال الشدائد تنزل بهؤلاء المتسبين إلى الإسلام ولا تزال القوارع تحمل بديارهم حتى يفيقوا . . وعند ذلك يجدون هذا « الكتاب الكريم » في انتظارهم . . وقد وعد الله بأن يتم نوره . .)

(هنالك يلتقي « العقل » مع الوجدان الصادق « القلب » . . إياك أن تعتقد ما يعتقده بعض السذج من أن هناك فرقاً بين العقل والوجدان في الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة . فإنما يقع التخالف بينهما عرضاً عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس) .

(العلم الصحيح مقوم الوجدان والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . والدين الكامل علم وذوق وقلب . برهان وإذعان . فكر ووجدان . فإذا اقتصر دين على واحد من الأمرين فقد سقطت إحدى قائمته . وهيئات هيئات أن يقوم على الأخرى . ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان إنسانين والوجود الفرد وجودين) .

(لابد أن ينتهى أمر العالم إلى تأخى العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم) .

الصورة الجميلة :

ويرسم الإمام صورة للوجه الجميل للإسلام في إبداع فقيه عالم بالتاريخ فيقول : (آخذ بيد القارئ الآن . . أدخل به بيتاً من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحدثون

(١) يقصد الإمام مجاء في تقريره عن إصلاح القضاء الشرعى . فهو يذكر قوله ولا يذكر نفسه .

ويتباحثون . . فالإمام البخارى ^(١) حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان ^(٢) يأخذ عنه الحديث وعمر بن عبيد ^(٣) رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصرى ^(٤) شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه . وقد سئل الحسن عنه فقال : (لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته) بل أرفع بصرى فأجد الإمام أبا حنيفة ^(٥) أمام الإمام زيد بن علي ^(٦) يتعلم منه أصول العقائد والفقه ولا يجد أحدهم من الآخر إلا ما يجد صاحب الرأي في حادثة ، ممن ينازعه فيه ، اجتهداً في بيان المصلحة ، وهما من أهل بيت واحد) .

ويقول : (والخلفاء أئمة في الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش . والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جنود الخلفاء . والدين في قوته والعقيدة في أوج سلطاتها . وسائر العلماء . . لافرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهناك يشير القارئ المنصف ويقول : ها هنا نعرف كيف يتفق الدين مع المدنية . عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية في النظر . .)

(إن المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم . أصيبوا بمرض الجهل فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل وطعمة الطاعم)

« علو في الحياة وفي الممات »

لخص الإمام في مذكراته أغراض حياته من مطلعها ليذكر المسلمين أن الجهاد مستمر إلى يوم القيامة . قال رضي الله عنه :
(ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

- (١) البخارى (٢٥٦) تلميذ الإمام أحمد (وصاحب الجامع الصحيح للأحاديث) أشهر كتاب عند المسلمين بعد القرآن .
 - (٢) إمام الخوارج الصفرية - وهو يروى أحاديث لأم المؤمنين عائشة .
 - (٣) زعيم المعتزلة (١٤٤) وقد سموا كذلك إما لاعتزال زعيمهم واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى ، وإما لاعتزال قول الأئمة ، وإما لاعتزال مرتكب الكبيرة عن المؤمنين - وهم يقولون إن الإنسان مختار لأفعاله .
- وعمر بن زوج أخت واصل بن عطاء وفيه قول أبي جعفر المنصور :
- (كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد)

- (٤) الحسن البصرى (١١٠) تلميذ سعيد بن المسيب إمام التابعين . وهذا زوج بنت أبي هريرة وكان الحسن إماماً في الزهد والورع وهو شيخ عمر بن عبد العزيز وقاضيه .

(٥) أبو حنيفة (١٥٠) الإمام الأعظم لأهل السنة .

- (٦) زيد بن علي استشهد سنة ١٢١ إذ خرج على هشام بن عبد الملك .
- وهو إمام الشيعة الزيدية . تعظم عليه أبو حنيفة ومن الفقهاء من يقولون إن المذهب الحنفي أقرب إلى المذهب الزيدى من مذاهب أهل السنة الأخرى .

الأول :

تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وإنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم باعثاً على البحث فى أسرار الكون داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل . كل هذا أعده أمراً واحداً . وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم وطلاب فنون هذا العصر ومن فى ناحيتهم . .

أما الأمر الثانى :

فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير سواء كان فى الخطابات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الصحف أو فى المراسلات بين الناس . .

وهناك أمر آخر :

كنت من دعائه . . وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . . دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم ، وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون . .

ولا أبرح أدعو إلى عقيدتى فى الدين . . وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة . وقد قارب . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال . . فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن نعى به الآن .

* * *

أما تحرير الفكر وفهم الدين على طريقة السلف فقد أصبحت شعارين علميين للمسلمين فى كل مكان . وعلا شأن المنهج السلفى ، وغدا فقه زعيميه ابن تيمية وابن القيم أداة إصلاح للقوانين فى الزواج والطلاق اللذين نادى محمد عبده بإصلاح قوانينهما فأصلحت كما طلب . وبلغت الشريعة من نفوس الأمة مبلغ النص عليها فى أول أبواب الدستور سنة ١٩٧١ . وأما اللغة العربية فأُمسّت لغة رسمية للأمم المتحدة تدور حول الأرض فى المؤتمرات العالمية .

وبلغ الدين والشريعة واللغة مبالغها بالنص عليها في دساتير الأمة العربية كافة .
أما الغراس الذي ينبغى أن نعني به الآن وهو أمر الحكومة والمحكوم فقد عهد فيه هو ، والقدر من بعده ، إلى تلاميذه ، فرادى ومجتمعين ، مختلفين ومؤتلفين ، فصنعوا لمصر وللعالم العربى صنيعهم الخالد وجعله (سعد زغلول) شعاره الرسمى ونفذه بعزم وتصميم (الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة) .

وفرضت مدرسة الإمام وجودها على أجهزة الحكم . (سعد - فتحى - رشدى - ثروت - عدلى - حشمت - محمد محمود) وعلى المجلسين التشريعيين (حسن عاصم حسن عبد الرازق ثم سعد وعدلى وعلى شعراوى) وعلى الصحافة (الجريدة ومديرها لطفى السيد وتلاميذه هيكمل وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى ومحمود عزمى) وفى الأدب (حافظ إبراهيم ومصطفى المنفلوطى وعبد الرحمن البرقوقي والبشرى ومصطفى صادق الرافعى) وفى الجامعة (لطفى السيد وعبد الوهاب النجار ومحمد الخضرى) وفى الأحزاب (محمود سليمان رئيس حزب الأمة ثم محمد فريد رئيس الحزب الوطنى ثم سعد زغلول ثم عدلى يكن ومحمد محمود) وفى الاقتصاد (طلعت حرب) وفى الإصلاح الاجتماعى (قاسم امين ومدرسته) أما الازهر فقيه محمد شاكر ومحمد مصطفى المراغى ومصطفى عبد الرازق . . وآخرون فى شتى المجالات .

وأقامت المدرسة - بالحفاظ على الدين والوطنية - وحدة متينة العربى من خلال التعدد والتنوع كالصرح الذى تحمله أعمدة متعددة ، وتفتتح نوافذه فى كل وجه . فأحدثت ثورة سنة ١٩١٩ . وظفرت لمصر بالاستقلال والدستور والنماء الاقتصادى الذى جعلها تداين إنجلترا فى منتصف هذا القرن بنصف مليار جنيه استرلينى .

التلاميذ

سعد زغلول :

عبد الخالق ثروت - عدلى يكن - حسين رشدى - محمد محمود - محمد مصطفى المراغى - مصطفى

عبد الرازق .

بلعت إنجلترا أوجها بانتصارها فى الحرب العالمية الأولى . ونهضت مصر بدورها العالمى فى الثورة

على المنتصر ، والسبق بالظفر باستقلالها سنة ١٩٢٢ ، على أيدي مدرسة مثل فيها الإمام طور جبل

يستجهم ليهجم . ومثل فيها سعد وصحبه جيل الانفجار السياسى عند إمكان حدوثه .

والشيخ هو القاتل (إذا تم تكوين الجنين ظهر الرأس) وسعد هو القاتل (لا يمكننا أن نصل إلى

الكمال التام . ولكن يجب أن نصل إلى الكمال الممكن . فإذا لم نصل إليه لانكون من المقصرين) .
 وكان طبيعياً - وقد تُتج سعد في مدرسة الشريعة أن تكون العدالة بمجاله الحيوى فيكون أعلى
 صوت في تاريخ بلاده طلب العدالة وقضى بها وكافح من جرّائها ، ليحقق ما للشعب من حق
 «العدالة على الحكومة» كما ورد في وصية الإمام التى نبه عليها فى أقواله الأخيرة . .
 كان سعد كما قال عن نفسه أول إنسان فى المحاماة انتخب قاضياً فى الاستئناف سنة ١٨٩٢ ثم
 مستشاراً سنة ١٨٩٣ ومعه قاسم ويحيى إبراهيم ، فرأس فى دائرته أكبر الفقهاء الأوربيين بمصر (دى
 هلبس^(١) وهالتون^(٢)) ، وذات يوم كان الأستاذ الإمام عضواً اليسار فى دائرته (١٩ أكتوبر سنة
 ١٨٩٧) .

وفى ذلك العام ظفر بشهادة الحقوق من جامعة باريس بدرجة متفوقة !
 وعمل فى القضاء المدنى والجنائى فى عظمة وقدرة عقلية وعلمية ليس لها نظير فى كل عصر
 القضاء .

هو خطب الخطباء غير مدافع وهو رئيس محكمة النقض الجنائى التى خطت للقضاء الطريق .
 ورئيس دائرة الجنايات الكبرى الذى يعقد دائرته فى (الإسكندرية) حيث وقعت الواقعة لتتم العبرة
 فى محل الواقعة ولم تكن أنشئت دوائر الجنايات المتنقلة من القاهرة حتى ذلك الحين - وهو رئيس
 المجلس الذى يتدب نفسه للتحقيق من القاهرة إلى الإسكندرية إلى رشيد لتقضى الدائرة ببطلان
 اعتراف المتهم بالقتل - مع إصراره على اعترافه - وهو صاحب الأقضية المدنية التى ماتزال تلمع فى
 تاريخ قانون كالنجوم ، ومنها (كفالة حق الدفاع - سقوط حصانة الإجراء الحكومى إذا كان
 - بادئاً^(٣) اختصاص المحاكم المختلطة مقيد والأصل اختصاص القضاء الوطنى^(٤) - الشرط
 الجزائى - المسئولية المدنية - المسئولية الجنائية - استرداد الحصبة المبيعة - الشفعة . . إلخ) .

وكان فى دوائر الاستئناف الأخرى الرجال الذين جعلوا القضاء الوطنى عملاقاً وهو وليد : قاسم

(١) صاحب كتابين مشهورين فى القانون المدنى والطنن الجنائى .

(٢) أستاذ سابق بمدرسة الحقوق له مؤلف قيم فى القانون المبنى .

(٣) دفعت الحكومة الدعوى بالأمر العالى الذى يعفيا من المسئولية عن أى ضرر بسبب أعمال مصلحة الرى . وقال سعد فى

الحكم

(لا يمكن أن يكون المراد بهذه الأعمال الإجراءات الاستبدادية المخالفة للعدل والقانون والمضرة بحقوق الأفراد وليست فيها مصلحة
 عامة للناس لأن ذلك لا ينطبق بوجه من الوجوه على مبدأ الحكومات العادلة ولا يصح أن تتضمنه شرائعها) .

(٤) اجتمع فى هذه القضية سعد رئيساً والمهلباوى وعبد العزيز فهمى محاميان وأخذ سعد بدفاع المهلباوى وعبد العزيز فهمى ثانى

النقابة وأول رئيس لمحكمة النقض المدنية وثالث الثلاثة فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ .

أمين - حسن عاصم - علي فخري - أحمد عفيفي - محمد مجدي - حشمت - ثروت (النائب العمومي) - رشدي - يحيى إبراهيم - محمد سعيد - يوسف شوقي - ورئيس المحكمة فتحي زغلول^(١) ويتجلى منطق التاريخ في إجلاله بين زملائه إذ ترفعه كفاياته إلى الزعامة ، فيرأس الوزارة بين وزارتين رأس أولاهما زميله يحيى إبراهيم الذي اشتهر في التاريخ بأنه سقط في الانتخابات التي أجراها فلم ينتخب نائباً ، في حين ظفر سعد بما يشبه الإجماع في دوائر مصر جميعاً . كما رأس الثانية عضو اليسار في دائرته - أحمد زيور - الذي اشتهر في التاريخ بقبول الإنذار البريطاني والتخلي عن السودان إذ رفضها سعد .

* * *

عين سعد في العام التالي لوفاته أستاذه^(٢) وزيراً للمعارف سنة ١٩٠٦ مقارنة من الإنجليز للرأي العام بعد مذبحة دنشواي ثم وزيراً للحقانية ، فأنشأ نقابة المحامين وكان الهلباوي أول النقباء . واستقال سعد احتجاجاً على التحقيق مع الزعيم محمد فريد سنة ١٩١٢ .

وفي العام التالي سنة ١٩١٣ انتخبته الأمة نائباً عن دائرتين في الجمعية التشريعية وانتخبته الجمعية للوكالة لأن تعيين الرئيس كان حقاً للحكومة ، كما كان للحكومة حق تعيين وكيل ثان ، فاختارت عدلي يكن (وكيل الجمعية الخيرية الذي سيصير رئيساً لها حتى وفاته) .

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها قام أعضاء الجمعية الخيرية بأعظم الأدوار في ثورة سنة ١٩١٩ وفي حكم الأمة فيما بعدها .

ففي محاضرة للمستشار الإنجليزي برويت أعلن سعد اعتراض الشعب على القوانين الإنجليزية المراد فرضها على القضاء - والحرب العالمية الأولى دائرة الرحي - ثم قدح شرارة الثورة ومعه على شعراوي وعبد العزيز فهمي يوم ذهبوا في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ إلى القائد الإنجليزي المنتصر ، يطلبون استقلال مصر وجلاء الجيش البريطاني وتآلف منهم وصحبهم الوفد المصري للمطالبة بالاستقلال بزعامة سعد . وفي الوقت ذاته طلب رشدي - وكان على رأس الحكومة - أن يسافر ومعه عدلي للمفاوضة على استقلال مصر في لندن ، وأن يسافر الوفد برئاسة سعد لعرض قضيتها على مؤتمر الصلح في فرساي

(١) يقول رشيد رضا عن سعد وفتحي وصلتهما بالإمام (كانا يرجعان إليه في تنازعهما ويكونان معه كالولد أمام والده والتلميذ بين يدي أستاذه) .

(٢) وضع سعد تلاميذ الإمام تحت جناحه : محمد يوسف - وقد اختاره عضواً في الوفد المصري - وعثمان يوسف والمنفلوطي وحافظ والكاظمي ومصطفى صادق الرافعي وعبد الرحمن البرقوقي ، وعين المنفلوطي بالجمعية التشريعية وبمجلس النواب وكان حافظ يسمى نفسه شاعره مثلاً كان شاعر الإمام .

بباريس . ورفض الإنجليز فاستقالت الوزارة في ١٦/٣/١٩١٩ . فقبض الإنجليز بعد أيام على سعد ومحمد محمود وحمد الباسل وإسماعيل صدق ونفوههم إلى مالطة . فاندلع لهيب ثورة سنة ١٩١٩ . فرجع الإنجليز يراوضون رشدي^(١) ، فألف الوزارة وفيها عدلى وثروت كما أذنوا لسعد بالسفر إلى فرنسا فسافر والوفد . وقدمت لجنة ملنر مشروعاتها ورفضه سعد ، وعاد لتستقبله الأمة استقبال الفاتحين في إبريل سنة ١٩٢١ ، ثم ينفيه الإنجليز مرة ثانية إلى جزيرة سيشل فجبل طارق .

وفي منفاه رفض ولاية الملك حينما عرضه عليه دسيس من إنجلترا ، وكان يتحدث في أحاديثه الخاصة عن إعلان الجمهورية .

وفي هذه الأثناء استقال رشدي وألف عدلى الوزارة ففاوض ومعه رشدي وقطع المفاوضات . فطلب الإنجليز إلى ثروت تأليف الوزارة فاستغل براءة مقطوعة النظر نبي سعد واستقالة عدلى ، وشرط لتأليف وزارة أن تعلن إنجلترا من جانبها استقلال مصر - مع تحفظات تجرى عليها المفاوضات فصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بإعلان استقلال مصر .

وأعد ثروت الدستور لأول مرة في هذا القرن وتآمر الملك على حياته فاستقال .

* * *

أُجريت الانتخابات بعد صدور الدستور فانتخب حزب سعد بما يشبه الإجماع فرأس الوزارة في ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ ، فسافر إلى لندن للمفاوضة وقطعها ورجع يلزم الملك احترام الدستور ، والتزم قاعدة (الملك يسود ولا يحكم) وأن الحكومة تحت رقابة البرلمان هي التي تحكم البلاد ، وتعين الموظفين والسفراء وأعضاء مجلس الشيوخ المعينين . وتخرج موقف الملك . فاحتكما إلى النائب العمومي للمحاكم المختلطة فان دان بوش وكان بلجيكيًا ومن الدستور المصري ماله أصل بلجيكي .

وربما كان في فقرة مما جاء في كتابه : (عشرين عاماً في مصر) مثالاً لجهد الزعيم :

(كم أعجبت يومئذ (فبراير ١٩٢٤) بقوة الذاكرة ومثانة الحجة وبلاغة البيان التي يمتاز بها هذا الشيخ السبعيني العمر على الرغم من آلام المرض والنفي ، بل كم دهشت لإرادته التي لا تقاوم . . . كانت الجموع الحاشدة تهتف آنة بعد أخرى وتطلب سعداً فخرج مرة بعد أخرى وشكر المتظاهرين وأخيراً . . . ختم حديثه معي قائلاً : إذن إلى الغد الساعة العاشرة في سراي عابدين . وعندما دخلت صباح اليوم التالي إلى مكتب الملك كان يداعب مسطرة صغيرة لقطع الورق . وكل حركاته تدل على التأثر . أما زغلول باشا فكان جالساً أمامه ممتلكاً حواسه ويتحدث في هدوء وحكمة . . . فأدركت في الحال خطورة الأمر . . . ولحمت من خلال العبارات الرقيقة أن تنافراً يوشك أن ينقلب إلى كارثة إذا لم

(١) رأس الوزارة ٤ مرات ورأس لجنة الدستور . وكان وكيلها أحمد حشمت .

يعالج بدون إبطاء . وسمعت زغلول باشا في أثناء المناقشة التي كان يترايد نشاطها يقول : (إذن أستشير الشعب) نظرت من الشباك الزجاجي العريض إلى الفضاء الواسع بميدان عابدين . (حيث الأمة محتشدة) . ثم قلت في نفسي : كلمة واحدة من هذا الرجل السياسي الذي يملك اليوم مصر كلها روحاً وجسداً - كلمة واحدة تكفي لتحويل تلك الحياة الهادئة إلى منظر رهيب من مناظر غضب الشعب .

وأبدى فان دن يوش رأيه مؤيداً لسعد زغلول - وذكر أنها إذ انصرفا معاً من قصر عابدين قال له سعد : (لقد أنقذت مصر من أزمة شديدة وشديدة جداً) ^(١) .

وكان القصر الملكي يدير المؤامرات ^(٢) للخلاص من سعد كما دبرها ضد ثروت في الأزهر .

* * *

وأخيراً حل عقدة الملك وسعد قتل سردار الجيش (الجنرال لى ستاك) في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ بمؤامرة أخرى ، وإنذار إنجلترا مصر باحتلال مرافقها وإعلانها فصل السودان عن مصر . فاستقال سعد رافضاً الإنذار البريطاني ، واستبد الملك بالحكم وأجريت انتخابات كانت بداية الانتخابات المزورة . ومع ذلك ظفر سعد بالأغلبية فعطل الملك انعقاد المجلس الجديد نحو عام ، فانعقد المجلس من تلقاء نفسه في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ .

وفي يناير سنة ١٩٢٦ عاد إلى الائتلاف مع سعد ، زملاؤه عدلى وثروت ومحمد محمود . وأجريت انتخابات فاز فيها سعد وفاز آخرون في دوائر تركها لهم - واجتمع مجلس النواب برياسته فقوض عدلى ^(٣) في رئاسة الوزارة ثم استقال عدلى سنة ١٩٢٧ فقوض سعد ثروت ^(٤) وفي وزارته مات سعد ^(٥) سنة ١٩٢٧ . فاستقال ثروت فولى الوزارة مصطفى النحاس (وزارته الأولى) وعادت

(١) وأين موقف الخديو مع محمد عبده في مارس سنة ١٩٠٥ من موقف عمه مع تلميذ محمد عبده في فبراير سنة ١٩٢٤ وصلق أمير المؤمنين على : (يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم) .

(٢) مات المنفلوطى سنة ١٩٢٤ في يوم شرع فيه المجهولون في قتل سعد ، وكان كيوم الحشر عبر عنه شوق في مرثيته له :

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك في عصف الرياح الناعى
من مات في فرع القيامة لم يجد قمعاً تشيع أو حفاوة ساعى

(٣) كان عدلى باشا بتراهته وحكمته ومكانة أسرته وإصهارها للعائلة المالكة من قديم هو الشخصية المقابلة لسعد باشا في نظر السلطة وهو ابن إبراهيم يكنى باشا وعماه خليل خليل باشا يكن وكيل الداخلية في وزارة شريف باشا سنة ١٨٨١ وداود باشا يكن وزير الحربية . ولى عدلى الرئاسة ثلاث مرات سنة ١٩٢١ ليفاوض الإنجليز سنة ١٩٢٦ بناء على طلب سعد في ائتلاف سنة ١٩٢٦ ثم سنة ١٩٣٠ بناء على طلب الأمة لتجرى انتخابات نزيهة لمجلس الشيوخ .

(٤) عاد من بعثات الحقوق ليتدرج في النيابة والقضاء إلى وظيفة النائب العام ثم تولى وزارة العدل ثم رئاسة الوزارة سنة ١٩٢٢ لما استقال عدلى باشا ثم وليها بناء على الاتفاق مع سعد بعد أن استقال عدلى سنة ١٩٢٧ .

(٥) لم يكن شوق طوال حياته مع محمد عبده ولا مع سعد أو الوفد ولم يلحقه الملك قواد نجاشيته ، فبقى حراً ولم يتخلف عن =

الأحزاب إلى الاختلاف . فولى الرياسة محمد محمود^(٤) (الوزارة الأولى) وانفتح طريق طويل تفاقم فيه الخلاف الحزبي والفساد الملكي حتى قامت الثورة سنة ١٩٥٢ .
أقامت مصر التماثيل لسعد في القاهرة والإسكندرية وحواضر الأقاليم وسمت الميادين باسمه وجعلت بيته المسمى بيت الأمة وضريحه في جواره أثرين رسميين .
وظاهر مما سردناه أن زملاء سعد في الجمعية الخيرية كانوا شركاء جهاد موفق تحقق فيه ماسماه الإمام من ربع قرن (الغراس الذي ينبغى أن نعنى به الآن) .

الشيخ محمد مصطفى المراغى

قال الشيخ رشيد رضا في تأريخه للإمام (كان أخلص إخوانه ومريديه يرثون لما يكابده في سبيل إصلاح الأزهر ويأسفون على إضاعة وقته الثمين فيما يعتقدون أنه عبث لا يفيد ، فيجمعون على لومه وتثييطه وإقامة الحجج على استحالة إصلاح هذا المعهد حتى يقتنع ، ويحسبون أنه ترك ، فإذا هم يرونه في اليوم التالى قد عاد إلى عمله أنشط ما كان وأشد همًا وإهتمامًا فقال بعضهم لبعض في غيبته إننا لنعجب أشد العجب من الأستاذ في علمه وفهمه وسمو عقله كيف يقتنع بأن عمله هذا تعب غير مجد ثم يعود إليه ؟ فقال لهم أعلمهم بحاله وهو سعد زغلول إن الأمر ليس باختياره ، وإنما هو شعور وجداني بأنه مسخر لهذا العمل أو ملهم به من الله تعالى فهو لا يستطيع تركه .
أخبرني الأستاذ نفسه هذا الخبر . ثم ذكره لى سعد باشا نفسه إذ طالبتة يوماً بإصلاح الأزهر في عهد رياسته للحكومة مع زعامته للأمة . قال لى : إذا كان الشيخ قد عجز عن إصلاح الأزهر على ما آتاه الله مما لا ندرك شأوه فيه علماً وهمة فماذا أستطيع أنا أن أفعل . قلت : إنه كان معارضاً من الأمير ومن الشيوخ . وأنت لا يعارضك أحد . قال : إن العلة في نفس المكان . هو غير قابل للإصلاح . فلكرت له مارواه لى الأستاذ من لوم جماعتهم له ومن جوابه هو عنه . قال هذا صحيح إن عمله كان وجداناً دينياً لا اختيار له فيه) .

= تأييد سعد ، قال يصف سعداً وهو يطلب الاستقلال من الإنجليز سنة ١٩١٨ بعد انتصارهم في الحرب العالمية الأولى :

أعلمتم قبل موسى من يد قلقت في وجه فرعون عصاها
وطئت ناديمه بصارخة شاه وجه الظلم ياقوم وشاها

(١) محمد محمود باشا ابن محمود سليمان باشا وكان محمد باشا في مطالع حياته عضواً بالجمعية الخيرية وأبوه عضو قديم - رأس

محمد باشا الوزارة سنة ١٩٢٨ وأقلى بال الملك فؤاد ، ورأسها ثلاث مرات سنة ١٩٣٧ - ١٩٣٨ .

والحق أن مشاغل سعد تركزت في وضع مصر كأمة ودولة بين دول العالم وجلاء الإنجليز . وأن ولايته الفعلية للحكم لم تزد عن شهور تسعة من ٢٨ / ٢ / ١٩٢٤ إلى ٢٣ / ١١ / ١٩٢٤ ، وأمراض الأزهر بحاجة إلى المنتسبين - وأصابع القصر لا تكف عن العبث بالأزهر .

من أجل ذلك كان من منطق الأشياء ، بعد إزمات الإمام ، أن يصلح الأزهر نفسه . وأن يحمل تلاميذ الإمام فيه تبعاتهم في إصلاحه . فجرى الشيخ محمد شاكر شوطاً في أعقاب موت الإمام ثم أسكت إعلان الحماية على مصر صوت الإصلاح حتى بعثه الشيخ المراغي من مرقده .

تعلم المراغي في الأزهر على الشيخ أبي خطوة . وحضر دروس التفسير للإمام . ومن إعجاب الإمام به في امتحان العالمية رشحه للقضاء في السودان . فوليه في نوفمبر من نفس العام ١٩٠٤ . وفد الشيخ المراغي إلى مشيخة الأزهر سنة ١٩٢٨ وفود الأستاذ الإمام من قبة القضاء . فهو قد رجع من وظيفة قاضي قضاة السودان ١٩١٩ لوظيفة القضاء الشرعي ثم رئاسة المحكمة الشرعية العليا ف قضى في أشهر قضايا العصر باقتدار .

ولما ولي المشيخة وجه اهتمامه من أول يوم إلى عمله في رئاسة لجنة قوانين الأحوال الشخصية التي انتهت أعمالها بصدر القانون ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ونشر بحثاً له مع مذكرته الإيضاحية ثم اتجه إلى إعداد قانون للأزهر والتعليم فيه . واتفق مع الملك فؤاد على أن يعد القانون ليبدأ تطبيقه في الموسم الدراسي ١٩٢٩ / ١٩٣٠ - فبقى نحو عام ، حتى إذا أيقن من مقاومة الملك فؤاد للإصلاح استقال^(١) . وكان طبعياً أن يلي مكانه الشيخ محمد الأحمدى الظواهري - وهو صاحب الخطاب المفتوح الى الخديو سنة ١٩٠٥ لتبدأ الحملة التي انتهت باستقالة محمد عبده - ليكون اللسان الفصيح لصاحب القصر سنة ١٩٣٠ ، وذراعه الطويلة في إيذاء أنصار الشيخ المراغي في إصلاحه . ففصل من الأزهر آخر تلاميذ الإمام الشيخ الزنكلوني ومدرسته وهم اثنان وسبعون من العلماء الأحرار طلاب الإصلاح

(١) أدل الشيخ المراغي بحديث للإذاعة في الذكرى السادسة والثلاثين لوفاة الإمام محمد عبده - وكان أيامئذ يفسر بعض السور - فقال بين ما قال (ليس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ محمد عبده أو يقاربه في تطبيق آي القرآن على سنن الاجتماع وفي تصور هدى القرآن وفهم أغراض الدين العامة) . . وقال (ودعته ليلة سفرى للسودان . . فسألني هل معك رفقاء السفر ؟ فقلت نعم بعض يكتب فقال أو معك كتاب الإنجاء ؟ فقلت نعم . قال الحمد لله . . ثم قال أنصحك أن تكون للناس مرشداً أكثر من أن تكون قاضياً . وإذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه إلى الحكم فإن الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح . . .

وداعبني مرة إثر خروجي من امتحان شهادة العالمية فقال هل تعرف تعريف العلم فقلت نعم . . فقال اسمع مني تعريفاً مفيداً : العلم هو ما ينفعك وينفع الناس . ثم سأل : هل انتفع الناس بعلمك ؟ فقلت لا . قال : إذن أنت لست بعالم فانفع بعلمك تكن عالماً . . .

(يتصدرهم عبد الجليل عيسى - دراز - شلتوت - العدوى - حامد محيسن - فكري يس) .
وأشبهت الليلة البارحة . فأدلى بحديث للصحف قال فيه إن العلماء الذين فصلوا كانوا كباراً في
السن ضعافاً في العلم .

ونافع الهلباوى عن الأزهر أمام القضاء . فاختار أولى قضاياها قضية أصغر عالم بين علماء الأزهر
الأحياء تتلاحق شهادات الشيوخ جميعاً على أنه أعلم نظرائه (محمود شلتوت) ^(١) .

ثم أرجع المفصولين إلى وظائفهم بعد سنين بكفاح شعبي كف بطش الملك ، فدخل الهلباوى
بموكله على الشيخ الأحمدي في مكتبه إيداناً بعصر جديد ، عاد فيه الشيخ المراغي سنة ١٩٣٥ ^(٢)
ليبقى سنوات عشرة أصلح فيها قوانين الأزهر وطرائق التدريس ما استطاع ، وأنشأ كليات اللغة
العربية والأصول والشريعة ، وأوفد البعث الأزهرية إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، وأحيا تقليد الأستاذ
الإمام في التدريس بالرواق العباسي ، وألقى الدروس على الملك فاروق - منذ تولى تعليمه وهو
ولى عهد .

وتلاحقت دروسه في المساجد الجامعة من جامع عمرو إلى الأزهر إلى مساجد القاهرة
والاسكندرية ثم جمعت في مؤلفات ^(٣) ثم وافته المنية سنة ١٩٤٥ فخلف من بعده مصطفى
عبد الرازق في المشيخة وفي رئاسة الجمعية ومن بعد مصطفى عبد الرازق ولى لطفى السيد رئاسة
الجمعية . حتى وفاته سنة ١٩٦٢ فكان آخر تلاميذ الإمام في رياستها .

(١) أعد الدفاع في هذه الدعوى المؤلف بمساعدة الشيخ عبد الجليل عيسى وهما الآن زميلان عضوان في مجمع البحوث بالأزهر .
(٢) احتفلت الأمة احتفالاً عاماً بعودة المراغي إلى الأزهر وألقى كلمة جامعة في الاحتفال أطال فيها الحديث عن الإمام . من
ذلك قوله (علينا ألا ننسى ذلك الرجل الذي نشر الحياة العلمية والنشاط الفكري ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم وعبد
الطريق لتذوق سر العربية وجلالها وصاح بالناس يذكروهم أن العظمة والمجد لا ينيان إلا على العلم والتقوى . . . ذلك هو الأستاذ الإمام
محمد عبده . . . ومن الوفاء له بعد مضي هذه السنين . . . أن نجعل لذكراه المكان الأول في هذا الحفل) والشيخ محمود شلتوت يقول
(إن الشيخ المراغي ماخرج بروحه وعلمه وعقله وتفكيره عن أن يكون تلميذ الأستاذ الإمام محمد عبده) .
(٣) ألف المراغي كتاب الأولياء والمحجوزين ، وبحثاً في ترجمة القرآن ورسالة في موضوع الزمالة الإنسانية قدمه لمؤتمر الأدباء .
وبحثاً في أسانيد قانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ وبحوثاً لغوية ودروساً فيها تفسير لسور لقمان والحجرات والحديد والعصر .

الشيخ مصطفى عبد الرازق

مثل مصطفى عبد الرازق فكر الإمام في التجديد وأسلوبه وفلسفته فبقى «ولده الأديب» وبلغ شأوه حتى صار أجمع أهل عصره لخلال الرحمة وأنداهم يداً وأكثر الشيوخ انفتاحاً على الفكر العالمى وخدمةً للفلسفة الإسلامية وخلد سيرة أستاذه بمحاضرات رفيعة الأسلوب ألقاها على مدار أشهر في الجامعة .

ولد سنة ١٨٨٥ لحسن باشا عبد الرازق الذى تعلم في الأزهر ورجع إلى القرية ليدبر أملاك عائلته . وكان أبوه وجداه لأبيه قضاة ^(١) .

ولما بلغ مصطفى حدود اليفاع كان كما كتب عن نفسه (طالباً من صفار الطلبة أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر ، وكان أساتذتنا - عفا الله عنهم - لا يفتأون يذمون لنا الشيخ . ويمثلونه خطراً على الدين وأهله داهما - فتأثر بذلك عقولنا الطفلة وكنت أفر بدينى من أن ألتى الأستاذ أو أسمع لدروسه مع أنه صديق لوالدى . حضرت درسه مرة لأشهد كيف تشبه وجود الملحدين وتشبه معها عقولهم وقلوبهم . فلما رأيت الرجل فى الرواق العباسى وسمعت يفسر كتاب الله قلت منذ ذلك اليوم إن كان هذا إلحاداً فأنا أول الملحدين .

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهدوا الثقلان أنى رافضى)

ولما تخرج فى الأزهر سنة ١٩٠٨ بعثته أسرته لمزيد من الدراسة فى فرنسا . فأعد رسالة عن الإمام الشافعى وراسل صحيفة «الجريدة» من فرنسا وفجأته الحرب العالمية الأولى هنالك ، ثم رجع فتولى رئاسة القسم العربى بالجامعة المصرية ، وعمل فى إدارة الأزهر ، وحقق الإنجليز معه إذ مر «بيت

(١) كان حسن باشا عبد الرازق عضواً بمجلس الشورى عن محافظة المنيا مات فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٧ وهو والد الباشوات حسن (الصغير) ، ومحمود ، ومصطفى ، وعلى وإسماعيل وكانت دارهم خلف قصر عابدين ، متدى للفكر الإسلامى والوطنى ، وكانوا فى غالب أمرهم مناقضين لفكر صاحب القصر - ومنها خرج كتاب الشيخ على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٩٢٥ - وهو قاضى شرعى - فهدم آمال الملك فؤاد فى خلافة المسلمين بعد أن ألغيت فى تركيا سنة ١٩٢٣ . فقدم الشيخ على متنبهاً بالخروج على القانون فترعت هيئة كبار العلماء منه شهادة العالمية الأزهرية وزالت صفة لولاية القضاء الشرعى . أتاح الهلباوى له بعد أعوام من فصله أن يتراجع - كمحام شرعى - معه فى قضية معارضة من الأمير محمد على - الوصى على العرش فيما بعد - ضد الملك فؤاد فى حكم استصدره ليحل محل الأمير فى نظارة وقف وقفته أمه . وكان الملك قد عزل من الأزهر عشرات العلماء أكبرهم الزنكلونى وأصغرهم تلميذه محمود شلتوت ، وعمل شلتوت محامياً مع على عبد الرازق والهلباوى فى القضية وانتصروا على الملك . وكان المؤلف رابعهم فى هذه القضية . وقد ولى على باشا وزارة الأوقاف ممثلاً لحزب الأحرار الدستوريين بعد أخيه مصطفى .

الأمة « وترك بطاقة لزوج الزعيم سعد زغلول عند نفيه للمرة الثانية ، مع أن عائلة عبد الرازق كانت من أعمدة حزب الأحرار الدستوريين تحاصم سعدا - وراجعته الوزير لينكر الذهاب ، فأقربه مرة ثانية ففصله . وعلم رئيس الوزراء - ثروت - فاحترم وفاء التلميذ الصغير للتلاميذ الكبار على الإمام وأعاده ولما صدرت صحيفة السياسة ثم السياسة الأسبوعية صارتا منبراً لآرائه (١) .

ترجم إلى الفرنسية مع المسيو ميشيل برنار سنة ١٩٢٥ رسالة التوحيد (للأستاذ الإمام) وأثره ظاهر في تقديم برنار للترجمة كما هو ظاهر في كتاب المستشرق تشارلز أدامز عن الإسلام والتجديد في مصر . ولما أنشئت جامعة القاهرة تولى تدريس الفلسفة الإسلامية فبلور فكر الإمام في «استقلال الفلسفة الإسلامية بمصدرها ، وهما أصول الفقه التي وضعها الإمام الشافعي في أواخر القرن الثاني ، وعلم الكلام » ووجه تلاميذه ليسبروا أغوارها ، ومنهم الدكتوران على سامي النشار - وعثمان أمين ، فصار الأول شيخ ماسموه (مدرسة الإسكندرية الحديثة) والثاني أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة . ولى مصطفى باشا وزارة الأوقاف مرات باعتباره عضواً في حزب الأحرار الدستوريين ، ولما مات شيخ الأزهر المراغي لفت موته الأنظار إلى تعيين التلميذ الآخر لمحمد عبده ، وأثر مصطفى عبد الرازق مشيخة الأزهر على الوزارة والباشوية ، فترل عنها .

* * *

كان يمتاز بالانسجام الكامل في مخبره ومظهره وخلقه وخلقه ويسره وورعه يقول له طه حسين إذ كان يدفع نفقات الدراسة الجامعية لتلاميذ يعجزون عن دفعها «توشك ألا تجد شيئاً من مرتبك آخر الشهر» ويقول لطه : (أتريد أن نتركهم يصدون عن العلم ونحن نرى) ! ويقول طه حسين عن أسلوبه (أنت لاتجد معنى نافرأ أو فجأ لم يتم نصحه قبل أن يعرف عنه ، وأنت لاتجد لفظاً نابياً عن موضعه ، أو كلمة قلقة في مكانها ، وإنما كان كلامه يجري هادئاً مطمئناً كما يجري الجدول النقي) .

وطه حسين وهيكمل وعمود عزمي ومنصور فهمي والزنكلوني والمراغي وشلتوت رجال شاركهم معارك حياتهم دار العلم التي اشتهرت في مصر في النصف الأول من القرن . دار آل عبد الرازق .

* * *

كانت مشيخة مصطفى عبد الرازق للأزهر سنة ١٩٤٥ (١٣٦٤) تالية لمشيخة المراغي الثانية التي طالبت عشر سنوات حاول فيها الشيخ المراغي الإصلاح ما استطاع ، فسار على دربه نحو عامين حتى

(١) له في الأخيرة نقد لإدع للشيخ الطواهي بتاريخ ١٠/٦/١٩٢٦ ونقد أشد للشيخ محمد نجيب بتاريخ ٣٠/٣/١٩٢٦ تعقياً على نقده كتاب (الإسلام وأصول الحكم) وفي النقيدين يتابع منهجه في الاعتزاز برجال العلم والارتفاع بهم عن خدمة أصحاب السلطان .

مات سنة ١٩٤٧ كمثله في ميدان إصلاح الأزهر .

وفي مشيخة المرحوم الشيخ محمود شلتوت تلميذهم الفكري وتلميذ الزنكلوني الفعلي صدر قانون سنة ١٩٦١ فأنشأ في الأزهر كليات للهندسة والطب والزراعة والتجارة . وصير كلية الشريعة كلية للشريعة والقانون .

وبهذا التجديد للهيكمل تغير وجه الأزهر لكنه بقى على عهده الممثل العظيم لروح مصر وفي كل منها أثر من الآخر .

وبقى محمد عبده في التاريخ الحديث كالجبل العالى الذى يملأ الأفق ويدعو الناظرين للصعود . أو كرافد للنيل ، جديد ، يسقى شاريه من ينابيع الحنيفية السمحة ، فيوضاً صافية من الحرية لا التعصب ، والاجتهاد لا التقليد ، والاتباع السلفى لا الابتداع غير المسئول .

* * *

روى الشيخ رشيد رضا عن الشيخ المراغى قوله (أعتقد أنه إذا جاوزنا عصر السلف لا نجد رجلاً رزق فيها في هداية القرآن ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرائية مثل الإمام محمد عبده . لقد وهبه الله شروط الإمامة الدينية جميعها) .

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن النبي ﷺ : « إن الله عز وجل يهب هذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلاً يقيم لها أمر دينها » وقال (فكان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز وأرجو أن يكون على رأس المائة الثانية الشافعى رضى الله عنه) .
ونحن نرجو أن يكون على رأس المائة الثالثة عشرة محمد عبده .

فہار سر الکتاب

فهرس الأعلام

(أ)

- إبراهيم حسن ١١٤
 إبراهيم عثمان يوسف ١٤٩
 إبراهيم عبد القادر المازني ١٤٨
 إبراهيم اللقاني ٣٤
 إبراهيم الهلباوي ١٥ - ١٦ - ٤٩ - ١٣٧
 إبراهيم المازني ١٢٨
 إبراهيم البازجي ١٢٨
 ابن أبي الحديد ٤٧
 ابن تيمية ١١٠ - ١٥٨
 ابن جنى ٤٦
 ابن خلدون ١١٦
 ابن عباس ٩٥
 ابن عرى ٤٨
 ابن عطية ٩٨
 ابن كثير ٩٨
 ابن نباتة ٤٦
 أبو شراب ٤٤
 أبو جعفر المنصور ١٤١
 أبو الحسن الشاذلي ٩
 أبو حنيفة ٩٩ - ١١٠
 أبو علي الفارسي ٤٦
 أبو خطوة ١٤٨
 أبو السعود ٩٨
 أبو نواس ٥٠
 أحمد أمين ١٣٥
 أحمد إبراهيم ١٢٧

أحمد بن حبل ١١٠

أحمد تيمور ٩٧

أحمد حلمي ١٣٧

أحمد السكندري ١٣٥

أحمد شفيق ٧٦

أحمد قحة ١٣٨

أحمد ضيف ١٣٥

أحمد ماهر ٩٧

أديب إسحق ٣٤

إسماعيل (الخدوي) ٢٤

إسماعيل صبري ٩٧ - ١٢٧

أم المصريين ٥٦

(ب)

- البارودي ٢٧ - ٣٢
 البخاري ١٦١
 بنيت (الشيخ) ٩٥
 برنار ميشيل ١٧٢
 بسمارك ١٣٢
 بشار ٩٢
 بلنت ٣٣ - ٤١ - ٨٥ - ١٣٥
 البيضاوي ٩٨ - ١٠٣
 بيكون ١٥٩
 بيتي ٤٧ - ١٠٣

(ت)

ترمانيني ٩٦

توفيق (الخديوى) ٢٤

تولستوى ١٢٩

تيلر (القس) ١٢٨

حسين المرصنى ٢٧

حشمت ١٦٥

حفنى ناصف ٩٧ - ١٤٥

حمد الباسل ١٦٦

حمودة عبده ١٤٢

(ث)

ثروت (عبد الخالق ثروت) ١٤٤ - ١٦٥ - ١٦٧

(خ)

خديجة برهان ٦١

خليل حمادة ١٣٨

خليل شريف ٣٩

خليل مطران ١٣٨ -

خليل يكن ١٦٧

(ج)

جرجانى ٧٧

جرفيل ٥٨

جعفر الصادق ٥ - ٩٩

الجلال الدوانى ١٧

الجلال السيوطى ٩٨ - ١٠٣

الجلال المحلى ٩٨

جمال الدين ١١ - ١٥

جوردن ٤١

جورست ٦١

جيزو ٢٢

(د)

داود يكن ٣٣ - ١٦٧

درويش خضر (الشيخ) ٩

درويش سيد أحمد ٧٢

ديماس (إسكندر) ٥٧

(ح)

حافظ إبراهيم ١٣٧ - ١٤٥

الحسن البصرى ١٠٣

حسن عاصم ٦٣ - ١٢٣

حسن العطار ١٤

حسن الطويل ١٥ - ٢٢

حسن عبد الرازق (الكبير) ٧٣ - ١٢٤

حسن عبد الرازق (الصغير) ٧٣ - ١٤٥

حسن المرصنى ٧٧

حسونة النواوى ٢٣ - ٧٦ - ١١١

الحسينى (أحمد) ٧٤

حسين كامل (السلطان) ٦١

(ر)

الرازى (الفخر) ٤٧

راشد ١٣٩

رشدى - (حسين) ١٣٧ - ١٦٥

رشيد رضا ٩٧ - ٩٨

رفاعة رافع ١٤

رياض باشا ٢٧

(ز)

زرغوداكي ١٣٧

الزنكلونى ١٥٥

زيد بن على ١٦١

زيد (الأبياني) ٩٧

(ظ)

ظافر الطرابلسي ٩
الظواهري (الأحمدي) ١٣٩ - ١٧٢

(ع)

عباس العقاد ١٤٨
عباس الأول ٣٢
عباس الثاني ٧٥
عبد الحميد الزهراوي ١٣٠
عبد الجبار (القاضي) ٤٧
عبد الرحمن الرافعي ٣٣
عبد الرحمن شكري ١٤٨
عبد الرحمن النواوي ٨٩
عبد السلام المويلحي ٢٤
عبد العزيز فهمي ١٦٤ - ١٦٥
عبد العزيز البشري ٩٧
عبد العزيز جاويش ٩٧ - ١٣٥
عبد القادر المغربي ١٤٧
عبد الكريم سلمان ٧٦ - ٧٧ - ١٤٠
عبد اللطيف يوسف ١٤٩
عبد الله النديم ٣٤
عبد المحسن الكاظمي ٩٧
عبد الملك بن مروان ١١٦
عبد الوهاب التجار ٩٧
عثمان يوسف ١٤٩ - ١٦٥
عثمان أمين ١٧٢
عثمان رفيق ٣٢
عثمان ماهر ٦٧
عدلي يكن ٧٢ - ١٦٥
عراي ٣٢
العضد الايجي ١٧
علي بن أبي طالب ٤٦

(س)

سرجيوس (القمص) ١٥٥
سعد زغلول ١٦ - ١٣٨ - ١٦٣
سعد بن أبي وقاص ٢٢
سعيد بن المسيب ١٦٢
السكندري ١٣٥
سلم الحجازي ٢٤
سلم البشري ٧٦
سليمان البستاني ١٢٨
سلطان باشا ٣٢
سيد كامل ٧٠
سيراقي ٤٦

(ش)

الشاذلي ٩
الشافعي ١١٠
الشربيني ١٣٩ - ١٤١
شريف باشا ٣١
الشريف الرضي ٤٦
شكيب أرسلان ٤٣ - ١٣١
شفيق العظم ١٢٣
شوقي ٢٩ - ١٤٧ - ١٧٢

(ط)

الطبري ٤٦
طلبة باشا ٣٢
طه البشري ٩٧
طه حسين ١٤٧ - ١٧٢

- (ل)
- علي إبراهيم (باشا) ٧١
 علي إبراهيم رامز ١١٤
 علي ذو الفقار ٩٨
 علي فخرى ٦٦
 علي النشار ١٧٢
 علي سرور الزنكلوني ٩٧ - ١٥٥
 علي شعراوى ١٦٥
 علي الجارم ١٣٥
 علي عبد الرازق ٩٧ - ١٧٠
 عز الدين بن عبد السلام ١٤٢
 علي اللبى ١٢٨
 علي رفاعه ٤٤
 علي مبارك ١٥ - ٢٣
 علوى باشا ٩٧
 عlish ٢١
 عمر بن الخطاب ٢٢
 عمر لطفى ٣٦
 عمر سلطان ٣٣
- (م)
- مالك بن أنس ٤٦ - ١١٠
 مجاهد ٧
 محمد أنور السادات ٥٨
 محمد البسيونى ١٥
 محمد راسم ٦٨ - ١٤٣
 محمد الخضرى ١٣٩
 محمد سعيد ٦١
 محمد شاكر ٩٧
 محمد صالح ٩٧
 محمد طلعت حرب ٧١
 محمد بن عبد الوهاب ٥
 محمد عثمان يوسف ١٤٩
 محمد كرد علي ١٢٧
 محمد ماهر ٧٦
 محمد عاطف بركات ١٢٤ :
 محمد الملقى ٩ - ١٠
 محمد مصطفى المراغى ٩٧ - ١٦٨
 محمد محمود ١٦٨
 محمد المهدي ٢١ - ١٣٩
 محمد هرون ٩٧
 محمد يوسف ١٤٩ - ١٦٥
 محمود سليمان ٧٣
 محمود شلتوت ١٧٠
 محمود عزمى ١٧٢
 محيى الدين حماده ٣٩
- (غ)
- الغايانى ١٤٨
 الغورى ٦١
- (ق)
- قاسم أمين ٦٦
 قدرى باشا
- (ك)
- كتشنر ٧٦
 كرومر ٤٢ - ١٣٧

- (هـ) مصطفی کامل ۹۷ - ۱۳۹
مصطفی عبد الرازق ۱۴۱ - ۱۷۱
مصطفی العنانی ۹۷
مصطفی فہمی ۱۳۷
مصطفی لطفی المنقلوطی ۹۷ - ۱۶۵
مفید (الشیخ) ۴۶
ملك حفني ناصف ۷۱
المنشاوی (باشا) ۷۰ - ۷۱ - ۷۴
منصور فہمی ۷۰
- (و) واصل بن عطاء ۱۶۱
الواقدي ۴۵
وفا زغلول ۲۸
- (ن) نابليون ۸۷
نازلی (الأميرة) ۴۹
نعمة الله خوری ۲۲
نوبار ۴۳
نوردو (ماکس) ۱۳۲
- (ی) یحییٰ ابراهیم ۱۶۵
یوسف شوق ۱۶۵
یوسف النابلسی ۷۶

فهرس المراجع

- ١ - فتاوى الشيخ محمد عبده : مخطوطان بدار الافتاء
- ٢ - أرشيف الجمعية الخيرية الإسلامية
- ٣ - تفسير المنار : محمد عبده
- ٤ - رسالة التوحيد : محمد عبده
- ٥ - الإسلام والنصرانية : محمد عبده
- ٦ - شرح نهج البلاغة : محمد عبده
- ٧ - مذكرات الإمام محمد عبده : جمع طاهر الطناحى
- ٨ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : محمد عماره
- ٩ - مجموعة مقالات العروة الوثقى : محمد عبده - جمال الدين
- ١٠ - تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : رشيد رضا
- ١١ - دروس فى القرآن الكريم للإمام محمد عبده : طاهر الطناحى
- ١٢ - الإسلام دين العلم : للإمام محمد عبده (جمع) طاهر الطناحى
- ١٣ - الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والمتكلمين : د. سليمان دنيا
- ١٤ - الأستاذ الإمام محمد عبده : عبد المنعم حمادة
- ١٥ - محمد عبده : الأستاذ أحمد الشايب
- ١٦ - محمد عبده : محاضرات الشيخ مصطفى عبد الرازق
- ١٧ - محمد عبده : عباس محمود العقاد
- ١٨ - الفن الصحفي عند الشيخ محمد عبده : مخطوط ٣٣٧ كلية اللغة العربية جامعة الأزهر .
دكتور أحمد عبد الرحمن عيسى .
- ١٩ - محمد عبده أدبياً وناقداً : مخطوط ٣١٣ كلية اللغة العربية جامعة الأزهر
السيد تقى الدين السيد .
- ٢٠ - رائد الفكر المصرى محمد عبده : عثمان أمين

- ٢١ - الكتاب الذهبي للمحاكم الأهلية
: مقالات إبراهيم الهلباوى بك : ١٨٨٣ - ١٩٣٣
- ٢٢ - زعماء الإصلاح - محمد عبده : أحمد أمين
- ٢٣ - فى الفكر السياسى والمجتمع العربى : الشيخ محمد عبده ، دكتور محمد عبد المعز نصر
- ٢٤ - تاريخ حياة الشيخ محمد عبده : المنار المجلد الثامن
- ٢٥ - المحامون وسيادة القانون : عبد الحليم الجندى
- ٢٦ - جمال الدين الأفغانى : عبد الرحمن الرافعى
- ٢٧ - عصر إسماعيل : عبد الرحمن الرافعى
- ٢٨ - الثورة العربية والاحتلال الإنجليزى : عبد الرحمن الرافعى
- ٢٩ - مصطفى كامل : عبد الرحمن الرافعى
- ٣٠ - فى أعقاب الثورة المصرية : عبد الرحمن الرافعى
- ٣١ - مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ : عبد الرحمن الرافعى
- ٣٢ - شعراء الوطنية : عبد الرحمن الرافعى
- ٣٣ - فى المرأة : عبد العزيز البشرى
- ٣٤ - محمد فريد : عبد الرحمن الرافعى
- ٣٥ - حافظ وشوق : طه حسين
- ٣٦ - الرد على الدهريين : جمال الدين الأفغانى
- ٣٧ - تناسق الدرر فى تناسب السور : جلال الدين السيوطى
- ٣٨ - من آثار مصطفى عبد الرازق : على عبد الرازق
- ٣٩ - سعد زغلول من أقصيته : عبده حسن الزيات
- ٤٠ - تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطانى : تيودورز وذستين (ترجمة على أحمد شكرى)
- ٤١ - تاريخ الأدب العربى : أحمد الإسكندرى : أحمد أمين - على الجارم - عبد العزيز البشرى - أحمد ضيف
- ٤٢ - التأمين وموقف الشريعة الإسلامية فيه : محمد السيد الدسوقي
- ٤٣ - سعد زغلول (سيرة وتحية) : عباس العقاد
- ٤٤ - قاسم أمين : د. ماهر حسن فهمى

- ٤٥ - محمد رشيد رضا أعلام العرب رقم ٢٢ : د. إبراهيم العدوى
- ٤٦ - شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي : د. محسن فياض
- ٤٧ - حقائق الأخبار عن دول البحار : إسماعيل سرهنك
- ٤٨ - شكيب أرسلان : د. أحمد الشرياصي
- ٤٩ - جوانب من الصلات الثقافية بين مصر وإيران : مقال للدكتور محمد السيد جمال الدين
- ٥٠ - الشيخ محمد عبده والثقافة الفارسية
- ٥١ - الشيخ المراغي باقلام الكتاب : أبو الوفا المراغي
- ٥٢ - مذكراتي بعد الهجرة : محمد فريد
- ٥٣ - دور المرأة في حركة التطور العالمي : السيدة هدى شعراوي
- ٥٤ - رجال عرفتهم : عباس العقاد
- ٥٥ - الإسلام والتجديد : تشارلز أدامز (ترجمة عباس محمود)
- ٥٦ - الأعلام : الزركلي

المحتويات

الصفحة	الصفحة
٦٣ حسن عاصم	٣ مقدمة السلسلة
٦٥ إصلاح التعليم	٥
٦٦ على فخري	٧ بزوغ نجم
٦٦ قاسم أمين	٩ الشيخ درويش
٧٠ الحلباوي	١٣ في الأزهر
٧٠ مدرسة الزعماء	١٥ السيد جمال الدين الأفغاني
٧٥ إصلاح الأزهر	١٦ حاشية على الدواني
٧٨ إصلاح القضاء الشرعي	٢١ امتحان العالمية
اقترح لجنة لاستخراج قانون للمعاملات	٢٤ الثورة الأولى والنفي الأول
٨١ من الشريعة	
٨٤ النيابة العمومية والقضاء	
٨٥ في الدستور	
	الباب الثاني :
	٢٧ من قة إلى قة
	٢٧ الوقائع المصرية
	٣١ الثورة الثانية
	٣٦ النفي الثاني
	٣٧ بيروت - ١٨٨٢ - ١٨٨٨
	٣٩ باريس - لندن - العروة الوثقى ..
	٤٣ العودة إلى بيروت
	٤٦ هج البلاغة للإمام علي
	الباب الثالث :
	٤٩ الشيخ الرئيس
	٥٢ في القضاء
	٥٥ تحرير المرأة
	٥٨ الجمعية الخيرية الإسلامية
الباب الرابع	
٨٧ شيخ الإسلام	
٩١ فصل في المفسر	
وحدة الدين أصول خاصة	
١٠١ بالإسلام	
١٠٤ التكافل الاجتماعي	
١٠٦ الأمر بالمعروف	
١٠٧ قوم كانوا مع الله فكان الله معهم	
١٠٨ استقلال الإرادة وحرية الفكر	
١٠٩ فصل في المفتي	
١١١ مع القضاء (أحكام الإعدام) ..	
١١٣ في شئون الأسرة	
١١٥ متفرقات	
١١٥ تحليل الإبداء . التأمين	

الصفحة	الصفحة
	الاستعانة بالكافرين ١١٦
	الذبح ١١٧
	لبس القبعة ١١٧
	الصلاة خلف إمام من مذهب آخر ١١٧
	البدع ١١٧
	الدوسة ١١٨
	تعدد الزوجات ١١٨
	التصوير والنحت ١٢١
	الباب الخامس :
	خيانة الخديوى ١٢٣
	الزعيم فى البرلمان ١٢٣
	فى مصر وخارج مصر ١٢٧
	ابن أبيه ١٣٦
	لكل أجل كتاب ١٤٣
	الباب السادس :
١٤٥ فى التاريخ	
١٥٤ وصية ومبادئ	
١٦٠ الصورة الجميلة	
١٦١ علو فى الحياة والمات	
١٦٣ التلاميذ	
١٦٣ سعد زغلول	
١٦٦ ثروت	
١٦٦ عدلى	
١٦٦ رشدى	
١٦٦ محمد محمود	
١٦٨ الشيخ محمد مصطفى المراغى	
١٧١ الشيخ مصطفى عبد الرازق	
١٧٥ فهارس الكتاب	
١٧٧ فهرس الأعلام	
١٨٣ فهرس المراجع	

للمؤلف

- ١ - القرآن والمنهج العلمى المعاصر
- ٢ - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام
- ٣ - الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول
- ٤ - مالك بن أنس إمام دار الهجرة
- ٥ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنة
- ٦ - الإمام جعفر الصادق
- ٧ - الإمام محمد بن عبد الوهاب
- ٨ - الإمام محمد عبده
- ٩ - الشريعة الإسلامية
- ١٠ - أئمة الفقه الإسلامى
- ١١ - المحامون وسيادة القانون
- ١٢ - توحيد الأمة العربية
- ١٣ - تطوير التشريعات
- ١٤ - مجموعة مذكرات قضائية جزء أول
- ١٥ - مجموعة مذكرات قضائية جزء ثان
- ١٦ - من أجل مصر البطل أحمد عصمت
- طبعة دار المعارف
- طبعة دار المعارف
- طبعة دار المعارف
- طبعة دار المعارف
- طبعة دار المعارف
- طبعة دار المعارف
- طبعة دار المعارف
- طبعة دار المعارف
- طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
- طبعة دار الاتحاد العربيين
- طبعة دار الثقافة
- طبعة وزارة الثقافة
- طبعة إدارة قضايا الحكومة بمصر
- طبعة إدارة قضايا الحكومة بمصر
- طبعة المطبعة التجارية المدنية

أبحاث منشورة

- ١٧ - الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع
- ١٨ - الشريعة الإسلامية كمصدر أساسى للتقنين
- ١٩ - نحو تقنين للمعاملات المدنية للفقه الإسلامى
- ٢٠ - نحو تقنين للمعاملات المدنية من الفقه الإسلامى
- ٢١ - نحو تقنين للعقوبات المدنية من الفقه الإسلامى
- ٢٢ - حول صياغة الدستور الإسلامى
- ٢٣ - المسئولية المدنية فى النظام الاشتراكى
- ٢٤ - تطوير التشريعات فى الجمهورية العربية المتحدة
- ٢٥ - توحيد الأمة العربية بتطوير شرائعها
- ٢٦ - الشبهات التى تثار حول تطبيق الشريعة
- ٢٧ - دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب
- ٢٨ - بطلان التفتيش بغير إذن
- ٢٩ - تصرفات السفهاء قبل الحجر
- ٣٠ - التشريع العربى
- مجلة إدارة قضايا الحكومة ١٩٧١
- مجلة إدارة قضايا الحكومة السنة العاشرة
- المؤتمر الإسلامى بلندن سنة ١٩٧٦
- مقدم لمؤتمر مجمع البحوث بالأزهر ١٩٧٦
- مجلة إدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٧٦
- مجلة إدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٧٩
- مجلة مصر المعاصرة سنة ١٩٦٧
- مجلة مصر المعاصرة سنة ١٩٦٦
- مجلة مصر المعاصرة سنة ١٩٦٦
- مقدم لمؤتمر الرباط سنة ١٩٧٦
- مؤتمر محمد بن عبد الوهاب سنة ١٩٧٩
- المحاماة سنة ١٩٣٣
- المحاماة سنة ١٩٣٧
- كتاب الوطن العربى دار المعارف .

١٩٨٧ / ٣٠٠٩	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٩٩٣-٢	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٣٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

هذا هو الكتاب الأول من هذه السلسلة الجديدة (أعلام الإسلام)
ويجىء الإمام محمد عبده في مقدمة هؤلاء الأعلام . لما تنطوى عليه
شخصيته من الثراء الفكري ، بما مكنه من حمل راية الإصلاح
والأخلاق قرابة مائة عام . ففي شخصيته من النظام والتدفق ، ومن
الوضوح والمنطق ما ميزه فكره بالأصالة والعالمية معاً .
ويقدم الكتاب مواقف الإمام المتعددة : في كثير من جوانب الفكر
والدين والمجتمع . ومشاركته الإيجابية في صنع كثير من معالم حياتنا
المعاصرة . وذلك برؤية موضوعية مخلصه تليق بعظمة هذا الرجل الذي
آلت إليه مشيخة الإسلام عن جدارة واستحقاق واقتدار .